

محمد ﷺ

بين ورقة بن نوفل

ويوسف العليم

إعداد

زهدي جمال الدين محمد

باحث في علم مقارنة الأديان

بين يدي الدراسة:

لقد تناول الكتاب والوعاظ قصة يوسف ﷺ من منظور متفق عليه تقريباً ويجمعهم خط درامي واحد يتمثل في القصة القرآنية وأغراضها المتنوعة والأهداف التي من أجلها صيغت إلى آخر المعاني العظيمة والتي لا يخلو منها كتاب أو تفسير، وحظيت سورة يوسف بالجانب الأوفى نظراً لأنها تمس الأسرة والمجتمع ونظام الحكم وشرعية الحكومة، وقتلت هذه الموضوعات بحثاً من قبل الدارسين الأفاضل وكل أدلى بدلوه بما فتح الله له من أبواب الخير. وهذه الدراسة التي بين يديك هي ملخص لما ورد من أبحاث دارت حول السورة الكريمة وموضوعاتها المتنوعة، إلا أنني قد لاحظت شيئاً مهماً قد غفل عنه معظم الدارسين للسورة الكريمة ألا وهو العلاقة الوثيقة بين سورة يوسف يوم نزولها على الرسول الكريم ﷺ وحادثة الهجرة النبوية الشريفة، لذلك كان موضوع البحث " محمد ﷺ بين ورقة بن نوفل و يوسف ﷺ ".

وقد يكون العنوان غريباً بعض الشيء، ولكنها الحقيقة نذكرها بدون تكلف كيف؟. هذا ما سوف نوضحه في الصفحات القادمة إذ أن مقدمات الهجرة كانت مع ورقة بن نوفل أما بشائرها من حيث النصر والتمكين للنبي ﷺ فقد وردت في سورة يوسف، بينما الخط الدرامي للأحداث منذ البعثة النبوية وحتى الهجرة إلى المدينة المنورة، فقد تناولته سورتي يونس وهود عليهما السلام والسابقتين في النزول لسورة يوسف .

وفي الدراسة سوف نتعرف على امرأة العزيز أعظم تائبة في التاريخ، مع الحديث عن عفة يوسف ﷺ، وخمسة عشر دليلاً على براءته ﷺ.

ولسوف نتناول في هذه الدراسة هجرة النبي ﷺ إلى المدينة على وجه الإجمال إذ أن كتب السيرة قد تناولت الموضوع بشيء من التفصيل.

ونظراً لأهمية موضوع الهجرة فلقد أفردت لها دراسة خاصة أسميتها (الهجرة النبوية الشريفة كما هي في الكتاب المقدس بدون تأويل).

ولكن ما يهمنا هنا هو تناول حدث الهجرة النبوية الشريفة، من حيث قيمته مقارنة بهجرة اليهود إلى فلسطين فكلا الهجرتين كانتا بوازع ديني.

ولسوف نعرض إلى قصة يوسف ﷺ على وجه الإجمال كما وردت في القرآن الكريم مقارنة بالقصة التوراتية الواردة في الكتاب (المقدس)، وذلك على النحو الوارد تفصيلاً..

هذا والله ولي التوفيق...

زهدي جمال الدين محمد

تعقيبات من سورة هود ١٠٠ - ١١٥

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿١٠١﴾ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ ﴿١٠٣﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ الْفُرَىٰ وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٦﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٧﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١١٠﴾ ﴾

إن المدقق في الآيات الكريمة يجد أن مصارع القوم معروضة ، ومشاهدتهم تزرع النفس والخيال ؛ منهم الغارقون في لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار . وما حل بهم من قبل في الدنيا يخاليل للأنظار .

إن الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورتين كلها . . سواء في مقدمتهما التي تعرض مضمون الكتاب الذي أرسل به محمد ﷺ أو في القصص الذي يعرض خط الحركة بالعقيدة الإسلامية على مدى التاريخ البشري، أو في التعقيب الختامي الذي يوجه رسول الله ﷺ إلى مواجهة المشركين بالنتائج النهائية المستخلصة من هذا القصص ومن مضمون الكتاب الذي جاءهم به في النهاية . .

إن الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورتين . . هي التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة غيره . . وتقرير أن هذا هو الدين كله . . وإقامة الوعد والوعيد، والحساب والجزاء، والثواب والعقاب، على هذه القاعدة الواحدة الشاملة.

ويبقى هنا أن نجلي أولاً طريقة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة ، وقيمة هذه الطريقة.

إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد في صيغتين هكذا:

الصيغة الأولى:

هود ٥٠:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ﴾

هود ٦١:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ﴾

هود ٨٤:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ﴾

الصيغة الثانية:

هود ٢:

﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ﴾

وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهي . . فهل مدلولهما واحد ؟.

إن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه . .

ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله . .

والمدلول الثاني هو مقتضى المدلول الأول ومفهومه . .

ولكن الأول "منطوق" والآخر "مفهوم" . .

ولقد اقتضت حكمة الله ﷻ — في بيان هذه الحقيقة الكبيرة — عدم الاكتفاء بالمفهوم ، في

النهي عن عبادة غير الله . وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل، وإن كان مفهوما

ومتضمنا في الأمر الأول !.

إن هذا يعطينا إحياء عميقا بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها في ميزان الله سبحانه ، بحيث

تستحق ألا توكل إلى المفهوم المتضمن في الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وأن

يرد النهي عن عبادة سواه في منطوق مستقل يتضمن النهي بالنص المباشر لا بالمفهوم

المتضمن ! ولا بالمقتضى اللازم !.

كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها . .

عبادة الله... وعدم عبادة سواه...

إن النفس البشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء، وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وإضافة النهي الصريح عن عبادة سواه إلى المفهوم الضمني الذي يتضمنه الأمر بعبادته وحده، ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجدون الله، ولا يتركون عبادته، ولكنهم مع هذا، يعبدون معه غيره ؛ فيقعون في الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون !.

ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهي معا ؛ بحيث يؤكد أحدهما الآخر ، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صورته الكثيرة ..

وقد تكرر مثل هذا التعبير القرآني في مواضع شتى ؛ هذه نماذج منها من هذه السورة ومن سواها:

[هود: ١ - ٢] ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمَتْ أَيْتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَكَاشِيرٌ ۝﴾.

[هود: ٢٥ - ٢٦] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ۝﴾.

[هود: ٥٠] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَبْقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ۝﴾.

[النحل: ٥١] ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ فَإِنِّي فَارَّهَبُونَ ﴿٥١﴾ ۝﴾.

[آل عمران: ٦٧] ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ۝﴾.

[الأنعام: ٧٩] ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۚ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ۝﴾.

ثم يأتي التعقيب على هذا القصص بتوجيه رسول الله ﷺ إلى دلالته، والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله ؛ وبما أولاهم الله من رعايته ونصره ؛ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به . . وذلك إلى التتويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق دعواه في الوحي والرسالة.

بعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ

هَذَا ۖ فَاصْبِرْ ۚ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨)

وفي نهاية القصص الوارد في سورة هود والتي هي مقدمة لسورة يوسف نجد هذا التعقيب الطويل قبل ختام السورة:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۚ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (٢١) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۚ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ ﴾ (٢٢) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ

وَهِيَ ظُلُمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ

ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ (٢٤)

نجد في هذا الموضع وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد، التعقيب التالي: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۚ ﴾ فما كان لك به من علم إنما هو الوحي ينبئك بهذا الغيب المطمور .

﴿ مِنْهَا قَائِمٌ ۖ ﴾ لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران ، كبقايا عاد في

الأحقاف وبقايا ثمود في الحجر .

ومنها ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ كالزراع المحصود، اجتث من فوق الأرض وتعرى وجهها منه،

كما حل بقوم نوح أو قوم لوط.

ثم في ختام السورة الكريمة يأتي التعقيب الآتي:

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢٠

وهو مقدمة الحديث عن سورة يوسف عليه السلام حيث يقول سبحانه وتعالى في أول السورة:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ
قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ٣

ومن هذا الإجمال إلى التفصيل الآتي:

الفصل الأول

مع سورتى يونس وهود عليهما السلام

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابع على رسول الله ﷺ المصائب بهلاك السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها — وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها — وبهلاك عمه أبي طالب — وكان له عضدا وحرزا في أمره ، ومنعة وناصر على قومه — وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا .

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، قال: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب ، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها: " لا تبكي يا بنية ، فإن الله مانع أباك " .

قال: ويقول بين ذلك: " ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " . وقال المقرئ في إمتاع الأسماع: فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتهما وسماه " عام الحزن " وقال: " ما نالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " لأنه لم يكن في عشيرته وأعماله حاميا له ولا ذابا عنه غيره .

وفي هذا الجو النفسي المشحون نزلت سور يونس وهود ويوسف عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وكلها تحمل طابع هذه الفترة ؛ وتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها ، وآثار هذه الفترة وجوها واضحة في جو هذه السور وأحداثها وموضوعاتها ! وبخاصة ما يتعلق بتثيبت رسول الله ﷺ والذين معه على الحق ؛ والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي .

ففي سورتى يونس وهود تم عرض مواقف الرسل الكرام عليهم السلام وهم يتلقون الإعراض والتكذيب، والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والإيذاء ، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق ، وفي نصر الله الذي لا شك أت ؛ ثم تصديق العواقب في الدنيا — وفي الآخرة كذلك — ليقين الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم ، بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين .

بينما في سورة يوسف ﷺ فلقد كان الأمر مختلفاً ، لأن الله سبحانه وتعالى قص علي النبي ﷺ هذه القصة ليثبت بها فؤاده لأن نبي الله يوسف الصديق الكريم ﷺ لم يعان من قومه بل عانى من أخوته، فإذا كانت المعاناة من الأقوام فالنبي ﷺ له بالأنبياء الصادقين أسوة حسنة ، وإن كانت المعاناة من الأقربين فله في سيدنا يوسف ﷺ أسوة حسنة .

ونحن إن جاءتنا المتاعب من الأبعاد فهذا درس يوضع أمامنا وإن جاءتنا المتاعب من الأقارب ، من الأهل ، من الأخوة فلنا في هذا النبي الكريم أسوة حسنة ، ولأن النبي ﷺ قد جمع ما بين الأمرين معا — معاناته مع قومه وأهله — لذلك كان لنا فيه الأسوة الحسنة.


وعن المتاعب مع القوم نتناول:

أولاً: الخط الدرامي للأحداث، مع سورة يونس عليه السلام:


هذه السورة نزلت بعد سورة الإسراء وقبل الهجرة النبوية الشريفة، وقد حمي الجدل من المشركين حول صدق الوحي، وحول هذا القرآن الكريم، وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم، ومن تنديد بجاهليتهم، ومن كشف لما في كيانهما من تناقض واضح. وتحتشد بمصارع الغابرين من المكذبين، أنا في صورة الخبر ، وأنا في صورة قصص بعض الرسل .

وتلتقي كلها عند عرض مشاهد التدمير على المكذبين ؛ وتهديدهم بمثل هذا المصير الذي لقيه من قبلهم، فلا تغرنهم الحياة الدنيا ، فإن هي إلا فترة قصيرة للابتلاء، أو ساعة من نهار يتعارف فيها الناس، ثم يعودون إلى دار الإقامة في العذاب أو في النعيم.

وقد سميت السورة بسورة يونس، بينما قصة يونس فيها لا تتجاوز إشارة سريعة على هذا النحو:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

ولكن قصة يونس - مع هذا - هي المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغطة العذاب لهم ؛ فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة ؛ وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب ، فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم ، كما هي سنة الله في المكذبين المصيرين .

يقول ﷻ في سورة يونس ٢: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

فهذه هي خلاصة الوحي: إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة، وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الإلتباع وبيان النواهي الواجبة الاجتناب، فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال .

والإنذار للناس جميعا، فكل الناس في حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير.

والبشرى للذين آمنوا وحدهم، وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار . .

تلك المعاني التي توحى بها كلمة ﴿صَدَقَ﴾ مضافة إلى القدم، في جو الإنذار والتخويف .

﴿قَدَمَ صَدَقٍ﴾: قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد، في جو الإنذار وفي ظلال الخوف، وفي ساعات الحرج .

﴿قَدَمَ صَدَقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ . . في الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة، حينما تتزلزل القلوب والأقدام.

وحكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم، رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه ، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج . أما حكمته في إرسال الرسل فهي أوضح، والإنسان مهياً بطبعه للخير والشر، وعقله هو أدواته للتمييز، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما غم عليه الأمر، وأحاطت به الشبهات، وجذبتة التيارات والشهوات، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانا من النقيض إلى النقيض، هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه، وينزل على إرشاده، ويرجع إلى الصواب على هداه.

وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشرعية الله .

ومع وضوح قضية الوحي على هذا النحو، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمرا عجيبا :

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ساحر لأن ما ينطق به معجز، وأولى لهم — لو كانوا يتدبرون — أن يقولوا: نبي يوحى إليه لأن ما ينطق به معجز، فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة ، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راق ، وما يركز عليه نظام متفرد . .

والآن مع ﴿أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

يقول سبحانه وتعالى فى يونس ١٤: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا^٧

وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ

جَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ويقول سبحانه فى نفس السورة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ

كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانٍ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا

سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾

فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ^ط فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

بَيَّانَتِنَا^ط فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨﴾

ويقول سبحانه وتعالى فى نفس السورة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بَيَّانَتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ

عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ^ط قَالَ ﴿٢٦﴾ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ^ط

أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٢٧﴾

إلى قوله تعالى فى نهاية القصة: ﴿وَجَنُودَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدَوْا^ط حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

ءَامَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ءَاَلَسْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٣٠﴾

ختم السورة

يقول سبحانه في ختام السورة ١٠٢، ١٠٣: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ .

فالوحي وصدقه، والحق الخالص الذي جاء به، والبعث واليوم الآخر والقسط في الجزاء . .
هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كله ، وسيقت القصص لإيضاحها وضربت الأمثال لبيانها . .
ها هي ذي كلها تلخص في هذه الخاتمة، ويكلف الرسول ﷺ أن يعلنها للناس إعلاناً عاماً ، وأن يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة:

أنه ماض في خطته، مستقيم على طريقته، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

بين البداية والختام

هلاك فرعون غرقاً والآية في إلقاء جثته إلى الشاطئ

والمشهد التالي هو مشهد التنفيذ : ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ءَالَيْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ .

إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير في قصة التحدي والتكذيب.

والسياق يعرضه مختصراً مجملاً، لأن الغرض من سياق هذه الحلقة من القصة في هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة، ببيان رعاية الله وحمايته لأوليائه ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة ، وهو مصداق ما سبق في السورة من وعيد للمكذبين.

قصة قوم يونس والمشيمة الإلهية في الهدى والضلال

بعد ذلك يجيء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطاباً إلى الرسول ﷺ تنبيهاً بما حدث للرسول قبله ، وبياناً لعلّة تكذيب قومه له ، أن ليس ما ينقصهم هو الآيات البينات ، إنما هي سنة الله في المكذبين من قبلهم؛ وسنة الله في خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال . . وفي الطريق يلم الإمامة سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ، فرد عنهم . لعل فيها حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان . . وينتهي بالخلاصة المستفادة من ذلك القصص كله ، أن سنة الله التي مضت في الأولين ماضية في الآخرين:

عذاب وهلاك للمكذبين، ونجاة وخلص للرسول ومن معهم من المؤمنين حقاً كتبه الله على نفسه، وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد.

والآن مع قرية يونس:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ

عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ .

ما هي تلك القرى التي لم تؤمن.... إنما آمنت منها قلة ، فكانت الصفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان . . ذلك فيما عدا قرية واحدة — والقرية: القوم ، والتسمية هكذا إيذان بأن الرسالات كانت في قرى الحضر ولم تكن في محلات البدو — ولا يفصل السياق هنا قصة يونس وقومه ، إنما يشير إلى خاتمتها بهذه الإشارة ؛ لأن الخاتمة وحدها هي المقصودة هنا، فلا نزيدها نحن تفصيلاً، وحسبنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب مخز يتهدهم ، فلما آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب ، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل، ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم وفقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه . .

حسبنا هذا لنذكر أمرين هامين:

أولهما: الإلهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وهو الغرض المباشر من سياق القصة هذا المساق . .

وثانيهما: أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى، بل مضت ونفذت، لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول، فلا جبرية إذن في تصرفات الناس، ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها.

ثانياً: الخط الدرامي للأحداث، مع سورة هود عليه السلام

لقد نزلت السورة بجمالها بعد يونس، وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ؛ وهي من أخرج الفترات وأشققها في تاريخ الدعوة الإسلامية.

ففي قصة نوح نجد هذا المشهد :

هود ٢٧ — ٣٣ :

﴿ فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ قَالَ ﴿ ٢٧ ﴾ يَنْقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَّاءً وَأَنْتُمْ هَاهُنَا كَارِهِوْنَ ﴿ ٢٨ ﴾ وَيَنْقُومِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿ ٢٩ ﴾ وَيَنْقُومِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ٣١ ﴾ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ ٣٢ ﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿ ٣٣ ﴾

ثم يجيء مشهد الطوفان وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

وكانت خاتمة المطاف:

النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته ؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسه العذاب الأليم . . ذات البشرى وذات الوعيد اللذان مرا في مقدمة السورة K فجاء القصص ليترجمهما في الواقع المشهود . .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ٤٠ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ ٤١ ﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿ ٤٢ ﴾ قَالَ سَتَأَوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿ ٤٣ ﴾

انتهاء الطوفان واستقرار السفينة

وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النفس والأذن :

﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ٤٣

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة في ميزان الله سبحانه :
إن هذه الحفنة — وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل — قد استحققت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ؛ وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض ! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد . .
. . وهذا أمر خطير . .

وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونهم ويزجرونهم ويفترون عليه كما قال الله تعالى في سورة القمر :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿ ١ ﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿ ٢ ﴾ ﴾

عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه ﴿مَغْلُوبٌ﴾ ويدعو ربه أن "ينتصر" هو، ينتصر هو سبحانه وتعالى وقد غلب رسوله عليه السلام ..

عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب:

عندئذ:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾

وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاوّل عملها على هذا المستوى الكوني الرائع المدهوب ..
كان الله سبحانه — بذاته العلية — مع عبده المغلوب:

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُحِّ وَدُسِّرِ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾

هذه هي الصورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كل مكان وفي كل زمان أمامها حين تطاردها قوى الظلم ؛ وحين "تغلبها" قوى الظلم !.
إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة .
وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان .. فما الطوفان إلا صورة من صور تلك القوى
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴿١٥﴾﴾ — سورة المدثر ٣١ —

وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر في طريقها ؛ وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه، وإلا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، وإلا أن تتق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وأنه لن يترك أوليائه إلى أعدائه ، إلا فترة الإعداد والابتلاء ؛ وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء . وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم . .

وتستمر الأحداث في السورة:

ففي قصة هود نجد هذا المشهد :

هود/ ٥٩ — ٦٥: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦١﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٦٢﴾ إِلَّا عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴿٦٣﴾﴾
﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٤﴾﴾

نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة . . دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول:

﴿ قَالَ يَنْقَوْمِرَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ ﴾

نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه ؛ وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها ؛ وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم: ﴿ يَنْقَوْمِرَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ ﴾ . .

فهم كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين:

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا

لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

وجودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل ، وإتباع الجبارين . . فهو أمر واحد لا أمور متعددة . . ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله؛ فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ؛ وخرجوا بذلك من الإسلام.

وهنا ظهر الشيب في رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على قومه الجاحدين المنكرين لرسالته فخشي وهو على تلك الحال المكدود وهم على تلك الحال من الجحود أن ينزل عليه قوله سبحانه ألا بعداً لقريش قوم محمد، نل ما نزل عليه في السورة ألا بعداً، ألا بعداً، ألا بعداً وقد بعث رحمة مهداة.

فالآيات تنزل على قلبه الشريف كأنها نواقيس خطر تدق بعنف منبهة للعاقبة الوخيمة وإعطاء الفرص لقوم النبي صلى الله عليه وسلم قبل فوات الأوان:

ففي حق قوم هود عليه السلام نزل قوله تعالى:

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۖ ﴾

وفي حق قوم صالح عليه السلام نزل قوله تعالى:

﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودٍ ۖ ﴾

وفي حق قوم شعيب عليه السلام قوله تعالى:

﴿ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِثْتَ ثَمُودَ ۖ ﴾

وتستمر الأحداث في السورة الكريمة:

ومع قصة صالح نجد هذا المشهد:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّحِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَنْقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

ثم تجيء العاقبة بعد عقر الناقة والتكذيب:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

وبالفاء التعقبية يعبر كذلك، فالعذاب لم يتأخر:

فلما جاء موعد تحقيق الأمر — وهو الإنذار أو الإهلاك — نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا . . خاصة ومباشرة. . نجينا من الموت ومن خزي ذلك اليوم، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشهدا مخزيا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۖ﴾ . .

يأخذ العتاة أخذا ولا يعز عليه أمرا، ولا يهون من يتولاه ويرعاه.
ثم يعرض السياق مشهدهم ، معجبا منهم ، ومن سرعة زوالهم:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ﴾ .

كأن لم يقيموا ويتمتعوا . وإنه لمشهد مؤثر ، وإنها للمسمة مثيرة ، والمشهد معروض وما بين الحياة والموت — بعد أن يكون — إلا لمحة كومضة العين ، وإذا الحياة كلها شريط سريع .
كأن لم يغنوا فيها . . .

ثم الخاتمة المعهودة في هذه السورة:

تسجيل الذنب، وتشجيع اللعنة، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ۖ﴾

فثمود كعادهم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح — ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد . .
ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التي طلبوها، لا بالإيمان والتصديق، ولكن بالجدود وعقر الناقة !
ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق السابقة كي يؤمنوا .
فهاهم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا . فما أغنت معهم شيئا ! إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول، ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول: !!! .
وتستمر الأحداث في السورة الكريمة:

ومع قصة شعيب عليه السلام رسول الله للعلمانيين

وفي قصة شعيب نجد هذا المشهد ٨٧ — ٩٥ :

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۖ﴾ قَالَ يَنْقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمٍ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
 أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
 إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا
 ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ
 عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾
 وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
 وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبًا
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ
 جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ ﴿٩٥﴾ ۞

قوم مدين يرفضون تدخل الدين في حياتهم

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال:

﴿٩٥﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي
 أَمْوَالِنَا مَا نَشَئُو ۚ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٩٦﴾ ۞

وهو رد واضح التهمك، بين السخرية في كل مقطع من مقاطعه، وإن كانت سخرية الجاهل
 المطموس والمعاند بلا معرفة ولا فقه.

فهم لا يدركون — أو لا يريدون أن يدركوا — أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن
 صور العبودية ، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ،
 كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون
 الحياة والتعامل .

فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة.
 وقبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة، وارتباطهما معا
 بالمعاملات. .

قبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب، وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى ! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها — بما فيها أولئك الذين يقولون:

إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون — فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر، والشريعة والتعامل، فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ووفق أمر غيره. . وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله . .

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم — وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف — فلقد قامت أزمة في "الكنيسة" مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها — من غير اليهود — أطعمة غير شرعية . وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده — مهما تعرضت للخسارة - فأين من يدعون أنفسهم "مسلمين ! " من هذا الاستمساك بالدين !!؟.

إن بيننا اليوم — ممن يقولون:إنهم مسلمون وقد حصلوا على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم .

يتساءلون أولا في استنكار:

وما للإسلام وسلوكنا الشخصي ؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ ؟ ما للإسلام وزى المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله "المتحضرين" ؟! . .

فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين:

﴿ قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيْ

أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

وهم يتساءلون ثانيا:

بل ينكرون بشدة وعنف، أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . . فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده ، وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية — النظرية الأخلاقية مثلا — ويعدونها تخليطا من أيام زمان !.

فلا يذهبن بنا الترفع كثيرا على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى، ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله، والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في السوق. . تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود !!!

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد، والشرك ألوان منه هذا اللون الذي نعيش به الآن، وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان ! .
ويسخر أهل مدين من شعيب — كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق — فيقولون :

﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۖ ۝ ١٠ ۖ ﴾

وهم يعنون عكس معناها، فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق ! وكذلك هو عند المتقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!
والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة — بعد قضية العقيدة والاستسلام لله رب العالمين — أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والاستسلام لله رب العالمين.

قوم مدين يهددون بإيذاء شعيب رغم نصحه لهم

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يبالى وهو يشعر بقصورهم وجهلهم .. يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سينتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ؛ فهو لا يبغى كسبا شخصيا من وراء دعوته لهم ؛ فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعل هو لتخلو له السوق ! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس .

وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُم إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۖ ۝ ١١ ۖ ﴾

﴿يَقَوْمٌ﴾ . . في تودد وتقرب ، وتذكير بالأواصر القريبية .

﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ . . أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنه هو يوحى

إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه، وعن هذه البينة الواضحة في نفسي ، أصدر واثقا مستيقنا .

﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ . . ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها .

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ . . فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم فأفعل ما

نهيتكم عنه لأحقق لنفسي نفعا به ! .

الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ؛ وإن خيل إلى بعضهم أن إتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي ، ويضيع بعض الفرص ، فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة ؛ ويعوض عنهما كسبا طيبا ورزقا حلالا ، ومجتما متضامنا متعاوننا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام ! .

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ . . فهو القادر على إنجاح مساعي في الإصلاح بما يعلم من

نيتي ، وبما يجزي على جهدي .

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ . . عليه وحده لا اعتمد على غيره .

﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ . . إليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأمور ، وإليه وحده أتوجه بنيتي

وعلمي ومسعاي .

ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط؛ فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب القاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير:

﴿وَيَقَوْمٍ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ

أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ .

لا يجملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم، وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان، وقريب كذلك في الزمان، فمدين كانت بين الحجاز والشام.

ثم يفتح لهم — وهم في مواجهة العذاب والهلاك — باب المغفرة والتوبة ، ويطمعمهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها:

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكير والخوف والطمع، لعل قلوبهم تتفتح وتخضع وتلين .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب، ومن سوء تقدير القيم في الحياة، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب، فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح، لا يريدون أن يدركوه:

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾

وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة:

﴿وَإِنَّا لَنَرَنَّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها .

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ففي حسابهم عصبية العشيرة، لا عصبية الاعتقاد، وصلة

الدم لا صلة القلب، ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ لاعزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر، ولكننا

نحسب حساب الأهل والعشيرة، وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتخرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبية تؤويه ؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية .

إنهاء المواجهة بين مدين وشعيب بإهلاكهم

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوِّفَ

تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ

﴿١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِيَّنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ

ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿١٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ أَلَا بُعْدًا

لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿١٥﴾

والآيات ٩٢ - ٩٥ من السورة الكريمة تؤكد هذه الحقيقة:

ما الذي نراه في الآيات الكريمة؟..

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا ﴾..وهي صورة حسية للترك والإعراض ، تزيد في شناعة فعلتهم ، وهم يتركون الله ويعرضون عنه ، وهم من خلقه ، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه . فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير .

إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله **وَعَلَّ** ووقاره .

٢٥

إن شعيبا لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه ، فلا تمتد إليهم بالبطش الذي يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه - الذين افترق طريقهم عن طريقه - وهذا هو الإيمان في حقيقته، أن المؤمن لا يعتز إلا بربه ؛ ولا يرضى أن تكون له عصابة تخشى ولا يخشى ربه، فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه إنما هي لربه ودينه، وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته.

ومن هذه الغضبة لله، والتصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدي الذي يوجهه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم — بعد أن كان واحدا منهم - ويفترق الطريقان فلا يلتقيان:

﴿ وَيَقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ۚ ۞ وامضوا في طريقكم وخطتكم ، فقد نفضت يدي منكم .

﴿ إِنِّي عَمِلٌ ۚ ۞ ..على طريقتي ومنهجي .

﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّخْزٍ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۚ ۞ ..أنا أم أنتم ؟.

﴿ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۚ ۞ ..للعاقبة التي تنتظرني وتنتظركم . وفي هذا التهديد ما يوحى بنقته بالمصير، كما يوحى بالمفاصلة وافتراق الطريق .

ويسدل الستار هنا، على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة ، ليرفع هناك على مصرع القوم ، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم ، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح ، فكان مصيرهم كمصيرهم ، خلت منهم الدور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر، مضوا مثلهم مشيعين باللعنة ، طويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا خَجَيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ

ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿٩٥﴾ ۞ .

وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود ، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد .

وتستمر الأحداث في السورة الكريمة:

فرعون يقود قومه إلى النار

وخاتمة ذلك القصص هذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه ، ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره ، وتتضمن هذه الإشارة العابرة إيماءات كثيرة إلى وقائع القصة التي لم تذكر هنا، كما تضم مشهدا من مشاهد القيامة الحية المتحركة، وهذا وذلك إلى تقرير مبدأ رئيسي من مبادئ الإسلام . مبدأ التبعة الفردية التي لا يسقطها إتباع الرؤساء والكبراء . .

ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزودا بقوة من الله وسلطان، إلى فرعون ذي السلطان وكبراء قومه الآيات ٩٦ — ٩٩ من سورة هود الكريمة:

﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٨﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٠٠﴾

ماذا نرى في الآيات؟.. يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ ﴿٤٧﴾

ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها، فإذا هم يتبعون أمر فرعون، ويعصون أمر الله، على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط:

﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾

ولما كانوا تبعوا فرعون في هذا الأمر، يمشون خلفه، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر، ودون أن يكون لهم رأي، مستهينين بأنفسهم، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق. . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاء: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعدا عن المستقبل، إذا المشهد ينقلب، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾.

أوردتهم كما يورد الراعي قطع الغنم، ألم يكونوا قطعاً يسير بدون تفكير؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار؟ فأوردتهم النار.

ويا بئساء من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، إنما يشوي البطون والقلوب:

﴿ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ ﴾.. وإذا ذلك كله، قيادة ففرعون لهم، وإيرادهم موردتهم..

إذا ذلك كله حكاية تروى ويعلق عليها: ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾

ويسخر منها ويتهم عليها: ﴿ بئس الرفض المرفود ﴾.

فهذه النار هي الرفض والعطاء والمنة التي رقد بها فرعون قومه !!! ألم يعد السحرة عطاء جزيلاً ورفداً مرفوداً.. فيها هو ذا رقد لمن اتبعه.. النار.. وبئس الورد المورود ، وبئس الرفض المرفود !.

وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا الكتاب العجيب..

تعقيبات على ختام القصة كما هو وراى في الآيات البينات

هود ١٠٠-١١٥: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ ﴿ ١١١ ﴾ وَكَذَلِكَ

أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿ ١١٢ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ

﴿ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ ﴿ ١١٤ ﴾

هذه هي خاتمة السورة، تشتمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة، مبنية على ما سبق في سياق السورة، من المقدمة ومن القصص.

وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة ، متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك .

والتعقيب الأول

هنا تعقيب مباشر على القصص:

وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ
وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۖ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٢﴾

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.. فهم قد عطلوا مداركهم ، وتولوا عن الهدى ، وكذبوا بالآيات ، واستهزءوا بالوعيد ، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين . ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ

إلا خسارة ودمارا ، ولفظ تتبيب أقوى ببنائه اللفظي وجرسه المشدد ، ذلك أنهم اعتمدوا عليهم فزادوا استهتارا وتكذيبا، فزادهم الله نكالا وتدميرا، فهذا معنى (ما زادوهم) فهم لا يملكون لهم ضرا كما أنهم لا يملكون لهم نفعاً، ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد . .

۲۹

والتعقيب الثاني

يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحيا بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة:

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٢﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

تعقيب ثالث.. مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد ﷺ شأنهم شأن من قبلهم في الحالين ، وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب، ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد، فاستقم أيها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا وأقم الصلاة واصبر، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. ثم عودة إلى القرون الخالية التي لم يكن فيها إلا قليل من الذين ينهون عن الفساد في الأرض. أما الكثرة فكانت ماضية فيما هي فيه، فاستحقت الهلاك.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ ۖ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٧﴾

وفي النهاية

يسجل السياق غرضاً من أغراض هذا القصص هو تنبيت فؤاد النبي ﷺ، ويؤمر الرسول أن يلقي للمشركين كلمته الأخيرة ، ويكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله، وأن يعبد الله ويتوكل عليه، ويدع له أخذ الناس بما يعملون:

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ۚ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٢١ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿ ١٢٢ ﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿ ١٢٣ ﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۚ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ١٢٤ ﴾ ۝ .

مصير الأشقياء والسعداء يوم القيامة

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ١٢٥ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿ ١٢٦ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿ ١٢٧ ﴾ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ ﴿ ١٢٨ ﴾ ۝



مواساة وتطمين الرسول ﷺ ومن معه بأنهم على الحق

بعد هذا الاستطراد إلى المصير في الآخرة، بمناسبة عرض مصائر الأقوام في الدنيا والمثابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك، أو هنا ثم هناك. . يعود السياق بما يستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول ﷺ والقللة المؤمنة معه في مكة — تسرية وتثبيتا ؛ وإلى المكذبين من قومه بيانا وتحذيرا، فليس هناك شك في أن القوم يعبدون ما كان آبؤهم يعبدون — شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر — ونصيبهم الذي يستحقونه سيوفونه، فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى ﷺ — بعد اختلافهم في دينهم — لأمر قد شاءه الله في تأخير مصيرهم .

ولكن قوم موسى ﷺ وقوم محمد ﷺ على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفي الموعد المحدود، ولم يؤخر عنهم العذاب لأنهم على الحق ، فهم على الباطل الذي كان عليه آبؤهم بكل تأكيد:

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ۚ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٩﴾ ۚ ۝﴾ .

لا يتسرب إلى نفسك شك في فساد عبادة هؤلاء، والخطاب للرسول ﷺ والتحذير لقومه، وهذا الأسلوب أفعل في النفس أحيانا ، لأنه يوحي بأنها قضية موضوعية يبينها الله لرسوله ، وليست جدالا مع أحد ، ولا خطابا للمتلبسين بها ، إهمالا لهم وقلة انشغال بهم، وعندئذ يكون لتلك الحقيقة الخالصة المجردة أثرها في اهتمامهم أكثر مما لو خاطبوا بها خطابا مباشرا.

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ ۚ ۝﴾ ومصيرهم إذن كمصيرهم .. العذاب .. ولكنه يلفه كذلك في التعبير تمشيا مع

الأسلوب : ﴿ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ۚ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ۚ ۝﴾ ومعروف نصيحتهم هذا من نصيب القوم قبلهم، وقد رأينا منه نماذج ومشاهد، وقد لا يصيبهم عذاب الاستئصال — في الدنيا — كما لم يصب قوم موسى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَلَفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٠﴾ ۝﴾ وَإِنْ كُلاَّ لَّمَّا لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢١﴾ ۝﴾ وتفرقت كلمتهم واعتقاداتهم وعباداتهم، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ ۝﴾

ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة، ولم يحل عذاب الاستئصال بهم، لأن لهم كتابا، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة، لأن الكتاب دليل هداية باق، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذي أنزل فيه، والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية التي لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها وإما أن لا يؤمن فيأخذه العذاب . . والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير ، مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل فيصبح هو الكتاب الأخير للناس جميعا يدعى إليه الناس جميعا ، ويحاسب على أساسه الناس جميعا ، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل .

﴿وَأَنبِئْهُمْ﴾ ..أي قوم موسى.. ﴿لَيْفَ شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ من كتب موسى ، لأنه لم

يكتب إلا بعد أجيال ، وتفرقت فيه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتبعيه .
وإذا كان العذاب قد أجل . . فإن الكل سيوفون أعمالهم خيرها وشرها . سيوفهم بها العليم
الخبير بها ولن تضيع:

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

وفي التعبير تأكيدات منوعة حتى لا يشك أحد في الجزاء والوفاء من جراء الإنذار والتأجيل .
وحتى لا يشك أحد في أن ما عليه القوم هو الباطل الذي لا شك في بطلانه ، وأنه الشرك الذي
زاوله من قبل كل المشركين . .

ولقد كان لهذه التوكيدات ما يقتضيها من واقع الحركة في تلك الفترة . فقد وقف المشركون
وقفنهم العنيدة منها ومن رسول الله ﷺ والقلّة المؤمنة معه ، وتجمدت الدعوة على وجه
التقريب . بينما عذاب الله الموعود مؤجل لم يقع بعد، والأذى ينزل بالعصبة المؤمنة ويمضي
أعداؤها ناجين . . إنها فترة تهتز فيها بعض القلوب، وحتى القلوب الثابتة تنالها الوحشة وتحتاج
إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت.

وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله، وأنهم على
الباطل الذي لا شك فيه !

كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشيء كما يكون بجلاء حكمة الله في إمهال الظالمين ،
وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون ..!

وصايا وتوجيهات للرسول ﷺ ومن معه

ذلك البيان مع هذا التوكيد يلقي في النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها في خلقه وفي دينه
وفي وعده وفي وعيده، وإذن فليستقم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم — كما
أمرُوا — لا يغفلون في الدين ولا يزيدون فيه، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم، ولا
يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق، ثم يتزودون بزداد الطريق ، ويصبرون حتى تتحقق
سنة الله عندما يريد .

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا

تُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

﴿١٤﴾ .. هذا الأمر للرسول ﷺ ومن تاب معه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾

أحسن عليه ﷺ برهبته وقوته حتى روي عنه أنه قال مشيرا إليه: " شبيبتني هود . . . " .
فالاستقامة: الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف، وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة،
والتدبر الدائم، والتحري الدائم لحدود الطريق وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه
قليلا أو كثيرا . . ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة.

﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ .. وإنه لمما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب

الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهيا عن القصور والتقصير ، إنما كان نهيا عن الطغيان والمجاوزة
وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة
التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر ، والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما
أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير،
وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمسك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو
الإهمال على السواء . . ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .. والبصر - من البصيرة -

مناسب في هذا الموضع ، الذي تتحكم فيه البصيرة وحسن الإدراك والتقدير .. فاستقم - أيها
الرسول - كما أمرت ومن تاب معك ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ .. لا تستندوا ولا
تطمئنوا إلى الذين ظلموا، إلى الجبارين الطغاة الظالمين ، أصحاب القوة في الأرض ، الذين
يقهرون العباد بقوتهم ويعبدونهم لغير الله من العبيد ... لا تركنوا إليهم فإن ركونهم إليهم يعني
إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير ..

﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ .. جزاء هذا الانحراف ..

﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ ..

والاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين .. والله -
سبحانه - يرشد رسوله ﷺ ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ﴾

ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذي يبقى حين يفنى كل زاد، والآية هنا تذكر طرفي النهار -
وهما أوله وآخره ، وزلفا من الليل أي قريبا من الليل ، وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة

دون تحديد عددها ، والعدد محدد بالسنة ومواقيته كذلك، والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة — أي أدائها كاملة مستوفاة — بأن الحسنات يذهبن السيئات، وهو نص عام يشمل كل حسنة، والصلاة من أعظم الحسنات، فهي داخلة فيه بالأولوية، لا أن الصلاة هي الحسنة التي تذهب السيئة بهذا التحديد.

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾

فالصلاة ذكر في أساسها ومن ثم ناسبها هذا التعقيب . .
والاستقامة في حاجة إلى الصبر، كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله في المكذبين يحتاج إلى الصبر . . ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة وعلى ما سبقه في السياق هو :

﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

والاستقامة إحسان . وإقامة الصلاة في أوقاتها إحسان . والصبر على كيد التكذيب إحسان . . .
والله لا يضيع أجر المحسنين . . .

وظيفة القصص في تثبيت الفؤاد وانتظار الفرج من الله والخاتمة الأخيرة.

خطاب للرسول ﷺ عن حكمة سوق القصص إليه في خاصة نفسه للمؤمنين، فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ، وليخل بينهم وبين ما ينتظرونهم في غيب الله، ثم ليعبد الله وليتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون . .
هود ١٢٠ — ١٢٣

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٢٠ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿ ١٢١ 〉 وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿ ١٢٢ 〉 وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ١٢٣ 〉 ﴾

ماذا في هذه الآيات الكريمة؟..

تأمل قوله تعالى:

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

ويا لله للرسول ﷺ لقد كان يجد من قومه ، ومن انحرافات النفوس ، ومن أعباء الدعوة، ما يحتاج معه إلى التسلية والتسرية والتثبيت من ربه ، وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه :

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ ..أيفي هذه السورة .. الحق من أمر الدعوة، ومن قصص

الرسل، ومن سنن الله، ومن تصديق البشرى والوعيد..

﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..تعظهم بما سلف في القرون وتذكرهم بسنن الله

وأوامره ونواهيه.. فأما الذين لا يؤمنون بعد ذلك فلا موعظة لهم ولا ذكرى . وإنما الكلمة الفاصلة ، والمفاصلة الحاسمة:

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾

كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم في هذه السورة لقومه..

﴿ وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ .. ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه.. وما ينتظرونه غيب

من غيب الله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ..والأمر كله إليه.. أمرك وأمر

المؤمنين ، وأمر الذين لا يؤمنون ، وأمر هذا الخلق كله ما كان في غيبه وما سيكون .

﴿ فَأَعْبُدْهُ ﴾ ..فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة .. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ .

فهو الولي وحده والنصير، وهو العليم بما تعملون من خير وشر، ولن يضيع جزاء أحد :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ..

وهكذا تختتم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في

النهاية ، بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده ، والرجعة إليه في نهاية

المطاف، وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون . .

الفصل الثاني

أولاً: البداية مع ورقة بن نوفل:

كان القرآن المكي على مدي ثلاث عشرة عاماً ينزل منجماً على قلب النبي ﷺ ليعالج قضايا الأمة ويمهد لأكبر الأحداث في الإسلام، ألا وهو حادثة الهجرة.

في غار حراء

لما تقاربت سنة ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبيب إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبدعة نحو ميلين من مكة فيقيم فيه شهر رمضان، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضجة الحياة وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة نقطة تحول لاستعداده لما ينتظره من الأمر العظيم، فيستعد لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ... دبر الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

جبريل النزيل بالوحي

ولما تكامل له أربعون سنة — وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل — بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع، فمن ذلك أنه كان يرى الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر — ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة — فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن.

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يوماً، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يوماً.

ولنستمع إلى السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها تروى لنا قصة هذه الواقعة التي كانت نقطة بداية النبوة، وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ. والحديث بتمامه كما ورد بصحيح البخاري أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ:

﴿كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ قَالَ وَالتَّحَنُّنُ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا حَتَّى فَجِبَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤. فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَجُّفُ بَوَادِرِهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ زَمُّونِي زَمُّونِي فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوْعُ قَالَ لَخَدِيجَةُ أَيُّ خَدِيجَةٍ مَا لِي لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ قَالَتْ خَدِيجَةُ كُلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا فَذَعَمَنِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ قَالَ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى لِيَتَنَبَّأَ فِيهَا جَدَّعًا لِيَتَنَبَّأَ أَكُونَ حَيًّا ذَكَرَ حَرْفًا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْمُخْرَجِي هُمْ قَالَ وَرَقَةُ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ ⑥.

أي أنه ﷺ قد تلقى خبر هجرته من مكة لحظة تلقيه لخبر نبوعته، وإن توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة.

إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود المعروفة لدارسي السيرة العطرة ؛ وأن تحتل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار عمر الدعوة . . لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه ، فإله سبحانه غني عن العالمين، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة "بالإنسان" إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها.

وعلى مدي ثلاث عشرة عاماً هي عمر الدعوة في مكة كان فيها رسول الله ﷺ أذن الخير التي استقبلت آخر إرسال السماء لهدي الأرض ولسان الصدق الذي بلغ عن الحق مراده من الخلق فأدي الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من رب العالمين فلم يكل ولم يتعب وإن كان التعب والكلال قد بلغ منه مبلغاً خصوصاً بعد موت أبي طالب و السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها ؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب — وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابطه ، واستهزاء المشركين به — مع وحشة رسول الله ﷺ من خديجة — رضي الله عنها - في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ؛ وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ؛ وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها . . وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله ﷺ وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية . .

ثانياً: مع سورة يوسف عليه السلام:

هذه السورة مكية، نزلت بعد سورة هود، في تلك الفترة الحرجة بين عام الحزن وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجا ومخرجاً بالهجرة إلى المدينة .
والسورة مكية بجملتها

بين يدي السورة

بداية قبل الدخول في دراسة سورة يوسف ينبغي ذكر عدة أمور:

١— أن جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التي تقع في نهاية السورة تبين قصة نبي الله يوسف ﷺ، تلك القصة الطريفة والجميلة والتي تحمل بين طياتها العبر، ولذلك سميت هذه السورة باسم يوسف وبهذه المناسبة — أيضاً — ورد ذكر يوسف — من مجموع (٢٧) مرة في القرآن (٢٥) مرة في هذه السورة ومرة واحدة في سورة غافر الآية (٣٤)، ومرة أخرى في سورة الأنعام الآية (٨٤).

ومحتوى هذه السورة — على خلاف سور القرآن الأخرى — مرتبط ببعضه ببعض ، وبالرغم من أن القصاصين غير الهادفين ، أو من لهم أغراض رخيصة سعوا إلى أن يحولوا هذه القصة المهيبة إلى قصة عشق يحرك أهل الهوى والشهوة بلغت الحال أن يصوروا فيلما سينمائيا وينشروه بصورة مبتذلة ... إلا أن القرآن الكريم — وكل ما فيه أسوة وعبرة — عكس في ثنايا هذه القصة أسمى دروس العفة وضبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أن إنسانا قراها عدة مرات فانه يتأثر — بدون اختيار — بأسلوبها الجذاب في كل مرة.

ولذا فقد عبر القرآن عنها بـ ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وجعل فيها العبر للمعتبرين .

٢- التدقيق في آيات هذه السورة يكشف هذه الحقيقة للإنسان ، وهي أن القرآن معجز في جميع أبعاده ، لان الأبطال الذين يقدمهم في قصصه أبطال حقيقيون لا خياليون ، وكل واحد في نفسه منهم منعدم النظير:

فإبراهيم عليه السلام البطل الذي حطم الأصنام بروحه العالية التي لا تقبل المساومة مع الطغاة .
ونوح عليه السلام بطل الصبر والاستقامة والشفقة والقلب المحترق في ذلك العمر الطويل المبارك.
وموسى عليه السلام البطل المربي لقومه اللجوجين ، والذي وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغى .
ويوسف عليه السلام بطل الورع والتقوى والطهارة.. ثم هو بعد ذلك نموذج للحاكم الواعي لشؤون بلده القوي الأمين، الحفيظ العليم..

٣- قصة يوسف عليه السلام قبل الإسلام وبعده لا شك أن قصة يوسف كانت مشهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسلام، لأنها مذكورة في (١٤) فصلا من [سفر التكوين] في التوراة بين [الفصل ٣٧ - ٥٠] ذكرا مفصلا.

وبطبيعة الحال فان المطالعة الدقيقة في هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الاختلاف بين ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن.

وبالمقارنة بين نص التوراة ونص القرآن نجد أن نص القصة في القرآن في غاية الصدق وتخلو من أي خرافة.

وما يقوله القرآن للنبي ﷺ : ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ ﴾ يشير إلى

قصة يوسف التي عبر عنها بأحسن القصص ، حيث لم يكن النبي مطلعاً على حقيقتها الخالصة .

ويظهر من التوراة أن يعقوب عليه السلام لما رأى قميص يوسف ملطخا بالدم قال : هذا قميص ولدي وقد أكله الحيوان المفترس ، فيوسف ممزق الأحشاء ثم خرق يعقوب ثوبه وشد الحزام على ظهره وجلس أياما للبكاء والنواح على يوسف ، وقد عزاه جميع أبنائه ذكورا وإناثا إلا انه امتنع أن يقبل تعزيتهم وقال : سأدفن في القبر حزنا على ولدي .

بيد أن القرآن يبين : أن يعقوب لم يصدق ما قاله أولاده ، ولم يفرع ولم يجزع لمصيبة ولده يوسف ، بل أدى ما عليه من سنة الأنبياء من الصبر والتوكل على الله ، وقال لأبنائه :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ ﴾ وان كان قلبه يحترق على

فراق ولده وعيناه تدمعان من اجله حتى ابيضتا وعميتا، ولكن – وكما يعبر القرآن – لم يقم بأي عمل من قبيل تخريق الثوب والنواح وشد الحزام على ظهره – والذي كان علامة للمصيبة والعزاء – وإنما قال : صبر جميل وكنتم حزنه فهو كظيم .

وعلى كل حال فان هذه القصة – بعد الإسلام – تناقلتها أفلام مؤرخي الشرق والغرب ... وأحيانا مع أغصان وأوراق إضافية .

٤- لم ذكرت قصة يوسف في مكان واحد على خلاف قصص سائر الأنبياء؟.

إن من خصائص قصة يوسف البارزة أن هذه القصة ذكرت في مكان واحد من القرآن، على خلاف قصص الأنبياء التي ذكرت على شكل فصول مستقلة في سور متعددة من القرآن. والحكمة في ذلك – والله أعلم بمراده – تعود إلى أن تفكيك فصول هذه القصة مع ملاحظة وضعها الخاص يفقدها ترابطها وانسجامها، فلهذا ينبغي أن تذكر كاملة في مكان واحد للحصول على النتيجة المتوخاة..

وعلى سبيل المثال فان الرؤيا وما ذكره أبوه من تعبير في أول هذه السورة يفقد معناه دون ذكر نهايتها.

لذلك نقرا في أواخر هذه السورة، حين جاء يعقوب وإخوة يوسف إلى مصر وخرؤا له سجدا قال يوسف ملتفتا إلى أبيه:

﴿ وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَوَائِلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ ﴾.

هذا النموذج يوضح الارتباط الوثيق بين بداية السورة ونهايتها، في حين أن قصص الأنبياء الآخرين ليست على هذه الشاكلة، ويمكن درك كل واحدة من خلال فصولها.

والخصية الأخرى والتي هي من خصائص هذه السورة هي أن قصص الأنبياء التي وردت في السور الأخرى من القرآن تبين عادة مواجهة الأنبياء لقومهم المعاندين والطغاة ، ثم تنتهي الحالة إلى إيمان جماعة بالأنبياء ومخالفة جماعة أخرى لهم واستحقاقهم عذاب الله وعقابه .

أما في قصة يوسف عليه السلام فلا كلام عن هذا الموضوع ، بل أكثر ما فيها بيان حياة يوسف عليه السلام نفسه ونجاته من المزالق الخطيرة التي تنتهي أخيرا إلى استلامه سدة الحكم ، وهي في حد ذاتها نموذج خاص .

ومع ملاحظة محتوى هذه السورة يتضح أن من يستلهم خطة حياته من هذه القصة ، ويعف نفسه أمام طوفان شديد من الشهوات والمال والجاه والمقام ، إلى درجة يرى بها حفرة السجن المظلمة مقرونة بطهارة الثوب أفضل من الحياة في قصور الملوك الملوثة ، فإن مثل هذا الشخص في جمال روحه كجمال يوسف ، وما من خفي إلا ظهر يوم القيامة ... وسيجد له جمالا مذهلا ويكون في صف عباد الله الصالحين.

فهذه القصة هي أحسن القصص، لأنها ترسم في فصولها المثيرة أسمى دروس الحياة ؟ فنحن نشاهد إرادة الله في كل شيء داخل هذه القصة، وننظر بأعيننا المصير الأسود الذي انتهى إليه الحساد وما رقموه على الماء من خطط.

كما تتجسم من خلال سطورها الذلة في الابتذال وعدم العفة ، وبعد ذلك العظمة في التقوى والاعتراف بالذنب على رعوس الأشهاد وما يستتبع ذلك من فضيحة كبرى أكبر من الفضيحة الأولى تتمثل في اعتراف امرأة العزيز بالذنب ذلك الاعتراف الذي حتما سيكلفها حياتها جسدها الآيات البيّنات ﴿قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ الْأَنْثَى حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ ﴿ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنِّیْ لَمْ اُخْنِهٖ بِاَلْغِیْبِ وَاَنَّ اَللّٰهَ لَا یَهْدِی الْخٰیۤبِیۡنَ﴾ ﴿وَمَا اُبْرِئُ نَفْسِیْۤ اِنَّ اَلنَّفۡسَ لَاۤ اَمٰرَةًۢ بِالسُّوۤءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّیۡۤ اِنَّ رَبِّیۡ غَفُوْرٌ رَّحِیْمٌ﴾ ﴿٢٧﴾ .

ومنظر الصبي وهو وحيد في قعر الجب ، وفي مشهد آخر نراه يقضي الليالي والأيام دون ذنب في حفرة السجن المظلم ، ثم انبثاق نور الأمل من خلف حجب اليأس والظلمات ، ثم نشاهد بعد ذلك حكومته العظيمة الواسعة نتيجة دراسته وأمانته . كل هذه المشاهد تتجلى للقارئ لهذه القصة بشكل رتيب .

لحظات وبسبب رؤيا يتحول مصير أمة... إنقاذ أمة ومجتمع بشري من التهلكة على يد قائد إلهي متيقظ... وعشرات الدروس الأخرى – الكبيرة – التي تلوح في هذه القصة ، فلم لا تكون هذه القصة أحسن القصص ؟ غاية ما في الأمر انه لا تكفي أن تكون قصة يوسف وحدها هي أحسن القصص ، بل المهم أن تكون فينا الجدارة لأن نفهم هذا الدرس العظيم وأن نعرف مكانه من نفوسنا.

فكثير من الناس لا يزال ينظر إلى قصة يوسف عليه السلام إلا على أنها حادثة عشق طريف ، ومثله كمثل الدابة التي يلوح لها البستان النضر المليء بالأزهار، إلا أنها تراه حفنة من العلف

تسد جوعها: وما يزال الكثير من الناس يضيفي على القصة إفرازات خيالية كاذبة ليحرف القصة عن واقعها ...

وهذا من عدم اللياقة وفقدان الجدارة وعدم قابلية المحل ، وإلا فإن أصل القصة جمع كل أنواع القيم الإنسانية العليا في نفسه .

اثر القصة في حياة الناس مع ملاحظة أن القسم المهم من القرآن قد جاء على صورة تاريخ للأمم السابقة وقصص الماضين، فقد يتساءل البعض: لم يحمل هذا الكتاب التربوي كل هذا التاريخ والقصص ؟ وتوضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدة نقاط:

١ - إن التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، وما رسمه الإنسان في ذهنه من الأفكار والتصورات يجده بصورة عينية على صفحات التاريخ. وبملاحظة أن أكثر المعلومات البشرية توافقا مع الواقع والحقيقة هي التي تحمل جانبا حسيا، فإن دور التاريخ في إظهار الواقعيات الحياتية يمكن إدراكه جيدا.

فالإنسان يرى بألم عينيه الهزيمة المردية - لأمة ما - نتيجة اختلافها وتفرقها، كما يرى النجاح المشرق في قوم آخرين في ظل اتحادهم وتوافقهم.

فالتاريخ يتحدث بلغة - من دون لسان - عن النتائج القطعية وغير القابلة للإنكار للتطبيقات العملية للمذاهب والخطط والبرامج عند كل قوم .

وقصص الماضين مجموعة من أكثر التجارب قيمة ، ونحن نعرف أن خلاصة الحياة ومحصولها ليس شيئا سوى التجربة .

والتاريخ مرآة تتعكس عليها جميع ما للمجتمعات الإنسانية من محاسن ومساوئ ورقبي وانحطاط والعوامل لكل منها.

وعلى هذا فإن مطالعة تاريخ الماضين تجعل عمر الإنسان طويلا بقدر أعمارهم حقا، لأنها تضع مجموعة تجاربهم خلال أعمارهم تحت تصرفه واختياره.

ولهذا يقول الإمام علي رضي الله تعالى عنه في حديثه التاريخي خلال وصاياه لولده الحسن المجتبي في هذا الصدد: أي بني إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمالهم ، وفكرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى عدت كأحدكم ، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت من أولهم إلى آخرهم .

والتاريخ الذي نتحدث عنه طبعاً هو التاريخ الخالي من الخرافات والأكاذيب والتحريفات والممسوخات، ولكن - وللأسف - مثل هذا النوع من التاريخ قليل جدا.

ولا ينبغي أن نبعد عن النظر ما للقرآن من اثر في بيان نماذج من التاريخ الأصيل، التاريخ الذي ينبغي أن يكون كالمرآة الصافية لا المقعرة، التاريخ الذي لا يتحدث عن الوقائع فحسب ، بل يصل إلى الجذور ويستشف النتائج .

فمع هذه الحال لم لا يستند القرآن — الذي هو كتاب تربوي عال في فصوله — على التاريخ ويأتي بالشواهد والأمثال من قصص الماضين ؟.

٢ - ثم بعد هذا فان للتاريخ والقصة جاذبية خاصة ، والإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة في جميع ادوار حياته من سن الطفولة حتى الشيخوخة .

ولذلك فان التاريخ والقصة يشكلان القسم الأكبر من آداب العالم وآثار الكتاب، وأحسن الآثار التي خلفها الشعراء والكتاب الكبار سواء كانوا من بلاد العرب أو من فارس أو من بلاد أخرى هي قصصهم، لا بل أن الخاطر ليذهب بي اللحظة إلى الإحساس بالإحياء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين ؛ مهما بدا أن الخروج كان إكراها تحت التهديد ! كما أخرج يوسف من حضن أبيه ، وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف والترويع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه ، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز. ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم ، وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم ! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقي بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها . . هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف - عليه السلام - وخرج منها كلها متجردا خالصا ، وآخر اهتماماته ، في لحظة الانتصار على المحن جميعا ؛ وفي لحظة لقاء أبويه ولم شمله ؛ وفي لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها . . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيًا خالصا متجردا في وقفته الأخيرة ، متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين:

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُفِصِلُ بَرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز .. حتى وهو ما يزال فتى يباع بين الرقيق ..

وما يذهب بي خاطر إليه اللحظة يجعلني أذوق مذاقا خاصا — أشير إليه ولا أملك التعبير عنه — ذلك التعقيب الذي أعقب القصة يوسف/١٠٩ — ١١١ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۚ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ١٠٩ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ١١٠ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١١١ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١٢ ﴿

إنه الإحياء بمجرى سنة الله عندما يستيسس الرسل — كما استيسس يوسف في محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب ... الإحياء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة، وهي في مثل هذه الفترة تعيش، وفي جوها تتنفس، فتذوق وتستشرف وتلمح الإحياء والتلميح... من بعيد . .

الدروس المستفادة من القصة كاملة دون الدخول في تفاصيل الأحداث أو ترتيبها

١ — طبيعة المجتمع

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللوحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التي وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها، فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية ، وتسجل طابع العصر كله .

فواضح تماما انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبؤات التي لا تقتصر على أرض واحدة، ولا على قوم بأعيانهم . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة في رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية، وفي رؤيا الفتيين صاحبي السجن، وفي رؤيا الملك في النهاية، وكلها تتلقى بالاهتمام سواء ممن يرونها أو ممن يسمعونها مما يشي بطابع العصر كله ! .

لقد كان مجتمع موسى ﷺ يتميز بالسحر والسر فيهم هو سمة الحكم، لذلك حينما جاء موسى السحرة بالبينات أدركوا للحظة أن يا يفعل موسى عليه السلام ليس من عنده وإنما هناك قوى عليا أكبر منه هي التي أحدثت ما رأوا وشاهدوا وعانوا الأمر الذي جعلهم يؤمنون بالله غير عابئين بتهديد فرعون لهم وقالوا قولتهم المشهورة في وجه فرعون بعد تهديده لهم كما حكاه رب العزة عز وجل في سورة طه ٧١:

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۚ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۚ ﴾

أجابوه على الفور :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِن بَرَآءَتِ الَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ۚ ﴾

والجزء الأوفى من عند الله قوله تعالى في نفس السورة تكملة الآيات البينات:

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ ﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۚ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ۚ ﴾

رؤياه عليه السلام

ومما يستلفت الانتباه إلى جملة رأيت جاءت مكررة في الآية للتأكيد والقطعية ، وهي إشارة إلى أن يوسف ﷺ يريد أن يقول : إذا كان كثير من الناس ينسون رؤياهم ويتحدثون عنها بالشك والتردد، فلست كذلك، بل اقطع بانني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين لي دون شك .

واللطيفة الأخرى هي أن ضمير هم الذي يأتي لجمع المذكر السالم العاقل، قد استعمل للكواكب والشمس والقمر، ومثل هذا الاستعمال ساجدين أيضا إشارة إلى أن سجود الكواكب لم يكن من قبيل الصدفة بل كان أمرا مدروسا ومحسوبا كما يسجد الرجال العقلاء.

ولكن يبرز هنا السؤال التالي، وهو: كيف عرف يعقوب أن ابنه يوسف سيعلم تأويل الأحاديث في المستقبل؟ أهو خبر أخبره يعقوب ليوسف مصادفة ولا علاقة له بالرؤيا، أم انه اكتشف ذلك من رؤيا يوسف عليهما السلام؟.

الظاهر أن يعقوب فهم ذلك من رؤيا يوسف، ويمكن أن يكون ذلك عن احد طريقين:
الأول: أن يوسف عليه السلام في حادثة سنه وقد نقل لأبيه — خاصة — بعيدا عن أعين إخوته (لأن أباه أوصاه أن لا يقصها على إخوته) وهذا الأمر يدل على أن يوسف نفسه كان له إحساس خاص برؤياه بحيث لم يقصصها بمحضر الجميع .

ولأن مثل هذا الإحساس في صبي — كيوسف عليه السلام — يدل على أن له استعدادا روحيا لتعبير الرؤيا، وأن أباه قد أحس بهذا الاستعداد ... وبالتربية الصحيحة سيكون له في المستقبل حظ زاهر في هذا المجال .

الثاني: أن ارتباط الأنبياء، بعالم الغيب له عدة طرق، فمرة عن طريق الإلهامات القلبية وتارة عن طريق ملك الوحي وأخرى عن طريق الرؤيا.

وبالرغم من أن يوسف لم يكن نبيا في ذلك الوقت ، لكن رؤيته لهذه الرؤيا ذات المعنى الكبير يدل على أن سيكون له ارتباط بعالم الغيب في المستقبل ، ولابد أن يعرف تعبیر الرؤيا — طبعاً — حتى يكون له مثل هذا الارتباط.

فلقد كان المجتمع أيام يوسف عليه السلام، يتميز بتعبير الرؤيا ، واضح هذا من رؤيا يوسف عليه السلام وإخبار أبيه بها ثم رؤيا الملك وعجز معبري الرؤيا عن تفسيرها ليعبرها لهم يوسف وهو بعيد عنهم وليس في حضرتهم ليدركوا أن هذا التعبير ليس من عنده وإنما هناك قوى عليا أمدته بهذا الأمر عرفناها نحن من قوله تعالى ليوسف عليه السلام في أول السورة:

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْتَبِئُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾.

فلا نستبعد إذن أن يكون موقفهم وفي حضرة الملك نفس الموقف الذي كان عليه السحرة ولقد وضح هذا في الخزي الذي لحق بهم كما حكاها رب العزة عز وجل:

﴿ يَتَأَيَّهَا أَلَمَلَأْ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَلَمِينَ ﴿١٤﴾

فإذا كان تعبيره للرؤيا مقبولا فمن أين له بعلم الغيب حيث يضيف شيئا لم يكن في رؤيا الملك وهو الجزء الخاص بعلم الرخاء والذي يعقب السنين العجاف:

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴾ ﴿١٥﴾

لقد اقتنع به الملك ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ^ط ولم يأت به ليؤذيه بل لقد قال لحاشيته المقربين منه و بعد معرفته لقصته : ﴿٥٧﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾

كان رد فعل يوسف عليه السلام: ﴿٦٠﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ^ج نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾

ولهذا فإني أفهم مع قوله: ﴿٦٠﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾

٣- هنا يرد سؤال قد يمس الواقع وهو: هل يجوز تولي الوزارة عند كافر؟

لأن يوسف عليه السلام طلب الوزارة وتولاها والملك كافر كما ذكر المفسرون، وهذا سؤال كبير، وهو اليوم يتكرر في بعض الدول التي تكون كافرة أو في البرلمانات، ما حكم ذلك؟

أولاً: قال بعض العلماء: لم يكن الملك كافراً، وقالوا: لقد كان فرعون يوسف صالحاً وإنما طغى فرعون موسى، وبعضهم قال: بل كان كافراً، ولعل هذا أولى لقول موسى أو مؤمن آل فرعون في سورة غافر/٣٤: ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ^ط حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ^ج كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٦٥﴾ ..وكذلك دعوته لسجينين تدل على أن

البيئة كانت كافرة. وإذا كان الأمر كذلك فهل نقول هذا شرع من قبلنا وليس شرعاً لنا؟.

أقول: في ذلك نظر، للخلاف في هذا القاعدة بين أهل العلم، ولأن الله عز وجل قد قال هنا آية ٧:

﴿٦٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّالِينَ ﴿٦٧﴾

وقال في آخر السورة آية ١١١:

﴿١١٢﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ^ط مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١٣﴾

ولهذا أجاز بعضهم التولي عند الكافر للمصلحة مطلقاً، وقال جمع من العلماء إنه يجوز أن يتولّى المسلم عند كافر إذا أمكنه فعل الحق بشرط عدم مشاركته في ظلمه.

والخلاصة هناك ثلاثة أقوال:

الأول: لا يجوز التولية عند كافر؛ لأنه إعانة له ومساعدة له .
وآخرون قالوا: يجوز ما كانت في ذلك مصلحة، ولم يذكروا شروطاً.
والقول الأعدل هو قول من قال يجوز بشرط تمكنه من قول الحق وعمل الحق، ولن تكون مثل هذه المشاركة إعانة على الظلم.

والذي يترجح والعلم عند الله ﷻ بعد تأمل ودراسة هذه المسألة، وبخاصة في ظروف المسلمين الحالية كوجود عدد من المسلمين في بقاع الأرض في دول كافرة، فالهند مثلاً عدد المسلمين فيها قرابة مأتي مليون ومع ذلك الدولة كافرة، وفي أمريكا المسلمون بالملايين، وهؤلاء يحتاجون إلى من يرعى شؤونهم ويحقق لهم كثيراً من المصالح التي يصعب تحقيقها إلا بالمشاركة فيها.

فالقول بأنه لا يجوز التولية في هذه البلاد بإطلاق فيه مشقة وتضييق على المسلمين ولعل القول الثالث هو الوسط وهو جواز مشاركة الظالم أو الكافر في الولاية بشروط أهمها:
أولاً: أن يكون اشتراكه في هذه الولاية لا يترتب عليه أو يلزم منه اعتراف وإقرار لظلم أو كفر، ولهذا يقال لمن يريد أن يشترك في ذلك إذا كان اشتراكك في هذه الولاية يقتضي إقراراً منك بالكفر أو اعترافاً بالكفر أو مساعدة على الظلم أو إقراراً له فلا تجوز، وأنت في عافية وسلامة من أن تكون شريكاً أو مقراً للظلم أو الكفر ومعتزلاً به .

ثانياً: أن لا تكون فيه مساعدة ظاهرة على الظلم فضلاً في أن يقع في الكفر، وهذه غير الأولى أي أن ولايته عندما يتولاها لا يمارس فيها الظلم تبعاً لهذا الحاكم الكافر.

ثالثاً: أن تكون مصلحة المشاركة راجحة على المفسدة، لأن الذي سيشترك في ولاية ظالمة أو ولاية كافرة، سيرتكب مفسدة، صغيرة أو كبيرة، لكن هناك مفسدات وهناك مصالح، فإذا كانت المفسدة التي سيرتكبها تتضاءل عند المفسدة الكبرى من عدم المشاركة فنقول له شارك، بمعنى آخر نقول المفسدة الكبرى تدفع بالمفسدة الصغرى، فإذا كنت تعلم أنك سترتكب مفسدة بسبب ولايتك، لكن اعتذارك عن المشاركة سيوقع مفسدة أعظم، فنقول شارك إذا تقرر ذلك واتضح بشرط ألا يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام.

ولعل من الأدلة على ما رجحته أن النبي ﷺ أمر بالمجاهدة مع البر والفاجر، ولاشك أن المجاهدة مع الفاجر فيها مفسدة لكن تتضاءل هذه المفسدة عند المفسدة الكبرى بترك الجهاد، فنقول من أجل إقامة الجهاد في سبيل الله فشارك معه؛ لأن مصلحة المشاركة في الجهاد أعظم بكثير من المفسدة التي يقع فيها الإنسان خاصة إذا اتقى الله ﷻ وبهذا الرأي نصل إلى جواز

المشاركة بهذه الضوابط الشرعية، أما المنع المطلق فلا، أو السماح المطلق فلا، ومع ذلك فالمسألة تحتاج إلى مزيد من البيان ومزيد من التحرير وهي من مسائل الاجتهاد، ولكنها إشارة تناسب المقام.

ويجب ألا ننسى أن دليل النبي ﷺ ليلة الهجرة كان كافراً.

٤- من الدروس التي نستلهمها من السورة أن نحفظ الأسرار، وينبغي أن يطبق هذا الدرس أحياناً حتى أمام الإخوة، فدائماً تقع في حياة الإنسان أسرار لو أذيعت وفشت بات مستقبله أو مستقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة على حفظ هذه الأسرار دليل على سعة الروح وتملك الإرادة، فكثير من ضعاف الشخصية أوقعوا أنفسهم أو مجتمعاتهم في الخطر بسبب إفشاء الأسرار.

قال سبحانه وتعالى في سورة هود ١٣٠ :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٠

في سورة هود قص ربنا سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ قصص الأنبياء، وما عانوه من أقوامهم، وفي هذه السورة قصة سيدنا يوسف يقص عليه هذه القصة ليثبت به فؤاده لأن هذا النبي الكريم لم يعان من قومه بل عانى من أخوته، فإذا كانت المعاناة من الأقوام فالنبي ﷺ له بالأنبياء الصادقين أسوة حسنة، وإن كانت المعاناة من الأقربين فله في سيدنا يوسف أسوة حسنة، ونحن إن جاءتكم المتاعب من الأبعاد فهذا درس يوضع أمامك وإن جاءتكم المتاعب من الأقارب، من الأهل، من الأخوة فلك في هذا النبي الكريم أسوة حسنة.

يقول ﷻ في أول السورة:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ لَحْنُ نَقْصٍ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ﴿٣﴾

٥- دلالة يعقوب على نبوة يوسف:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ١٢٠

أما كلمة رأيتهم لو أنّ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر هي على حقيقتها أحد عشر كوكباً وشمساً وقمرّاً **يجب أن يقول رأيتها** ، هذه جمع من لا يعقل ، أما حينما قال : **رأيتهم** ، يعني حمل الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً على محمل العقلاء ، إذا فهم سيدنا يعقوب من هذه الرؤيا أنّ لهذا الغلام الوسيم مستقبلاً كبيراً وشأناً عظيماً في ميدان الدين ، وميدان القرب من الله عز وجل.

﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُتُوكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ١٠١ ﴾ .

معنى كلمة يجتبيك أي يختارك ويصطفيك ، وبعضهم فهم أنّ النبوة هبة من الله سبحانه وتعالى وهي كذلك ، لكنها من دون كسب، تجد هذا في قوله تعالى في سورة آل عمران ٣٤ :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ٣٤ ﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٥ .

معنى اصطفى يعني اختار من بين خلقه المتفوقين ، اختار من بين خلقه السابقين ، اختار منهم أنبياء ، إذا نظر المعلم في الصف وتفرس وجوه التلاميذ واحداً واحداً فاختر منهم أشدهم أخلاقاً ، أرقاهم أخلاقاً ، وأعمقهم وعياً ، وأشدهم إدراكاً ، وأكثرهم تحصيلاً ، اختاره وجعله عريقاً على زملائه ، هل نقول إنّ هذا الاختيار محض صدفة ؟ لا إنّهُ اصطفاء ، هو اختاره ولكن لماذا اختاره بالذات ؟ لأنّه متفوق : ﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُتُوكَ** ٣٦ ﴾ .

وكذلك يجتبيك، اختارك على علمك، اختارك لصدقك، اختارك لما تتطوي عليه من محبة له، من إخلاص، من طهر، من عفاف..

٦- ماذا عن إخوة يوسف عليه السلام ؟.

رأينا الابتلاء الأول ليوسف عليه السلام والذي تمثل في المؤامرة الأولى في تاريخ بني إسرائيل: قال تعالى في سورة يوسف:

﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِينَ** ٧١ ﴾

وبالرغم من تسميتها باسمه عليه السلام ، فهي تحكي في الواقع قصة أخوة يوسف ، وتروي تفاصيل أول مؤامرة حاكها ونفذها بنوا إسرائيل (يعقوب) بدم بارد ، ضد أبيهم وأخيه يوسف عليهما السلام ، أحبهم إلى قلب أبيه وبوحشية منقطعة النظير ، والمتأمل في قوله تعالى

﴿ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلْسَّالِقِينَ ﴾ يؤكد أن موضوع السورة هو ما قام به أخوة يوسف من أفعال ، تدلّ على عدم إيمانهم بالله وما جاء به أنبياءه ، من علم وموعظة وحكمة ، وأنهم لما كادوا ليوسف عليه السلام ما كادوه ، كانوا قد أغفلوا كلياً وجود الله سبحانه وتعالى ، وأنكروا قدرته على التدخل بمجريات الأمور ، وقلب نتائج ما يُخَطِّطُونَ له رأساً على عقب ، وأنكروا أيضاً نبوة أبيهم يعقوب عليه السلام.

عموماً أخوة يوسف ليسوا بأنبياء:

جاء في تفسير القرطبي رحمه الله للآية التالية:

﴿ قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

ما نصه : " ودل أيضاً على أن يعقوب عليه السلام ، كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه ، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم ، خوف أن تغلّ بذلك صدورهم ، فيعملوا الحيلة في هلاكه ، ومن هذا ، ومن فعلهم بيوسف ، يدل على أنهم كانوا غير أنبياء.

لفظ سبط يُطلق على الأحفاد وليس على الأبناء :

وفي لسان العرب " قيل السبط واحد الأسباط وهو ولد الولد ، وقال ابن سيده : السبط ولد الابن والابنة ، وفي الحديث الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ ورضي عنهما ، ومعناه طائفتان وقطعتان منه ، ومنه حديث الضباب ، إن الله غضب على سبط من بني إسرائيل فمسخهم دواب ، والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب ، وهم الذين يرجعون إلى أب واحد سُمِّي سبطا ، ليفرق بين ولد إسماعيل وولد إسحاق وجمعه أسباط .

قالوا والصحيح أن الأسباط، في ولد إسحاق بن إبراهيم بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهم السلام، وإنما سمي هؤلاء بالأسباط، وهؤلاء بالقبائل ليفصل بين ولد إسماعيل، وولد إسحاق عليهما السلام.

وبالتالي نستطيع القول بأن لفظ الأسباط، أُطلق على أحفاد يعقوب عليه السلام وليس على أبنائه الاثني عشر، بل يتعدى ذلك إلى كل نسل بني إسرائيل حتى يومنا هذا ، وأمّا قوله تعالى في البقرة ١٤٠: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

۵۳

انظر إلى الآيتين (١٠٢-١٠٣) من سورة يوسف: ﴿

إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ

حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾، والتي جاءتا تعقبيا على قصة يوسف عليه السلام وأخوته ،

لتقول أن هذا هو حال نبي الله يوسف مع أخوته ، وحال نبي الله يعقوب مع أبنائه ، الذين لم يكونوا على الأقل مؤمنين بنبوة أبيهم ، إن لم يكونوا أصلا غير مؤمنين بالله ، فما بالك يا محمد في عدم إيمان قومك بنبوتك ودعوتك ، وهم ليسوا بأبنائك ، فلا تكن شديد الحرص على من لا أمل في هدايته بعدما أضلّه الله ، ولكن أدع الناس وفوض أمر هدايتهم لله ، كما فوض يعقوب عليه السلام أمره إلى الله فيما كان من شأن أبنائه .

أما من يستتكر فكرة أنهم غير أنبياء ، والله أعلم بحالهم ، فليرجع إلى القرآن وليقرأ قصة نوح عليه السلام مع ابنه ، وقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وقصة أبو لهب عم رسول الله ﷺ ، **ولاحظ أنه سبحانه نسبهم بالأخوة إلى يوسف عليه السلام ، في قوله :**

﴿

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِينَ ﴿٧﴾ ولم ينسبهم إلى يعقوب عليه

السلام مع أنهم أبنائه. مما تقدّم من أمر أخوة يوسف عليه السلام ، ليس بحاجة لزيادة أو توضيح أو تعليق، فهذا ما جاء به القرآن الكريم، وكان هذا أول فسادهم وإفسادهم في الأرض، الذي كان موجّها ضد أخيه وأبيهم.

ومنذ ذلك اليوم ، احترف بنو إسرائيل فنون التآمر ومارسوه أولا فيما بينهم ، منذ نشأتهم وحتى نهاية مملكتهم الأولى في فلسطين، وبعد السبي البابلي وشتاتهم في شتى بقاع الأرض ، أصبح بعضا من تآمرهم يُحاك ضد الشعوب التي يقيمون فيما بينها، وكان تطلّعهم دائما وأبدا إلى الملك والقوة والغنى والأفضلية ، وكان سيبلهم إلى ذلك جمع المال بطرق غير مشروعة من ربا ونصب واحتيال ، والتقرب من أصحاب السلطة والنفوذ بالإغواء والإغراء ، للتلاعب بهم وتحريكهم من وراء الستار ، لإيقاع الفتن والحروب بين الشعوب ، لضمان السيطرة لتلبية مصالحهم واحتياجاتهم ، ولذلك تجدهم يجتمعون ويُخطّطون في السر والعلن ، ويعملون باستمرار بلا كلل أو ملل ، وتاريخهم قديما وحديثا غني بالأمثلة والشواهد .

٧ — عناية الله عز وجل

قد تصاب بمصيبة فماذا عن معيتك الله سبحانه وتعالى؟.

استمع إلى التوجيه الرباني للنبي ﷺ في الطور ٤٨ :

﴿٤٨﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۚ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ .

إذا كان الله معك فمن عليك :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

قال تعالى في القصص ٧ حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿٥٠﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥١﴾ .

مستحيل، طفل صغير رضيع، يوضع في صندوق ويلقى في اليم، هذه مجازفة ومغامرة، وفي قوله تعالى هذا نجد أمران ونهيان وبشارتان .

وهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام ألقى في النار فقال تعالى في الأنبياء ٦٨ - ٧٠:

﴿٦٨﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿٦٩﴾ قُلْنَا يَبْنَؤُا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبراهيمَ ﴿٧٠﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧١﴾ .

قال المفسرون :

لو أن الله قال برداً لمات من شدة البرد ، ولكنه قال برداً وسلاماً ، الإله هو موجود في كل زمان ، هات إيماناً كهذا الإيمان وخذ رعاية وحفظاً كهذه الرعاية ، وهذا هو سيدنا يونس عليه السلام دخل بطن الحوت ، في ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة البحر الموحش وفي ظلمة الليل، هنا أيقن قدرة عليه بالتوسعة ، قال تعالى في الأنبياء ٨٧ ، ٨٨ :

﴿٨٨﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَجَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾ .

هذه الآية لنا جميعاً، الفقرة الأخيرة قلبت القصة قانوناً قال تعالى:

﴿٩١﴾ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾

﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ خَسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾

ما عرفوا أنّ هذا الطفل الصغير الذي باعوه بثمن بخس سيغدو نبياً عظيماً وحاكماً كبيراً لمصر ، ما عرفوا ذلك ، لذلك فلا يجب على الوالدين أن يقللا من شأن الصغار، فهذا الذي أملك قد يكون مصلحاً اجتماعياً ، قد يكون عالماً كبيراً قد يكون وقد يكون، وقد يكون ، قال تعالى في سورة يوسف/ ٢١:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۚ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١﴾

هذا الذي اشتراه للآن لا ندري من هو هذه هي العقدة، لا نعلم من هو، قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾

أكرمي شيء وأكرمي مثواه شيء آخر ، المثوى مكان الثوي وهو الإقامة ، إذا كان مكان الثوي مكرماً فكيف بصاحب المقام ، هذه مبالغة في الإكرام ، لم يقل أكرمي بل أكرمي مثواه قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ ﴿٢١﴾

طبعاً هذا الإكرام مشوب بالمنفعة ، وقد يكرم الإنسان أحياناً ليس ابتغاء الإكرام بذاته ولكن ابتغاء منفعة ما ، هذا الإكرام مشوب لا قيمة له ، لا تغتر بمن يكرمك لمنزلة أو سلطان فإنها أوشك أمور الدنيا زوالاً ، ابحث عن من يكرمك لذاتك لا لما عندك.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ

نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ ﴿٢١﴾

٩- التمكين الأول:

انتهت أول مرحلة من القصة قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

انتقل من البئر إلى القصر ، ومن جفوة الأخوة إلى إكرام السيد .

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾

بمعنى إذا كان الله معك فمن عليك ، فإنك بأعيننا ، إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد ، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام في الأنبياء ٧٠:

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

وها هو يوسف عليه السلام، أراد إخوته أن يقتلوه ما استطاعوا ، أرادوا أن يجعلوه في غيابة الجب فجعله الله في قصر العزيز ، نجاه منهم ومن كيدهم ومكن له في الأرض ، وهذا هو بعض من مغزى القصة ، قال تعالى :

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

١٠ - الابتلاء الثاني المرادة: يقول تعالى في يوسف ٢٣:

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ولأهمية هذا الأمر أجد أنه من المناسب أن أفرد له فصلاً مستقلاً نظراً لكثرة القيل والقال في حق امرأة العزيز ومعها يوسف عليه السلام وكان السورة توقفت أحداثها عند مرادة امرأة العزيز، وبالغ القراء في قراءاتهم وبالغ معهم المفسرون في تأويلاتهم، وكان أحداث القصة كلها وعقدتها لا تدور إلا حول هذا المعنى.

فمع امرأة العزيز نعيش في الصفحات القادمة.

الفصل الثالث

امراة العزيز أعظم تائبة في التاريخ

أولاً: المعصية

تمثلت معصية امراة العزيز في مراودتها ليوسف عليه السلام عن نفسه، ولم تتعد أكثر من المراودة بمعنى أن جريمة الزنا لم تتم وإن ما حدث هو المراودة، فما معنى المراودة؟.

يقول الإمام الشعراوي في خواطره :

المراودة: هي مطالبة برفق ولين في خداع يستر ما تريده ممن تريده، أي طالبتة بلين ورفق في أسلوب يخدع ليتحرر مما هو فيه إلي ما تطلبه.

غلقت: الحدث يبالغ فيه إما لقوة الحدث أو لتكرار الحدث.

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ : أنت لا تستغيث إلا إذا خارت قواك.

ويقول الطبري في تفسيره:

يقول تعالى ذكره: وراودت امراة العزيز— وهي التي كان يوسف في بيتها — عن نفسه أن يواقعها ،وعن السدي ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ قال أحبته.

وقوله: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ يقول: وغلقت المرأة أبواب البيوت ، عليها وعلى

يوسف لما أرادت منه وراودته عليه ، بابا بعد باب.

وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يقول جل ثناؤه: قال يوسف إذ دعت المرأة إلي نفسها وقالت

له هلم إلي: اعتصم بالله من الذي تدعوني إليه وأستجير به منه .

وقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي .

وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يقول: أحسن منزلتي وأكرمني وائتممني ، فلا أخونه، عن

ابن إسحاق ، قال: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أمني على بيته وأهله .

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول: إنه لا يدرك البقاء ، ولا ينجح من ظلم

ف فعل ما ليس له فعله ، وهذا الذي تدعوني إليه من الفجور ظلم وخيانة لسيدي الذي ائتممني على منزله.

القرطبي :

أصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين.

﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾: غلق للكثير ولا يقال غلق الباب • يقال إنها سبعة أبواب غلقتها

ثم دعتة إلي نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: هلم وأقبل وتعال.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾: أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه.

﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾: يعني زوجها، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحاق

والسدي.

وقال ابن كثير: أخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها

زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعتة إليها وذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعتة إلي

نفسها: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فامتتع من ذلك أشد الامتناع و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير أي أن بعلك ربي

أحسن مثواي أي منزلي وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظالمون﴾.

نخلص مما سبق إلى أن المرادة:

هي عرض الشيء بأسلوب مزخرف ومزين، فيه لين يخدع، ويخرج المطلوب منه، أو المعروض عليه هذا الشيء، عن حالته الطبيعية ليلقى قبولا لدى الطرف الآخر.

وهذه هي أولى مراحل الزنا في هذه الحالة شب يوسف عن الطوق ، وأصبح شابا يافعا في

بلاط امرأة العزيز: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ وكان يوسف جميلا، نظرت المرأة إلي يوسف

في لحظة تملكها فيها الشيطان ، وأخذت تراود نفسها أولا ، ويزين لها الشيطان فعل الفاحشة معه.

يقول الإمام الشعراوي في خواطره :

لكل عملية شعورية يتعرض لها الإنسان في الفعل ثلاثة عوامل، إدراك، فوجدان، فنزوع.

كان الأول امرأة العزيز تنظر إلي يوسف لجماله ولا يوجد إربة أخرى تنتظر إليه فيه لكن

عندما بلغ أشده أصبح الخيال يسرح في أكثر من الإدراك وهو النزوع لأنها وجدت في نفسها

إعجابا به.

وعلى هذا: فإن العلاقة بين امرأة العزيز ويوسف مرت بمراحل غواية منها وصد منه، وسنفصلها بعض الشيء.

مراحل الغواية والصد

المرحلة الأولى: المراودة الخفية:

يوسف شاب في بيت امرأة العزيز، وهى التي أكرمت مثواه من قبل ، ولها الفضل عليه من تربيته له، وجعلته في بيتها، وتعامله معاملة غير معاملة العبيد في القصر ، وله ميزة عن غيره ، وتتنازعها العاطفة تجاهه ، فإن أمرته بشيء فيجب أن يطيعها، ولكنها تعرفه ، وتعرف أخلاقه ، وحياءه ، ورجاحة عقله ، وعلمه، فكيف سيكون الوصول إليه، إذاً ، عليها أن تعرض الأمر عليه بمكر المرأة ودهائها ، كإشارات، وتلميحات، وإيحاءات ، لعلها تجد منه استجابة، فلم تجد منه ما يشير إلي أنه استجاب إلي ما ترمى إليه ، إذا فماذا تفعل ؟ أخذت تنازع نفسها ، إنها تريده ، وبأي شكل يجب أن تتاله ، والمرأة لا تحب من يتجاهلها وتحب أن تكون مطلوبة ، والتجاهل يثير ثائرتها ، وتعد العزم وتصر على أن تتال غايتها أيا كانت ، وبأي أسلوب ، أو أية طريقه ، ولا ترضى بالاستسلام.

المرحلة الثانية: الغواية المكشوفة

قامت امرأة العزيز في هذه المرحلة بالعرض، فقد يكون يوسف خائفاً أو متردداً، فقامت بصرف العبيد وسدنتها، ونعرف أنه يقيم في بيتها، وقامت بغلق أبواب القصر إغلاقاً محكماً:

﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ ، وتزينت كزينة المرأة لزوجها، وأبرزت مفاتها له، لعله تنازعه نفسه، وتحرك أحاسيسه عندما يراها في هذه الفتنة، ويميل إليها، خاصة وأنه شاب وليست لديه خبرة الرجال في تمالك الأعصاب في مثل هذه المواقف، ولكن خاب ظنها، فلم ينظر إليها وتجاهلها، بل واستحي منها، فزاد حق امرأة العزيز على يوسف، فما كان منها إلا أن تدخل في المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة: التصريح الواضح لفعل الفاحشة

ماذا تفعل امرأة تملكها الشيطان ، في رجل لم يتحرك لكل ما سبق من أساليب المراودة والغواية ، الباطنة منها ، والمكشوفة ، فكان لابد من التصريح، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ :أي إني قد تزينت وهيأت نفسي وتجهزت من أجلك فأنا لك هنا أسقط في يد يوسف ، واهتز داخلها في نفسه بسبب هذا الطلب الذي لم يكن يتوقعه ، المرأة التي تربي في بيتها وأكرمتها ، وهى التي كانت تلاعبه وتداعبه وهو صغير، وجعلها مثل أمه التي فقدتها صغيراً ، تطلب منه

هذا الطلب الفاحش، ماذا يفعل يوسف ؟ فكان لابد من التذكير ، أي تذكير امرأة العزيز لتعود إلي رشدها.

مراحل التذكير:

المرحلة الأولى: التذكير بالله:

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ : وهى أعلى مراتب التذكير والتذكر ولا تعلوها أي مرتبة أخرى.

أي أن الله لم يأمر بهذا الفعل الفاحش ؛ وهنا نذكر حديث رسول الله في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ﴾ --- (صحيح البخاري).

لم تتعظ امرأة العزيز بهذا التذكير ، فنزل درجة من درجات التذكير.

المرحلة الثانية: التذكير بمن رباه

فأراد أن يذكرها بمن له الفضل عليه وعليها، لأنها زادت في الإلحاح في طلبها، فقال لها:

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾. أي أن الذي تطلبين منى أن أخونه هو من رباني ، وعهد بي إليك ، وأكرمني وأحسن وفادتي وتربيتني ، وهو الذي قال لك:

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ : فكيف تطلبين منى أن أخونه، لكن امرأة العزيز لم تلق بالآل لهذا أيضا؛ وظلت مستمرة في طلبها الشاذ، فنزل منزلة أخرى.

المرحلة الثالثة: التذكير بسوء العاقبة:

﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ : لم يكن أمام يوسف إلا الورقة الأخيرة لديه ، فهي لم تتعظ بتذكيره لها بالله ولجوءه إلى الله ، وأن الله لم يأمر بهذا ، وأنه لا يمكن أن يخون صاحب البيت ، فكان يجب أن يكون التذكير الأخير بشدة وغلظة لصدها ، ويذكرها بآخر ما لديه من أسباب عدم الفعل فقال لها: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ : وهو أن من يفعل هذا الفعل لا يمكن أن يفلح في الدنيا أو في الآخرة ، لأنه سيكون ظالما لنفسه أمام الله ، وللرجل الذي رباه ، ولأن الله دائما بالمرصاد لكل خوان أثيم.

وللتدليل على ذلك سنعطى مثلاً: هب أن أحداً أراد منك فعل إساءة ما إلى إنسان له فضل عليك، وأنت مخلص لله ولهذا الرجل، فماذا كنت ستفعل؟. أظن أنك ستقول له أولاً: اتق الله، أو أنك ستذكره بالله، وإذا أصر وأنت لا تريد الفعل، ستذكره بأفضال هذا الرجل عليك، وإذا زاد إصراره وإلحاحه أظن أنك ستوبخه وستزجره. وهذا هو ما فعله يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز.

مفهوم الهم

ما هو الهم؟ هناك همان: هم حديث نفس... وهم للفعل (حركه).

وهم حديث النفس عدة أنواع:

الأول: هو هم الحزن، مثل الحزن على فقدان حبيب أو مال أو ما شابه ذلك.
الثاني: هم حديث النفس (هم النفس)، وهو انشغال العقل بقضية ما تشغل بالنا وتؤرق حياتنا، ونتدبر فيها كيفية حلها، فقد يأخذ حلها وقتاً، قد يطول هذا الوقت أو قد يقصر، فمثلاً نقول: أن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار ونفكر في كيفية تسديد هذا الدين، أو مشكلة ما في العمل وهكذا.
الثالث: وهو المؤدى إلى الهم الحركي، فلكي يقوم الإنسان بعمل شيء ما فإنه يمر بعدة مراحل للقيام بهذا العمل:

(١) فكرة تمر بعقل الإنسان حديث نفس.

(٢) تدبر هذه الفكرة حديث نفس.

(٣) عقد العزم على تنفيذ هذه الفكرة حديث نفس.

(٤) الاستعداد للقيام بالتنفيذ حديث نفس.

(٥) القيام بالتنفيذ فعل (حركه).

ولكن تأتي مرحلة دقيقة تلي الاستعداد للقيام بالفعل، والقيام بالتنفيذ للفعل، وهذه هي مرحلة الهم.

إذاً فإن الهم الحركي للفعل: هو مرحلة تلي الاستعداد للعمل والعمل نفسه، وهذا كان هم امرأة العزيز.

الرابع: وهناك هم أخير، يسمى هم رد الفعل:

وهذا الهم سنعطى له مثلاً والله المثل الأعلى: هب أن رجلاً قام بمحاولة الاعتداء عليك، وهم بضربك، فماذا كنت ستفعل؟ هل ستتركه؟ أم ستهم أنت أيضاً بالدفاع عن نفسك، إذاً هناك همان حركيان:

الأول: هم فعل.... والثاني: هم رد فعل.

فبعد هذا التعريف لأنواع الهم، إذاً فعلياً أن نسوق الأدلة على براءة يوسف عليه السلام من هم عمل الفاحشة.

أدلة براءة يوسف عليه السلام

نسوق خمسة عشر دليلاً على براءة يوسف عليه السلام

الدليل الأول:

لو أن يوسف عليه السلام قد مال إلي امرأة العزيز، وحدثته نفسه بفعل الفاحشة، فلماذا أعرض منذ البداية عندما راودته ؟ ، ولماذا لم يحدث والطريق مهده له بغلق الأبواب ؟ ، وامرأة العزيز في كامل زينتها، ولم يكن معها أحد، وزيادة على ذلك أنها هي التي دعتة إليها.

الدليل الثاني:

لماذا ذكرها يوسف بالله، ثم بالرجل الذي ربه، ثم بسوء العاقبة بعد ذلك، أم أنه كان اعتراضاً واهياً؟.

الدليل الثالث:

لماذا كان همها هي سابقاً لهمه للفعل ؛ إن كان قد مال إليها وخارت قواه أمام إغراءاتها ؟. فالأولى إن كان ضعف أمامها أن يكون هو المبتدئ بالهم ، وتكون الآية (وهم بها وهمت به) لأن المرأة لها صفة الإغراء والدعوة ، وتترك للرجل أن يبدأ هو بباقي الأمور من بداية الهم حتى النهاية، ولكن منطوق الآية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا^ط﴾ أي كان همها سابقاً لهمه.

ونعود لسؤالنا: لماذا كان همها هي سابقاً لهمه ؟، هناك سببان لهما:

السبب الأول:

أنها قد وجدت فيه ضعفاً فأرادت أن تشجعه وتخرجه من حالة الضعف هذه.

السبب الثاني:

أنها قد وجدت فيه إغراضاً قويا فأرادت أن تجبره على الفعل بالقوة. فإلي أي السببين نميل؟.

وهذه هي إحدى الدلائل القوية على براءة يوسف من الهم بها لعمل الفاحشة، وأن يوسف أصلاً لم يمل إلي امرأة العزيز ولم تحدثه نفسه بعمل الفاحشة.

وعلياً أن نذكر هنا أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا^ط﴾:

والمدقق في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا^ط﴾ يلاحظ أنه جل علاه لم يقل

﴿هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا^ط﴾، فلماذا قال سبحانه وتعالى (وَلَقَدْ) ؟ ، لأنه تأتي هنا كلمة

(وَلَقَدْ) لتعطى إحساسا بقوة الهم منها ولتأكيد، أما قوله ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فقط، تعطى انطبعا برعونة الهم بينهما وأنه من المحتمل أن يكون ^{عليه} قد مال إليها بالفعل.

الدليل الرابع:

تربية يوسف في بيت امرأة العزيز منذ صغره عندما عهد به العزيز إلي زوجته فكان عمره لم يتعدى أصابع اليد الواحدة، وتربى يوسف في بيت المرأة ، وكبر يوسف وهو يجعلها مثل أمه، فهل إذا تربى أحد في بيت ما منذ صغره؟ فهل عندما يكبر سيميل شهوانيا إلي من ربه مهما كانت المغريات ؟، اللهم إلا إذا كانت تربيته كانت سيئة ، وهذا البيت سيء، فقد يكون بيت العزيز سيئا ، فهل كانت تربية يوسف عليه السلام سيئة ؟، إن يوسف عليه السلام قد تربى على أعين الله سبحانه وتعالى يؤيد هذا قوله تعالى في يوسف ٢١:

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ، وقوله تعالى في يوسف ٢٢:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

الدليل الخامس:

اعتصامه بالله وتذكيره لامرأة العزيز بأن ربه لا يرضى بهذا الفعل ولم يأمر به:

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ .

ثم تذكيره لها بزوجه الذي له الفضل عليه وعليها ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ .

ثم وصل به الأمر إلي أن يهددها بعاقبة الأمور ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

كل هذا في وقت واحد، وموقف واحد، ولا يوجد فترة زمنية للتروي ومرادة النفس للفعل، ثم ينقلب الموقف فجأة وبدون مقدمات ليهم بها لعمل الفاحشة، كيف هذا ؟ مع أن كل الذي قاله يوسف من أذار شديدة، مقدمات لعدم الفعل.

الدليل السادس:

حديث النفس للفعل يأخذ وقتا ومرادة مع النفس حتى يقتنع الإنسان بعمل الشيء، والموقف مع امرأة العزيز لم يأخذ وقتا حتى لمرادة النفس.

الدليل السابع:

اختلاف العلماء والمفسرين في البرهان الذي أعطاه الله ليوسف ولم يدل حديث شريف على هذا البرهان، ولكنه اجتهاد علماء ومفسرين ليس له دليل قاطع.

والبرهان كما يقول الإمام الشعراوي في خواطره : هو الحجة على الحكم .
أو هو الإثبات بدليل ، والدليل إما أن يكون بالقرآن واضحا ، أو من سنة رسول الله ﷺ ، أو بالاستنباط من القرآن أو السنة النبوية الشريفة أو منهما معا ، ونحن هنا نتكلم عن نبي له عصمته من الله سبحانه وتعالى فيجب أن يكون كلامنا مدعم بكل ما سبق.

فيقول رب العزة: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ يوسف ٢٤.

﴿كَذَلِكَ﴾ : أي من أجل أن يوسف صبر على فتنة امرأة العزيز ولم يميل إليها وساق إليها الحجج لكي لا يفعل الفاحشة معها واعتصم بالله، فإننا سنصرف عنه سوء يصيبه من وراءها، وسنعود لهذه النقطة فيما بعد.

﴿لِنَصْرِفَ﴾ : لنبعد.

﴿السُّوءَ﴾ : هو وصم الإنسان بعمل شائن، أو بصفة تشينه، مثل انه (سارق — زان — كاذب — مرتش...الخ)، أو أن نقول عنه أنه حاول أن يفعل كذا ، مما يصيبه هذا السوء، كأن نقول مثلا أن هذا الشخص سرق أو حاول السرقة فإننا بهذا نكون قد أسأنا إليه، وذلك لينال عقوبة ما ، إما في سمعته وهذه إساءة نفسية ، أو في بدنه .

﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ : هي فعلة الزنا حيث يقول رب العزة :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٣٢.

الدليل الثامن:

علينا هنا أن نقرأ الآية جيدا ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وعليه فإننا يجب أن نسأل أنفسنا: لماذا أنزل الله الآية بهذا المنطوق وبهذا الترتيب؟، أي قدم صرف السوء على الفحشاء ، وفي هذا ملمح مهم:

إن كان يوسف قد مال إلي امرأة العزيز، وحدثته نفسه بفعل الفاحشة، ثم رأى برهان ربه الذي منعه عن الفعل، فإن الله في هذه الحالة قد صرف عنه فعل الفاحشة.

ويكون منطوق الآية: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ﴾ فقط .

وأما إذا كان الله يريد أن يصرف عنه الفحشاء كي لا يصيبه سوء بعد ذلك، فإن منطوق الآية يكون: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ أَلْفَحْشَاءَ وَالسُّوءَ﴾ ، لأن الفحشاء هنا مقدمة في محاولة الفعل على السوء الذي كان سيصيبه بعد ذلك .

ولأن الله هو المتكلم فإن كل أية ، وكل كلمة ، بل وكل حرف في القرآن الكريم موضوع بحساب وميزان دقيق ، لكي يؤدي المعنى والغرض الذي يريده الله منه ويهدف إليه. إذا فعلينا أن نعمل عقولنا:

ولنقرأ الآية كما أنزلها الله سبحانه وتعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ أَلْسُوَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ .

ونعود لسؤالنا لماذا قدم الله السوء على الفحشاء؟

والإجابة في الآية التالية والله تعالى أعلم، إذ يقول رب العزة في يوسف ٢٥:

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فإن كان يوسف قد مال إليها، وحاول فعل الفاحشة، فإنه قد أراد بأهل العزيز سوءا بالفعل، ومحاولة خيانة العزيز في أهله، مهما كانت هي أغوته أو لم تغوه.

ولأنه لم تحدثه نفسه بهذا، فإن الله قد صرف عنه هذا السوء بإظهار براءته في الآية ٢٨ من سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ

عَظِيمٌ﴾

ويأتي تأكيد براءته في الآية التالية على لسان العزيز نفسه، يوسف ٢٩:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

وعلى هذا فإن السوء الذي سيصيب يوسف يأتي من فرية تقتربها عليه امرأة العزيز في جريمة لم يرتكبها ولم يفكر فيها .

هذا عن السوء، ولكن ماذا عن الفحشاء ؟.

الفحشاء يأتي ذكرها في الآية ٣٣ من نفس السورة: ﴿قَالَ رَبِّ االسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا

يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾

وذلك بعد أن تكالبت عليه النسوة، وهددته امرأة العزيز بالعقاب إن لم يفعل معها الفاحشة:

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ

لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ يوسف ٣٢.

ويأتي صرف الفحشاء في الآية ٣٤ حيث قال رب العزة :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ يوسف ٣٤.

وسيأتي توضيح ذلك في حينه.

الدليل التاسع: شهادة إبليس نفسه ليوسف عليه السلام :

يقول رب العزة في الآية التي نحن بصددھا يوسف ٢٤: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ، والمخلصين كما قال

العلماء إما بفتح اللام ، وهم من استخلصهم الله لنفسه أو بكسر اللام ، وهم الذين اخلصوا دينهم لله .

فهل عبد مخلص لله، أو استخلصه الله لنفسه، يقع بالتفكير في معصية أو فاحشة ويقع في براثن الشيطان، مع أن الله يقول في كتابه الكريم على لسان الشيطان في سورة ص ٨٢، ٨٣:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

فاستثنى لعنة الله عليه عباد الله المخلصين من مجرد الغواية فيقول القرطبي : فمعنى:

﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ لاستدعينهم إلى المعاصي.

ويقول الإمام الشعراوي : وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائما بالغواية ، فالشيطان

نفسه يقر أن من يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز هو كشيطان عن غوايته ولا يجزئ

على الاقتراب منه. والغواية هي وقوع المعصية في النفس وإن لم يفعل .

ويوسف عليه السلام نبي أخلص الدين لله، واستخلصه الله لنفسه، فكيف يقع في براثن الشيطان

ويميل إلى امرأة العزيز ويهم بعمل الفاحشة معها.

الدليل العاشر: عصمة الأنبياء:

إن الله قد عصم الأنبياء جميعا من مجرد الوقوع في الخطيئة ، أو الاقتراب منها ، أو التفكير

فيها ، ولكن جل تفكيرهم في عظمة الله سبحانه وتعالى ، واخذ الأشياء بحلالها وليس بحرامها

مهما كانت المغريات ، لأن الله جعلهم قدوة وأسوة للبشر في أفعالهم ليقف بهم الناس ، فإن

كان يوسف عليه السلام قد حدثته نفسه بفعل الفاحشة ، فإن هذا يكون دليلا لكل إنسان ضعيف الإيمان تحدثه نفسه بالفاحشة ويذعن لها ثم يجعل لنفسه حجة بأن الله لم يريه دليلا أو برهانا للكف أو الابتعاد عنها كما أرى يوسف برهان ربه فارتدع وابتعد .

وبعد كل ما ظهر من الأدلة السابقة واللاحقة في أن يوسف عليه السلام لم يهم بعمل الفاحشة مع امرأة العزيز ولم يفكر فيها. إذا فعلينا أن نعرف ما الذي حدث أو على الأقل نتصوره، وقبل هذا علينا أن نحلل البرهان بعد أن عرفنا معناه.

قلنا من قبل أن البرهان هو كما قال الإمام الشعراوي ، هو الحجة على الحكم ، أو هو إثبات الشيء بدليل، أي أن البرهان هو دليل إثبات لقضية أو لحكم. فإما أن يأتي ماديا ليثبت هذه القضية.

أو أن يأتي عقليا : كأن تتشغل بقضية ما تهكم ولا تجد لها حلا ، فتهم بعمل ما قد يكون فيه ضرر لك ، ولكن تأتي إليك فكرة أخرى للخروج من هذا المأزق أو هذه القضية ، فنقول لقد كدت أن أفعل كذا ، لولا أن الله ألهمني لأبتعد عن هذا الفعل وأفعل غيره .

ونقول كما قال العلماء والمفسرين، لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، ولكن هم بماذا ؟. فإن الهم هنا ، هو القضية التي تباحث فيها العلماء ، وأدت إلي الفهم بأن هم يوسف هو لفعل الفاحشة .

ولنتصور ما حدث علي ضوء الأدلة:

اشتد إلحاح امرأة العزيز على يوسف عليه السلام وزاد سخطها وغضبها ، فماذا تفعل مع هذا الرجل الواقف أمامها ، وتطلب منه فعل لو طلبته من الملوك لأجابوها إليه ، ولكن أمامها نوع آخر من الرجال لم يرفض طلبها وحسب ، ولكنه يناطحها بالحجج التي تمنعه من الفعل.

فما كان عليها إلا أن تجبره على الفعل ولو بالقوة ، فهمت بالانقضاءض عليه لتمسكه من قميصه من قُبَلٍ (أي من الإمام) لتشدّه إليها أو لتجذبه نحوها ، (وعندما نقول همت معناه أنها لم تصل إليه بعد ولم تمسكه) ، فما كان من يوسف إلا أن هم ليردها عنه ، ويدافع عن نفسه ، وكاد أن يلمسها من قميصها ، عندما وجد في وجهها هذا الهم ولكن جاءه إلهام رباني (البرهان):

أن يا يوسف لا تمدن يدك عليها لتدفعها عنك ، ولا تلمسها ، ولكن أدر لها ظهرك بسرعة ، واهرب من أمامها ، واتجه إلي الباب ، فإننا منجوك من سوء يلحقك إن لمستها ، ودليل ذلك القميص وسيأتي شرحه وتوضيحه في الآية التالية، يوسف ٢٥:

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾

بسرعة أدار يوسف ظهره لامرأة العزيز وولى هاربا إلى الباب ليفتحه ، فوجدت امرأة العزيز نفسها في موقف لا تحسد عليه ، إن خرج يوسف من هذا المكان سيفتضح أمرها ، ولن يفعل ما تأمره به وهي في هذه الحالة من السعار ، ولن يكون لها القدرة بعد ذلك في التعامل معه . إذا ماذا تفعل؟ عليها أن تمنعه من الهرب، وعليه أن يفعل ما تأمره به، لكي لا يستطيع بعده إفشاء سرها.

بسرعة جرت وراء يوسف ل تمنعه من الخروج ، وتمنعه من الباب ، فأمسكت بقميصه من الخلف لتجذبه إلي وراء ، ولكن يوسف شاب وقوى ، فمع اندفاع يوسف وجذبه للقميص من الخلف ، انحنى ظهر يوسف للأمام ليعطى نفسه قوة في الاندفاع للهرب ومعالجة الباب لفتحته ، انقطع القميص من الخلف وتمكن يوسف من فتح الباب . وكانت المفاجأة ، فإذا بزوجه أمام الباب .

أدركت امرأة العزيز أنها في ورطة وإن لم تخرج منها بسرعة فسوف يدرك زوجها ما حدث . رجل يفتح الباب، وهذا الرجل ليس ككل رجال القصر، إنه يوسف الذي رباه ويعرف أخلاقه . وامراته وراءه وليست أمامه، والمنظر العام ليس حسنا . إذا فعلها أن تخرج بسرعة من هذه الورطة، فكان لابد من استحضار مكر المرأة وخداعها، واستثماره في هذه اللحظة لتبعد عنها الشكوك فقالت، يوسف ٢٥:

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ألقت على يوسف تهمة هو بريء منها فألحقت به سوءا، باتهامه بمحاولة فعل الفاحشة معها . وأرادت به سوءا بأن يسجن أو يعذب . وهذه قدرة عجيبة في الخروج من المأزق الذي صنعه هي، ثم تلحق التهمة بالبريء، ثم تحدد العقوبة، بل وتقرضها على زوجها لكي لا يتحقق مما حدث، ولتجعله يصدقها.

الشاهد

يوسف ٢٦ ﴿ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ وجد يوسف نفسه قد تورط في قضية لم

يكن هو السبب فيها، فلم يفعلها، أو يسعى إليها، أو يفكر فيها أصلا . ذهل يوسف من القدرة الغريبة في لي الحقيقة، وهذا ما نقابله ونعيشه في هذه الأيام من لي في الحقائق ، فأصبح البريء متهما ، والمجرم بريئا، وأكل الحقوق افتخارا، وضاعت الحقوق بين الناس ، وامتألت المحاكم بالقضايا ومحامون درسوا القانون ليتلاعبوا به وبألفاظه ، وليس

للدفاع عن المظلوم وإعطاء الحق لأصحابه ، وهم يعلمون الحقيقة من موكلهم ، فماذا يا ترى سيفعل الله بهم يوم القيامة ، أفيقي يا أمة الإسلام .
فلم يكن أمام يوسف من دفاع عن نفسه إلا جملة واحدة:

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ .

إننا نجد هنا أن يوسف قد بدأ كلامه بكلمة ﴿ هِيَ ﴾ :أي بضمير الغائب كأنها غير موجودة ولم يزد أو يسترسل في حديث طويل لا طائل من ورائه ، وفيه أدب ، ووجه كلامه إلي من اتهم عنده ، ومن يهمة الأمر ، ولم يلتفت إلي المرأة ، لأنها ابتدأت الحديث بالكذب ، فلم يوبخها ، أو يؤنبها ، أو يكذبها ، ولم يقسم بأنه لم يفعل هذا الأمر ولكنه أوجز في الحديث ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ .

صمت العزيز ولم يتكلم، إنه في موقف صعب، هناك تعارض في القول، فكلا الطرفين عزيز عنده.
المرأة: زوجته.

ويوسف هو من رباه ويعرف أخلاقه .
وكلاهما قريب من نفسه، فماذا يفعل ؟.
إن صدق زوجته في اتهامها ليوسف، وأصدر حكمه كما أمرت زوجته، ثم تظهر براءة يوسف بعد ذلك فقد يندم على حكمه الظالم، ولكن الموقف الذي رآه فيه شك من كلام زوجته.
وإن صدق يوسف في دفاعه عن نفسه، قد تكون زوجته صادقة في اتهامها.

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ : فكان لابد من عرض الأمر على شخص قريب منه ،
على درجة عالية من الحكمة والعقل ، ويزن الأمور بميزان الحق والعدل ويضمن إلي حكمه .
ليس هذا فحسب ولكن يجب أن يكون قريبا لزوجته أيضا، أي من أهلها، لأنه سيكتفم فضيحتها إن كانت هي المخطئة، وإن كان يوسف هو المخطئ فسوف يحكم عليه وينتهي الأمر.
تم عرض الأمر على الشاهد أو من سيعطى حكمه في هذه القضية.
فماذا قال الرجل:

﴿ إِن كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

أي أن القميص الذي يرتديه إن كان قطع من الأمام ، فإنها تكون صادقة في كلامها ، لأنه في هذه الحالة تكون المواجهة ، ويكون هو مقبلا عليها ومحاولا الاعتداء عليها ، وتكون هي مدافعة عن نفسها ، فتدفعه عنها ، فيقطع القميص من الإمام ، ويكون هو كاذبا في هذه الحالة.

الدليل الحادي عشر:

صرف السوء

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ يوسف ٢٦

أي وإن كان القميص قطع من الخلف ، فإنها تكون كاذبة في ادعائها ، وكان هو صادقا في كلامه ، وبرهان ذلك أن ظهره كان لها وهي وراءه.

فما الذي دفعها لتقطع قميصه من الخلف.

اللهم إلا إذا كانت هي الطالبة له ، وهو في حالة فرار منها ، مما أدى إلى قطع القميص من الخلف من شدة اندفاعه وفراره منها .

أليس هذه دليل دامغ وبرهان ما بعده برهان، على أن برهان ربه هو إحياء من الله إلى يوسف، بعدم الدفاع عن نفسه، وألا يلمس المرأة، ولكن عليه أن يعطى لها ظهره بسرعة ليهرب من أمامها.

لأنه في هذه الحالة كان ستحدث مواجهة بين الاثنين (يوسف و امرأة العزيز) ، فكانت ستمسك به من الأمام وسيحاول هو الإفلات منها مما كان سيؤدي إلي قطع القميص من الأمام.

وعلينا أن نتصور ما كان سيحدث إن كان يوسف قد مال إليها وهم بالمعصية:

فهل كانت ستتركه بعد هذا الهم، وأصبح في متناول يديها ؟.

أم أنها كانت ستقبض عليه بسرعة قبل أن يذهب من أمامها، وتمسك بقميصه من أمام ويكون هناك مشادة بينهما وتكون مواجهة، وكان سيقطع القميص من قبل.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى ، أن يضع برهان البراءة في آية منفصلة ، ولم توصل بالآية السابقة ، لنتدبر آياته سبحانه ، ولا نمر عليها مر الكرام.

ومن هنا فإن الله يعلمنا كيفية استنباط الأحكام بالأدلة المادية والعقلية. يوسف ٢٨:

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

وجد العزيز نفسه أمام موقف يجب أن ينسى ، ولا يذكر مرة أخرى ، وإلا سينتشر الأمر ، وستكون فتنة ، وتلوك الألسن سيرة زوجته ، وسيرته وقد يفقد منصبه جراء ذلك ، فأراد أن تموت هذه الفتنة في مهدها ، وليحمى سمعته من القيل والقال ، بحيث تكون الأمور طبيعية وهذا من طبيعة عليّة القوم دائما.

من هنا اتخذ العزيز موقفه لكي لا يفتضح بيته ، فقال ليوسف بصيغة الأمر يوسف ٢٩:

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ، أي عليك يا يوسف أن تتسى هذا الأمر نهائيا ولا تحدث به أحد.

ثم وجه حديثه لامرأته موبخا إياها:

﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْكَ إِنَّا كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

أي اطلبي الصفح والعفو والغفران لأنك أذنبت ذنبا شديدا .
لأنه ما كان لك وأنت امرأة العزيز أن تقعي في مثل ما تقع فيه سائر النساء .

الدليل الثاني عشر: قول الإمام الشعراوي تعقيبا على الآية السابقة:

وبهذا القول من الزوج أنهى الحق سبحانه هذا الموقف عند هذا الحد ، الذي جعل عزيز مصر يقر أن امرأته قد أخطأت ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتمه.

مكر النسوة

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۗ﴾

إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ يوسف ٣٠.

انتشر الخبر في المدينة بالكيفية التي أخبر بها العلماء، وبدأت النسوة تتكلم وتلوك سيرة امرأة العزيز ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ .

وكلمة ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ هي إكبارا لها وتصغيرا لفعالها.

إكبارا لها لكونها امرأة العزيز، وتصغيرا، لأنها وهى في هذه المكانة العالية ، وتطلب فعل الفاحشة مع أحد الخدم في القصر .

ولأن فعلها هذا يضعهن في موضع الحرج أمام خدمنهن وعلى هذا قلن.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۗ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ : أي أنها لا يمكن أن تفعل هذا

الفعل، إلا إذا كان حبه قد تمكن منها، ووصل هذا الحب إلي شغاف قلبها، وحبها هذا قد أوصلها إلي الضلال، ولم تعد تدرى ما تفعل.

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي في خواطره :وما قلنه هو الحق ، لكنهن لم يقلن ذلك تعصبا للحق أو تعصبا للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنكاية بامرأة العزيز ، وفضحا للضلال الذي أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردن أيضا شيئا آخر، أن ينزلن امرأة العزيز من كبريائها، وينشرن فضيحتها فأتين بنقيضين، لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج.

وقالت النسوة: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾.

وقسم فضيلته الحب إلي منازل :

(الهوى — التعلق — الكلف — العشق — التدله — الهيام — الجوى) وقد شرحها فضيلته بإسهاب في خواطره .

﴿ فَأَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ

مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَأَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ

مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف ٣١.

وصل إلي امرأة العزيز ما تناقلته نسوة كبار القوم ، وعلمت أنهن يمكرون بها ويسبون إليها في أحاديثهن.

يقول الإمام الشعراوي :

المكر هو ستر شيء خلف شيء، كأن الحق ينبها على أن قولتها ليس غصبة للحق ولا كرها للضلال الذي قامت به امرأة العزيز ولكنهن أردن شيئا آخر، وهو أن ينزلن امرأة العزيز عن كبريائها وينشرن فضيحتها.

وعلى هذا بدأت امرأة العزيز تفكر في مكر أقوى وأشد، لتظهر ما في أنفسهن وفي نفس الوقت يكون ردا عليهن ودفاعا عن نفسها.

أرسلت إليهن ، وأعدت لكل واحدة منهن مجلسا مجهزا بالمفارش ومخاد ومساند ليستتدن إليها ويكن في حالة استرخاء تام .

الدليل الثالث عشر قول الشعراوي:

وهذا دليل براءة آخر على لسان إمام الدعاة لنبي الله يوسف عليه السلام حيث يقول رضي الله تعالى عنه:

وكان الاعتراف: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وكلمة ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ هي للتنزيه، هي تنزيه الله سبحانه عن العجز عن خلق هذا الجمال

المثالي ، أو أنهن قد نزهن صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز.

الدليل الرابع عشر: اعتراف امرأة العزيز:

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ

لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يوسف ٣٢.

وجدت امرأة العزيز ما حدث للنسوة فقالت لهن معاتبة، وشامنة في النسوة، ومعتزفة، ومصرة على الفعل، في آن واحد.

أي هذا هو من قُلْتَن فِيهِ ﴿٣٠﴾ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا

إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ يوسف ٣٠ ، ولقد وصلني ما قُلْتَن فِي ، عني وعنه فأردت

أن أريكن إياه ، فإنكن ومن نظرة واحدة ، تاهت عقولكن ولم تدرين ما تفعلن وقطعتن أيديكن انبهارا لجماله ، فما بالي أنا التي أعيش معه ليل نهار .

ثم جاءت اللحظة الحاسمة للانقضاء عليهن والاعتراف بل والتباهي بما حدث منها:

﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وذلك خلافا لما قالت من قبل، يوسف ٢٥:

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

الدليل الخامس عشر:

يقول رب العزة على لسان امرأة العزيز ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾

وهذا دليل آخر من الأدلة الدامغة، على أن يوسف لم يمل إلي امرأة العزيز شهوانيا ولم يهمل بعمل الفاحشة.

لأنه باعترافها هي قالت: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ لم تقل (ولكنه استعصم) ، فهناك فرق كبير بين

الكلمتين ، لأن الفاء هنا تعطي سرعة رد فعل يوسف بالرفض لفعل الفاحشة وشدته ، وأن اعتصامه ورفضه لم يأخذ وقتا للمراودة مع النفس يفعل أو لا يفعل.

ثم أظهرت إصرارها وتحديها لفعل الفاحشة مع يوسف في جرأة أمام النسوة، لأنها وجدت في النسوة ميل إلي يوسف، فأعلنت تحديها له: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ

وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ يوسف ٣٢.

فأصبح الطلب مكشوفاً ، ومفضوحاً ، وبلا حياء لأنها وجدت نفسها وقد انهزمت من قبل أمام يوسف ، إذا فعليه الآن أن يفعل وبالأمر ، وإن لم يطع أمرها فإنه سيعاقب بالسجن ، وسينزل من المنزل التي هو عليها الآن من كونه المقرب إليها في حاشيتها ، ورأى من مظاهر العز والترف ما لم يره غيره ، إلي السجن ، ويفعل أشياء تصغر من شأنه .

وهذا يظهر لنا ما لنساء عليه القوم من تأثير في القرارات التي تصدر وتخص العامة والدولة . وجد يوسف نفسه أمام تحد جديد ، وهو من اختبار الله له ، واختبار لإيمانه وصبره ، ويعلمنا الله من خلاله كيف نقف أمام الشدائد ، وكيف ومتى نلجأ إلي الركن الشديد .

فالمرأة مازالت مصرة على الفعل ، وهذه المرة ليست كسابقته ، فإن لم يفعل فالسجن أمامه ، وليس السجن فقط ، ولكن سينزل من المكانة التي هو فيها الآن من ترف العيش ورغده ، إلي منازل الذين يقومون بالأعمال المشينة ، وهو غير معتاد على هذا .

أي شاب هذا الذي يترك النعيم والترف بجوار امرأة العزيز ، وينزل إلي منازل الصاغرين ، هل من أجل ليلة مع امرأة ، وأي امرأة إنها امرأة العزيز التي إن وافق على طلبها فسيكون في منزلة يحسده عليها العزيز نفسه .

وليس مع امرأة العزيز وحدها ولكن مع نساء عليه القوم أيضا .

ثم أليست هذه هي الفحشاء التي تكلم الله فيها وقال فيها: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف ٢٤ .

أصبح يوسف في موقف صعب ، وهو على مفترق طريقين .

أحدهما فيه هناء الدنيا ورغدها ونعيمها ، وفيه الضغوط شديدة لفعل الفاحشة ، ولكن فيه غضب الله سبحانه ، والآخر فيه السجن ، والشقاء ، والعذاب ، والتصغير من الشأن في الدنيا ، ولكن فيه رضا الله سبحانه وتعالى ، ونعيم الآخرة . .

والكيد: هو ما أضمرته امرأة العزيز والنسوة في الضغط علي يوسف لفعل الفاحشة معهن .

ولكن يوسف له رأى آخر: وليتعلم منه رجال الأمة وشبابها ، الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، ونسوا أن لهم ربا مطلع على أفعالهم ، وسيحاسبهم بها يوم العرض عليه .

حسم يوسف أمره ، واتجه إلي الله بالدعاء حيث قال:

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ يوسف ٣٣ .

هنا جمع يوسف النسوة في محاولة فعل الفاحشة معه ، ولم يتكلم عن امرأة العزيز على الرغم من أن امرأة عزيز هي التي قالت:

﴿ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ يوسف ٣٢.

وهذا يؤكد أن يوسف لم تتحرك غريزته تجاه امرأة العزيز في مراودتها الأولى، ولكن تكالب النسوة عليه ، كاد أن يغلبه فكان دعائه وتضرعه إلى الله:

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾.

أي أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل الفحشاء ؛ أو يوافق النسوة على دعوتهن له، ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ؛فقال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر ؛ وإن لم يصرف الله عنه كيدهن ؛لاستجاب لغوايتهن ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور.

صرف الفحشاء

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

لبي الله نداء يوسف واستغاثته به حيث يقول رب العزة في سورة النمل ٦٢:

﴿ أَمِّنْ تُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَهُ

مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وكأني أشعر أن هذه الآية قد أنزلت في نبي الله يوسف خاصة لأنه فعلا كان في حالة المضطر المستغيث، ولأن يوسف ﷺ لم يكن في حالة استغاثة أو اضطرار في قوله ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ لأنه كان في حالة تنبيه وتذكير لامرأة العزيز ، ولم يكن هناك اضطرار إلى الاستغاثة والركن الكامل ، ولكن كان أمامه خيارات كثيرة ، ووقت متسع ، وحيل للهرب من الموقف الذي كان فيه من قبل .

أما في هذا الموقف فان يوسف قد أحيط به، ولا يوجد مخرج له، فإما الفعل، أو السجن والصغار، ولا يوجد خيار آخر، فكان لابد من الركن إلى الله وهو مضطر.

وهنا يعلمنا الله ﷻ أن العبد يجب عليه أولا أن يعمل عقله الذي خلقه الله له في الأزمات للخروج منها ، فإذا ما استعمل الإنسان عقله ، فان الله سيهديه إلى برهان للخروج من مأزقه ، كما فعل يوسف ﷺ وهداه الله لحيلة الهروب إلى الباب ، ولكن إذا استنفذ العبد كل حيله وأحيط به ، فعليه أن يلجأ إلى من هو أقوى منه ومن الموقف الذي هو فيه ، فان الله ﷻ

سيخرجه منه بقدرته ولكن أن نركن إلي الدعاء فقط ولا نحاول أن نفكر للخروج من مما نحن فيه ، ونقول أن الله ﷻ سيخرجنا مما نحن فيه ، فهذا يعتبر تواكلا .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

فصرف الله عنه ما كانت امرأة العزيز والنسوة يمكرون على فعله معه. أما كيف صرف الله عنه كيد النسوة ، فهي من آيات الله التي لم يبين لنا أحد من المفسرين وعلمائنا الأجلاء كيف صرف الله هذا الكيد. ظهر للعزيز وحاشيته أن يوسف بريء ، وأن أخلاقه ، وأدبه ، ودينه لا غبار عليه ، ولكن وجوده فيه فتنة على نسائهم ، إذا فعلهم أن يتخذوا موقفا لدرء هذا الخطر . وكان القرار حبس يوسف عليه السلام فترة من الزمن حتى تموت هذه الفتنة.

إلي هنا تنتهي علاقة يوسف مع امرأة العزيز ، ولكنه لم يبرأ التبرئة الكاملة ، فلقد دخل السجن ظلما ، ولكن الله سبحانه له تصريح آخر.

فكان تعبير رؤيا الرجلين اللذان كانا معه في السجن هي مفتاح النقطة الأخرى له ، فجاءت رؤيا الملك التي لم يستطع أحد أن يعبرها ، لتنتقل يوسف نقلة أخرى ، ويتم عن طريقها كشف ما حاول العزيز وحاشيته أن يطمسوه ، ولتبرئ يوسف براءة كاملة من محاولة فعل الفاحشة مع امرأة العزيز. فبعد أن عبر رؤيا الملك، أدرك الملك أن من يعبر تلك الرؤيا بهذا التأويل لا يمكن أن يكون مثله في السجن، فطلبه الملك.

ثانياً: امرأة العزيز وتوحيد الله جل علاه

ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية، مطمئنة ساكنة واثقة نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأحداث، وتتوارى تماماً شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة، ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعَ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَلَاءُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ۝﴾

إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ؛ وعصر يوسف عليه السلام، الذي لعله في زمن الأسرة ١٢ (١٩٩١-١٧٨٦ ق.م)، هو سابق لعصر ملوك الهكسوس (بداية حكمهم في أقدم تقدير ١٧٢٠ ق.م).

لأنه في هذه الفترة عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام قريباً منهم، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم ولسوف نفرد فصلاً مستقلاً لتحقيق هذه المسألة إن شاء الله تعالى. إن رسالة يوسف عليه السلام كانت في هذه الفترة، وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص، بدأها مع امرأة العزيز، والتي تحدثت بها بعد ذلك مع أقرانها من عليّة القوم — زوجات الوزراء — وذلك في إشارتين:

الإشارة الأولى وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف:

حيث قمن بتنزيه الله جل علاه حينما أبصرن يوسف لأول مرة:

﴿ فَأَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٦١﴾ ۝﴾

وفي شهادتهن أمام الملك وفور أن وجه لهن السؤال:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ﴿٦٢﴾ ۝﴾، إن سؤال الملك محدد جداً إنه يسألهن عن مرادتهن ليوسف ولم يسألهن رأيهن في يوسف عليه السلام، ومع ذلك:

﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴿٦٣﴾ ۝﴾

قلن حاش لله وفي حضرة الملك ولم يخشين على أنفسهن من بطش الملك لتلفظهن باسم الله.

أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التي يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت في النهاية وتابت توبة نصوحة ، فيما حكاها عنها السياق القرآني: وبدون مقدمات:

﴿ قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ أَنْ حَصْحَصَ الْحَقَّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

بعد ذلك ورد قولها: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾ .

والسؤال الآن من أين عرفت امرأة العزيز ومعها النسوة أن هناك خالق للسموات والأرض اسمه الله جل علاه؟ والأهم من ذلك أنهم حينما تلفظن بهذا اللفظ وفي حضرة الملك لم يستغرب ذلك اللفظ عليهن مثل ما فعل فرعون مع موسى عليه السلام.

مراحل انتشار العقيدة زمن يوسف عليه السلام:

١- مما سبق اتضح لنا أن ديانة التوحيد قد انتشرت على مستوى القصر الملكي، و قبل تولي يوسف عليه السلام مقاليد الحكم في مصر.

٢- نجده بعد ذلك يمارس الدعوة وهو في السجن ؛ وقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة، فيما حكاها القرآن الكريم من قوله:

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٨) يَصْحَحِي

السَّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ **الْوَحْدُ الْقَهَّارُ** (٢٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ **إِنْ**

الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ءَأَمْرٌ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ (٣٠) ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ (٣١) .

وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة وشاملة — كما جاء به رسل الله جميعا — من ناحية أصول العقيدة، تحتوي، الإيمان بالله، والإيمان بالآخرة، وتوحيد الله ﷻ وعدم الشرك به أصلا ، ومعرفة الله ﷻ بصفاته . . الواحد ، القهار ، . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا ؛ ومن ثم نفى الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده، ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره، ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده، وتحديد معنى "العبادة" بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية ، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله ﷻ بالعبادة — أي إفراده بالحكم — فهما مترادفان أو متلازمان:

﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۖ ﴾ . .

وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها . .
وواضح أن يوسف ﷺ عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر، استمر في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل . . ولا بد أن الإسلام انتشر في مصر على يديه — وهو يقبض على أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم — وانتشر كذلك في البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لتقتات مما تم ادخاره بحكمته وتدبيره، وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليبتاعوا من مصر ويتزودوا ، مما يصور حالة الجذب التي حلت بالمنطقة كلها في هذه الفترة.

٣— ثم بعد ذلك لابد وأن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم، ثم من بعد ذلك في عهد أسر الملوك ثم الهكسوس الرعاية من بعدهم.

وحينما أحب يوسف ﷺ أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ

أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ۖ فَلَبِثَ فِي

السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ . فهو بهذا يطالب بفتح ملفات القضية المنسية كأنما يستأنف

الحكم بقوله للذي قد تأكد له — ظن هنا في الآية الكريمة هي من المشترك اللفظي في القرآن الكريم وهي بمعنى أيقن — أنه ناج : اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه، فهو بهذا ربك، فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع، وفي هذا تأكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الإسلامي ، ومما يلاحظ أن الملوك — في هذه الفترة — لم يكونوا يدعون الربوبية قولا كالفراعة ، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعة ، ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلا الحاكمية وهي نص في معنى الربوبية . .

فلما استرد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية ، وهذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل - أي يعقوب - إلى جانب السبب السياسي ، وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا في مصر حتى عهد ملوك الرعاة الوافدين، وصاروا حلفاء لهم بعد ذلك، فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني إسرائيل أيضا، وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع، ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين، ولقد وردت إشارة إلى هذا الذي نقرره في حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون في سورة غافر ؛ في دفاعه الإسلامي المجيد عن موسى عليه السلام، في وجه فرعون وملئه عندما هم فرعون بقتل موسى ، ليقتل معه الخطر الذي يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿١٦﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١٧﴾ وَالَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿١٨﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿١٩﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٠﴾ يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴿٢١﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٢٥﴾ .

والله غالب على أمره

والم تأمل في قوله تعالى يوسف ٢١:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٢١

إن واحدة من مظاهر قدرة الله العجيبة وهيمنته على الأمور كلها أن يدع أسباب توفيق الإنسان ونجاحه بيد أعدائه كما حدث في مسالة يوسف عليه السلام فلولا خطة إخوته لم يصل إلى الجب أبداً، ولو لم يصل إلى الجب لما وصل إلى مصر، ولو لم يصل إلى مصر لما ذهب إلى السجن ولما كان هناك اثر من رؤيا فرعون التي أصبح يوسف بسببها عزيز مصر.

ففي الحقيقة إن الله اجلس يوسف عليه السلام على عرش الاقتدار بواسطة إخوته الذين تصوروا أنهم سيقضون عليه في تركهم إياه في غيابة الجب، لقد واجه يوسف عليه السلام في هذا المحيط الجديد، الذي يعد واحداً من المراكز السياسية المهمة في مصر مسائل مستحدثة... فمن جهة كان يرى قصور الطغاة المدهشة وثرواتهم، ومن جهة أخرى كانت تتجسد في ذهنه صورة أسواق النخاسين وبيع الممالك والعبيد... ومن خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر في كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدرا على ذلك.

لقد تعلم الكثير من هذه الأشياء في هذا المحيط المفعم بالضوضاء، وكان قلبه يفيض هما لان الظروف لم تنتهياً له بعد، فاشتغل بتهديب نفسه وبنائها، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ آتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ٢٢

كلمة أشد مشتقة من مادة شد وتعني فتل العقدة باستحكام ... وهي هنا إشارة إلى الاستحكام الجسماني والروحاني، قال بعضهم: إن هذه الكلمة جمع لا مفرد لها... ولكن البعض الآخر قال: إنها جمع (شد) على وزن (سد) ولكن معناها الجمعي غير قابل للإنكار على كل حال المراد من الحكم والعلم الواردين في الآية المتقدمة التي تقول:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ آتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ٢٣

ذلك بعض المفسرين، وإما أن يكون المراد من الحكم العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح الخالي من إتياع الهوى والاشتباه.

والمراد من العلم الاطلاع الذي لا يقتزن معه الجهل ، ومهما كان فان الحكم والعلم موهبتان نادرتان وهبهما الله ليوسف لتقواه وصبره وتوكله عليه ، وجميع هذه الصفات مجتمعة في كلمة المحسنين .

ومرة أخرى مع امرأة العزيز أعظم تائبة في التاريخ

التوبة:

لقد خلق الإنسان وفيه استعداد للخير واستعداد للشر، خلق على طبيعة مزدوجة كما نرى في خلق آدم، قبضة من الطين ونفخة من الروح، فالطين يدفع به إلى الأسفل والروح تنزع به إلى الأعلى، وهناك صراع بين هذين النموذجين أو هاتين الركيزتين في النفس الإنسانية. فأحياناً الإنسان يغلب عليه طينه وينزل إلى الأسفل ويكون كالأنعام أو أضل سبيلاً، وأحياناً يرقى به الروح ونفخة الروح فيصبح كالملائكة، ولذلك حينما تحدث الله ﷻ عن النفس قال سبحانه وتعالى في سورة الشمس ٧-١٠:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ﴾

فالنفس ملهمة، بطبيعتها الفجور والتقوى، الاستعداد للفجور والاستعداد للتقوى، عندها استعداد لأن ترقى واستعداد لأن تهبط، فلذلك كان على الإنسان أن يغالب نفسه. والله ﷻ حينما خلق الإنسان خلقه مختاراً، لم يخلقه كالملائكة مفطوراً على الطاعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرهم، ولم يخلقه كالبهائم أو السباع يفعل ما توحيه الغريزة. إنما هو إنسان عنده عقل، وعنده إرادة، وعنده حرية الاختيار، فلذلك لابد وأن يجاهد نفسه، ولو استناب لغرائزه وللمغريات الأخرى، ومن هذه المغريات أنه قد سُلط عليه الشيطان. قال أحد الصالحين:

إني بُليت بأربع يرميني بالنبل عن قوس له توتير.

إبليس والدنيا ونفسي والورى يا ربى أنت على الخلاص قدير.

ولقد ذكر العلماء للتوبة الصحيحة أركاناً ينبغي أن تتوفر وهي:

أولاً: الإقلاع عن الذنب: فيترك التائب الذنب الذي أراد التوبة منه باختياره، سواء كان هذا الذنب من الكبائر أم من الصغائر.

ثانياً: الندم على الذنب: فهذا الركن مقومات التوبة فيه مقوم نفسي، وهو — كما قال الإمام الغزالي — يتكون من علم وحال وعمل أي هو الجانب المعرفي في التوبة، فالإنسان يعرف خطأه، وإنه سلك مع الله سلوكاً غير لائق، ويعرف آثار هذه الذنوب، وآثار المعاصي في دنياه وفي آخرته، وعلى نفسه، وعلى صحته، وعلى أخلاقه، وعلى أسرته، وعلى أولاده بمعنى أن يندم التائب على فعلته التي كان وقع فيها ويشعر بالحزن والأسف كلما ذكرها.

يعرف هذا، ويعرف مقام الله ﷻ ويعرف حاجته إلى التوبة، وهذا هو ما يعرف بالجانب المعرفي.

وهذا الجانب المعرفي يترتب عليه جانب وجداني، ويطلق عليه الإمام الغزالي الحال، وهو ما يعرف بالندم.

فما هو الندم؟..

الندم، أي بعدما يعرف الإنسان خطأه، يترتب عليه أن يندم، إذا انتبه القلب إلى آثار المعاصي ندم الإنسان، والندم هو في الواقع شعور.. توتر يحس به الإنسان بلسعة تلسع كأنها نار تحرقه، احتراق داخلي، ولقد حدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن نفسية التائبين في سورة التوبة حيث قال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

هذا حالتهم ، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، على سعة الدنيا يتهيأ له إنها أصبحت كأنها حلقة صغيرة، وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله، فلا بد من تولد هذه الحالة النفسية وهذا الشعور بالحسرة، والحزن على ما فات وما فرط في جنب الله.

بعد ذلك يؤثر هذا في ناحية أخرى وهي ناحية العزم والتصميم بالنسبة للمستقبل، ندمت على ما فات لأبد من العزم على إصلاح ما هو آت.

ثالثاً: العزم على عدم العودة إلى الذنب: وهو شرط مرتبط بنية التائب، وهو بمثابة عهد يقطعه على نفسه بعدم الرجوع إلى الذنب.

رابعاً: الاستدراك ورد الحقوق وتتمثل في:

أولاً: حقوق الله عز وجل:

وهي إما أوامر وطاعات قد قصرت فيها، أو مناهي ومعاصي ارتكبتها.

أما الطاعات، فإن كنت قد تركت صلاة، أو صليتها فاقدة شرطاً من شروط صحتها، فيجب عليك أن تقضيها كلها إذا كنت تعلم عددها، فإن كنت لا تعلم عددها أو تشك فيه، فخذُ بغالب الظن بعد الاجتهاد والتحري، ثم لتكثر بعد ذلك من صلوات النوافل، كالسنن الراتبة وقيام الليل.

وإن كنت تركت صيام يوم أو أيام من صيام الفريضة، فأحصِ عددها واقضها، ثم زد بعد ذلك من صوم النافلة، كالاثنين والخميس والأيام البيض.

وأما إن كان فرط في الزكاة، فيحسب ما كان يجب عليه إخراجه ويخرجه على حسب غلبة ظنه.

وإن كان تيسر له سبيل الحج واستطاع ولم يحج، فعليه أن يبادر بالحج، وأن يسعى لأداء الفريضة قبل أن يدركه الموت.

وأما المعاصي، فيجب أن يحصيها، بأن ينظر في أيامه وساعاته، ويفتش في جوارحه، ويسجل كل معاصيه، من صغائر وكبائر، ثم يسعى في تكفيرها كلها.

ثانيًا: حقوق ومظالم الناس:

شدد الشرع في حقوق ومظالم العباد ما لم يشدده في حقوق الله ﷻ، فقد ألزم الشرع التائب أن يرد الحقوق إلى أصحابها إن كانوا أحياء، أو إلى ورثتهم إن أموات، فإن لم يستطع ردها فليستحل منه بعد إعلامه بها، إن كان حقًا ماليًا أو جنائيًا على بدنه، فقد قال النبي ﷺ: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَنْحَلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ).

فإن لم يسامحه صاحب الحق ويتحلل له فعليه أن يسعى ما استطاع في تحصيل هذا الحق ورده إلى صاحبه.

فإن لم يجد أصحاب الحقوق ولا ورثتهم، فعليه أن يتصدق بهذه الحقوق عن أصحابها، ويدفعها إلى الفقراء والمحتاجين، أو إلى جهات الخير ومصالح المسلمين.

أما المظالم الأدبية، كالغيبة والسب والسخرية والاستهزاء، فقد اختلف العلماء في كيفية التوبة منها، فقال بعضهم: يجب على التائب إعلام من اغتابه أو سبه، والتحلل منه، وقال البعض الآخر: يتوب بينه وبين الله، ولا يشترط إعلام من قذفه أو اغتابه.

والقول الوسط بينهما هو: إن لم يترتب على إخباره وإعلامه مفسدة وضرر، فيجب إخباره والتحلل منه، وإن ترتب على إخباره مفسدة أو ضرر، فتدفع المفسدة، ويتوب بينه وبين الله ولا يخبره، ويدعو له.

فالتحلل من حقوق الناس أي العزم على إصلاح ما هو آت يعتبر من أهم مراحل التوبة لأنه يؤدي إلى حرج التائب ولا شك لأن الذنب إذا كان متعلقًا بحقوق الناس، فلا بد أن يعيد الحق لأصحابه، أو يطلب منهم المسامحة، وهو ما يعرف بالجانب العملي وهو الجانب الذي يأتي بعد الجانب الوجداني والإرادي حيث ينبثق السلوك العملي، وهو أن يقلع بالفعل من المعصية، وهذا الجانب العملي له فروع منها، أن يستغفر الله -تعالى- بلسانه قال ﷻ في سورة الأعراف ٢٣: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

الْخَسِرِينَ ﴿١٢﴾، من ناحية أخرى كما قال الرسول ﷺ "وأَتبع السيئة الحسنة تمحها" وكما

قال الله تعالى في سورة هود ١١٤: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾، فعليه إنه يغير السيئة

بحسنة، يبدل السيئة بالحسنة.. يتبعها بحسنة وخصوصاً حسنة من جنسها، وإذا صدقت التوبة

لا بد أن يتبعها سلوك، سلوك ناشئ عن وجدان، عن توتر، عن الندم وعن العزم، ولذلك يقول

ﷺ في سورة طه ٨٢: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ

﴿٨٢﴾﴾، ويقول ﷺ في آخر سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ

يَلْقَ أَثَامًا ﴿٨٦﴾ يُضَعَّفَ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَتَحُدُّ فِيهِ مَهَانًا ﴿٨٧﴾﴾ إِلَّا مَن تَابَ

وَأَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٨٨﴾﴾. ولا بد مع التوبة بعد ذلك من تجديد الإيمان، لأن الذنوب تخدش

الإيمان فلا بد أن نرمم هذا الإيمان بالتوبة، وهو إيمان يتبعه عمل للصالحات، ويقول ﷺ في

سورة البقرة ١٦٠: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

ويقول ﷺ في سورة آل عمران ٨٩: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ

اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، ويقول ﷺ في سورة النساء ١٤٦: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ

يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

ويقول سبحانه وتعالى في سورة النور ٥: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

الاجتماع الملكي

لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقاً ومدرّساً ومنطقياً إلى درجة أنه جذب الملك وحاشيته إليه، إذ كان يرى أن سجيناً مجهولاً عبر رؤياه بأحسن تعبير وتحليل، دون أن ينتظر أي أجر أو يتوقع أمراً ما.. كما أنه أعطى للمستقبل خطة مدروسة أيضاً.

لقد فهم الملك إجمالاً أن يوسف لم يكن رجلاً يستحق السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادي، دخل السجن نتيجة حادث خفي، لذلك تشوق لرؤيته، ولكن لا ينبغي للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يؤتى به إليه كما يقول القرآن :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ ﴾ ثم أرسل في طلبه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾

لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك وقال:

﴿ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ ﴾.

إذن.. فيوسف لم يرغب أن يكون كأي مجرم، أو على الأقل كأي متهم يعيش مشمولاً بعفو الملك.. لقد كان يرغب أولاً أن يحقق في سبب حبسه، وأن تثبت براءته وطهارة ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يثبت ضمناً تلوث النظام الحكومي وما يجري في قصر وزيره، أجل فلقد اهتم بكرامة شخصيته وشرفه قبل خروجه من السجن، وهذا هو نهج الأحرار.

الطريف هنا أن يوسف عليه السلام في عبارته هذه أبدى سمواً في شخصيته إلى درجة أنه لم يكن مستعداً لأن يصرح باسم امرأة العزيز التي كانت السبب المباشر في اتهامه وحبسه، بل اكتفى بالإشارة إلى جماعة النسوة اللاتي لهن علاقة بهذا الموضوع فحسب ونحن كذلك وحتى قبل أن يفتضح الأمر لم نكن نعرف شيئاً عن المرأة ولا عن زوجها، من هو ومن هي حتى قال النسوة ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

الحقيقة أول مرة نعرف أن سيدنا يوسف عليه السلام كان في بيت عزيز مصر وأن المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز، وهذه طريقة في حبكة القصة رائعة جداً، آخر إعطاء القارئ هوية هذا الرجل الذي اشتراه، وقال الذي اشتراه من مصر، من؟ لا نعرف، وقال لامراته أكرمي مثواه، وراودته التي هو في بيتها، بعد مرحلة متقدمة من القصة، عرفنا أن هذه المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز، وأن هذا الرجل الذي اشتراه هو

عزيز مصر، ويبدو من السياق أن هؤلاء النسوة كنّ من الطبقة الراقية ، رقيقاً دنيوياً ، أي من طبقة الأغنياء والمقربين إلى القصر .

ثم يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر ولا جهازه الحكومي وبأي سبب وصلت السجن، فالله مطلع على ذلك ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرة ثانية إلى الملك ، واخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إباطه وعلو همته ، لذا عظم يوسف في نفس الملك وبادر مسرعا إلى إحضار النسوة اللاتي شاركن في الحادثة ، والتفت إليهن وسألهن سؤالاً محدداً:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾

والخطب، هو الحدث الجلل، فهو حدث غير عادى يتكلم به الناس، فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم، بل يتكلمون عنه بحديث يصل إلى درجة تهتز لها المدينة. وقول الملك هنا يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتز لها، واعتبرها خطباً مما يوضح لنا أن القيم هي القيم في كل زمان ومكان.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾

يجب أن تقلن الحق.. إذ أنه من الواضح أن الملك كان قد استعلم بطريقته عن ما حدث ليوسف وأنه بعد أن انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف في قصر العزيز في تلك الغوغاء والهياج ، وبعد أن علم أن خبره قد وصل إلى سمع العزيز .. ومن مجموع هذه المجريات اتضح له أن يوسف لم يكن شاباً عادياً، بل كان طاهراً لدرجة لا يمكن لأي قوة أن تجره إلى الانحراف والتلوث ، واتضحت علامات هذه الظاهرة من جهات مختلفة ، فتمزق قميصه من دبر، ومقاومته أمام وساوس نسوة مصر، واستعداده لدخول السجن وعدم الاستسلام لتهديدات امرأة العزيز بالسجن والعذاب الأليم ، كل هذه الأمور كانت أدلة على طهارته لا يمكن لأحد أن يسدل عليها الستار أو ينكرها ولازم هذه الأدلة إثبات عدم طهارة امرأة العزيز وانكشاف أمرها، وعلى اثر ثبوت هذا الأمر فإن الخوف من فضيحة جنسية في أسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم .

فكان الرأي بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أولاً، وليشيع بين الناس أن المذنب الأصلي هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد:

﴿ ثُمَّ بَدَأَ هُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٢٠﴾

التعبير بكلمة بدا التي معناها ظهور الرأي الجديد، يدل على أن مثل هذا التصميم في حق يوسف لم يكن من قبل، ويحتمل أن تكون هذه الفكرة اقترحتها امرأة العزيز لأول مرة.. وبهذا دخل يوسف النزيه — بسبب طهارة ثوبه — السجن ، وليست هذه أول مرة ولا آخرها أن يدخل الإنسان النزيه بجريرة نزاهته السجن في المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين الذين يسيرون مع التيار وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب ، .. بل إن الأفراد النجباء كيوسف الذي لا يتلاءم مع ذلك المحيط ولونه، ويتحرك على خلاف مجرى الماء، ومثل ما تهبط الجثث السليمة في قاع المحيط فإنك ترى الجيف تصعد في أعلاه وتطفو والعجيب أنك تجد في علوم اللغة أن كلمة شر تجمع على شرور، أما كلمة خير فلا جمع لها وهكذا الحياة تجد الشر له أعوانه ومريديه ومخالبه قوية أما الخير فقدره أن يكون وحيداً وعلى الرغم من فرديته إلا أن الحق عودنا دائماً أن النصر والغلبة له دائماً والمسألة مسألة وقت لماذا؟.. ليكون الشر وأعوانه جند من جنود الحق.

وهكذا بعد أن اجتمعت لدى الملك كافة خيوط القضية جاءت اللحظة الحاسمة لحظة المواجهة بين يوسف الحاضر الغائب وبين النسوة وفي حضرة أزواجهن:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ﴿٢١﴾

ماذا حدث؟ وماذا فعلتن مع يوسف؟. فتتقظ فجأة الوجدان النائم في نفوسهن، وأجنبه جميعاً بكلام واحد متفق على طهارته و: ﴿ قُلْ حَسْبَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ﴿٢٢﴾. إنه لم يسألهن رأيهن في يوسف حتى يجنبه بتلك الإجابة المعروفة لديه مسبقاً وإنما سألهن سوألا محدداً: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ﴿٢٣﴾.

فلم يجنبه، وفضلن الصمت فأزواجهن كانوا حضورا بالمجلس وهم الذين دبوا دخول يوسف للسجن بعدما ثبتت براءته عندهم، ولم يشملهم — أي السادة الوزراء — يوسف عليه السلام بكلامه وكذلك لم يرد ذكر من كانت السبب وراء هذا كله في حديثه.

أما امرأة العزيز التي كانت حاضرة أيضاً، وكانت تصغي بدقة إلى حديث الملك ونسوة مصر، فلم تجد في نفسها القدرة على السكوت ، ودون أن تسال أحست بان الوقت قد حان لان تنزله يوسف وان تعوض عن تبكيته وجدانها وحيائها وذنبها بشهادتها القاطعة في حقه ، وخاصة أنها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك ، إذ لم يعرض فيها بالطعن في شخصيتها وكان كلامه عاما ومغلقا تحت عنوان نسوة مصر.

فكأنما حدث انفجار في داخلها فجأة وصرخت و ﴿قَالَتْ أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ أَكُنَّ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

وكانت من قبل قد اعترفت أمام النسوة، يوسف ٣٢:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ .

أي ظهر الحق وعلاماته للجميع ولا أستطيع أن أخفيه أكثر من هذا، قالت:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ .

قالت هذا حتى تعلن براءة يوسف عليه السلام وأنها لم تنتهز فرصة غيابه في السجن وتنتقم منه لأنه لم يستجب لمرادتها له، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات، والدسائس، والمكائد.

وبعد أن اعترفت امرأة العزيز بما فعلت قالت:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ أي أنها أقرت بأنه صلى الله عليه وسلم لا ينفذ كيد الخاطئين

ولا يوصله إلى غايته وتواصل امرأة العزيز فتقول: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ

لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا القول من تمام كلام امرأة

العزيز وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبرئ نفسها بل لتبرئة يوسف من كل اتهام، بهذه الكلمات عاشت امرأة العزيز في سعادة نفسية وطمأنينة روحانية هانت معها كل أمور الدنيا، وأدركت أن حياة المعصية حياة لا قيمة لها، لأن الحياة الحقيقية هي حياة الطمأنينة بالاستقامة والطاعة والإيمان، وهذه هي التي قال فيها بعض الصالحين:

نحن نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف، بمعنى أنه من فضل الله إن الملوك لا يعرفون قيمة السعادة الروحية فتركوهم يستمتعون بها دون أن ينافسوهم عليها، لو علموا بقيمتها لجالدوهم عليها بالسيوف، هذه هي السعادة الروحية، وهي التي قالتها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما، حينما تغاضبا يوماً، فقال لها: "لأشقيكي"، قالت له: "لا تستطيع، لأنني لو كانت سعادتي في مال لحرمتني منه، أو في زينة لقطعتها عني، ولكنني أرى سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي".

فهذه هي السعادة التي يحسها التائبون إلى الله عز وجل، إنها السكينة التي قال الله تعالى فيها في

سورة الفتح ٤:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ﴿٢٨﴾. إنها الطمأنينة يقول ﷺ في سورة الرعد ٢٨: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ﴿٢٨﴾. والطمع في رحمة الله ﷻ : ﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٥٣﴾، فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة الزمر ٥٣:

﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٥٣﴾.

الذنوب جميعاً تغفر بالتوبة، حتى الشرك! حتى الكفر، لأن الإنسان إذا كان مشركاً، وكافراً وتاب يتوب الله ﷻ عليه. يقول ﷻ في الأنفال ٣٨: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾. والله ﷻ قال للمشركين في سورة التوبة ٥: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٥٣﴾.

وقال ﷻ في التوبة ١١: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١١﴾. وقال ﷻ في التوبة ١١: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١١﴾.

فالتوبة تجب ما قبلها ومنها التوبة من الشرك، والتوبة من النفاق، والتوبة من الكبائر، والتوبة من الصغائر، التوبة من كل ذنب، حتى المنافقين. قال ﷻ في شأنهم في سورة النساء ١٤٥: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ ﴿١٤٥﴾. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿١٤٦﴾. فباب التوبة مفتوح للجميع، كل ما في الأمر أن تكون توبة صادقة، توبة خالصة، توبة نصوحاً كما عبر القرآن الكريم.

استدراك هام:

في الحقيقة إن قول امرأة العزيز:

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

فإننا نلتمس من قولها ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ لأنني عرفت بعد هذه المدة الطويلة وما عندي من التجارب ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾.

بناء على أن الجملة المتقدمة لامرأة العزيز كما يقتضيه ظاهر العبارة ، فإنها ومن أجل اعترافها الصريح بنزاهة يوسف وما أخطأته في حقه ، تقيم دليلين :

الأول: أن وجدانها، ويحتمل بقايا علاقتها بيوسف، لا تسمح لها أن تستر الحق أكثر من هذا، وإن تخون هذا الشاب الطاهر في غيابه.

الثاني: أن من مشاهدة الدروس المليئة بالعبر على مرور الزمن تجلت لها هذه الحقيقة ، وهي أن الله يرفع الصالحين ولا يوفق الخائنين في مرادهم أبداً.

وبهذا بدأت الحجب تنقشع عن عينيها قليلاً قليلاً .. وتلمس حقيقة الحياة ولا سيما في هزيمة عشقها الذي صنع غرورها وشخصيتها الخيالية ، وانفتحت عيناها على الواقع أكثر، فلا عجب أن تعترف هذا الاعتراف الصريح .

وتواصل امرأة العزيز القول: ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ ﴾ وبحفظه وإعانتة نبقي مصونين ، وأنا أرجو أن يغفر لي ربي هذا الذنب :

﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

قال بعض المفسرين: إن الآيتين الأخيرتين من كلام يوسف، وقالوا: إنهما في الحقيقة تعقيب لما قاله يوسف لرسول الملك ومعنى الكلام يكون هكذا.

إذا قلت حققوا عن شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، فمن أجل أن يعلم الملك أو عزيز مصر الذي هو وزيره ، أنني لم أخنه في غيابه والله لا يهدي كيد الخائنين كما لا أبرئ نفسي لأن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم .

الظاهر أن الهدف من هذا التفسير المخالف لظاهر الآية أنهم صعب عليهم قبول هذا المقدار من العلم والمعرفة لامرأة العزيز التي تقول بلحن مخلص وحاك عن التنبيه والتيقظ.

والحال انه لا يبعد أن الإنسان حين يرتطم في حياته بصخرة صماء، تظهر في نفسه حالة من التيقظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل، خاصة انه لوحظ أن الهزيمة في العشق المجازي يجبر الإنسان إلى طريق العشق الحقيقي عشق محبة الله سبحانه.

وبتعبير علم النفس المعاصر: إن تلك الميول النفسية المكبوتة يحصل فيها حالة التصعيد وبدلاً من تلاشيها وزوالها فإنها تتجلى بشكل عال.

ثم إن قسماً من الروايات التي تشرح حال امرأة العزيز — في السنين الأخيرة من حياتها — دليل على هذا التيقظ والانتباه أيضاً.

وبعد هذا كله فربط هاتين الآيتين بيوسف — إلى درجة ما — بعيد، وهو خلاف الظاهر بحيث لا ينسجم مع أي من المعايير الأدبية للأسباب الآتية:

أولاً: كلمة ذلك التي ذكرت في بداية الآية هي بعنوان ذكر العلة، أي علة الكلام المتقدم الذي لم يكن سوى كلام امرأة العزيز فحسب، وربط هذا التذييل بكلام يوسف الوارد في الآيات السابقة أمر عجيب.

ثانياً: إذا كانت هاتان الآيتان بيانا لكلام يوسف فسيبدو بينهما نوع من التناقض والتضاد، فمن جهة يقول: «أني لم أخنه بالغيب»، ومرة يقول: «وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء». وهذا الكلام لا يقوله إلا من يعثر أو يزل ولو يسيراً، في حين أن يوسف لم يصدر منه أي زلل.

وثالثاً: إذا كان مقصوده أن يعرف عزيز مصر أنه بريء فهو من البداية بعد شهادة الشاهد عرف الواقع، ولذلك قال لامرأته: (استغفري لذنبك) وإذا كان مقصوده أنه لم يخن الملك، فلا علاقة للملك بهذا الأمر، والتوسل إلى تفسيرهم هذا بحجة أن الخيانة لامرأة العزيز خيانة للملك الجبار، فهو حجة واهية — كما يبدو — خاصة أن حاشية القصر لا يكثرثون بمثل هذه المسائل.

وخلاصة القول: أن هذا الارتباط في الآيات يدل على أن جميع ما ورد في السياق من كلام امرأة العزيز التي انتبهت وتيقظت واعترفت بهذه الحقائق وبهذا يمكننا وصفها بأنها أعظم تائبة في التاريخ ولم تجد حظها من الإنصاف مثل ما وجدت حظها من التشهير.

الفصل الرابع

التمكين في الأرض

في هذه المرحلة نجد أن الخطاب قد اختلف، فيما سبق كان الحديث عن العزيز، أما هنا فالحديث عن الملك:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۚ ﴾ .

ونلاحظ أن الملك قد قال ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ۚ ﴾ مرتين.

الأولى بعد أن سمع تأويل الرؤيا، لكن يوسف عليه السلام رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته.

ذهب الرسول إلى يوسف عليه السلام في السجن وأخبره أن الملك يريده ، في هذه اللحظة وجد يوسف ضالته ليبرئ ساحته من محاولة فعل الفاحشة ، ولم يتعجل الخروج من السجن . ولو كان أحد آخر من البشر لخرج مسرعا وما لبث فيه لحظة واحدة، ثم بعد ذلك يقص على الملك قصته.

ولكن يوسف عليه السلام أراد أن يظهر الحق أمام الملك، وعلى لسان من اتهموه وتسببوا في وضعه في السجن ظلما، فكان عليه أن يرجع الرسول إلى الملك دون أن ينفذ أمر الملك ، وهذه من الأمور العظام بل ويعتبره الملوك تمردا.

وليس هذا وحسب بل ويطلب أن يحقق الملك أولا في قضيته .

فقال للرسول يوسف ٥٠: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۚ ﴾ .

ثم حدد يوسف عليه السلام أطراف القضية للملك، وبداية الخيط فيها، ودلل عليهن باللاتي قطعن أيديهن ولكنه لم يسميهن له ، وذلك ليبحث الملك ، وهذا الذي فعله يوسف أعطى لقضيته قوة واهتماما لدى الملك .

عاد الرسول إلى الملك ، وقص عليه ما كان من يوسف ، أسقط في يد الملك إن من يقول هذا الكلام ويرفض الخروج من السجن ، وراءه خبر عظيم وشديد ، فأراد أن يعرف الحقيقة وبدأ يسأل عن حقيقة الأمر ومن هن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وبدأت تظهر الحقيقة أمام الملك

وعندما يقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ﴾ ، فإنه بهذا يعرض قضيته الإيمانية ، ويخبر الملك بأن له إلهًا غير الذي يعبدُه الملك ، فيسأل الملك من إلهه هذا الذي يعرف ما لا يعرفه هو عن رعيته .

وقد يكون القصد بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ﴾ عن العزيز، حيث قال من قبل في نفس السورة آية ٢٣: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ٢٣ يوسف.

وانتهى اللقاء الأول بين الملك وبين النسوة، ليتدبر ويفكر في صفات هذا الرجل ، والراحة النفسية التي ملأت نفس الملك ، وكيف دخل هذا الرجل قلبه .
والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله مستشارا له.
ويورد الحق سبحانه هذا المعنى في قوله:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف؛ وبعد أن استشف خفة يوسف على نفسه؛ وتيقن الملك من بعد الحوار مع يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز؛ غريزة الجنس.

وتيقن من أن يوسف تقبل السجن؛ وعاش فيه فترة طالت؛ وهو صاحب علم وقد ثبت ذلك بتأويل الرؤيا وقد فعل ذلك وهو سجين ولم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته أو بعد إثبات البراءة.

ولكل ذلك صار من أهل الثقة عند الملك الذي أعلن الأمر بقوله:

﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

وذلك ليسد باب الوشاية به؛ أو التآمر عليه ومكانة المكين هي المكانة التي لا ينال منها أحد. فالمعنى أن يوسف عليه السلام أهل للثقة عند الحاكم وهو الذي سينفذ الأمور ؛ وله صلة بالمحكومين ؛ وإذا كان هو الممكن من عند الحاكم ؛ فهو أيضا أمين مع المحكومين. ظهرت براءة يوسف عليه السلام أمام الملك وعرف الجميع أنه قد سجن ظلما في جريمة لم يفعلها ولم يسع إليها ولم يفكر فيها وهذا من فضل الله على عباده الذين اصطفى. والأهم من ذلك أن يوسف عليه السلام جلس إلى الملك وبدأ الملك يكلمه.
وهنا تظهر الحكمة في الكلام المباشر بين البشر.

لأنك إذا أردت أن تعرف إنسانا وتحكم على شخصيته، وعلى علمه، وحكمته، وخلقه، وأدبه فإن الحكم لا يأتي إلا بعد التكلم معه، وذلك لأن كل إناء ينضح بما فيه. ولأن كل منا صندوق مغلق، لا يظهر ما فيه إلا عند الكلام والتحدث مع الآخرين فهنا يظهر الحكم الحقيقي.

من هنا وجد الملك أن يوسف يتصف بصفات جليلة تجعله أميناً عنده منها: علمه بتأويل الأحاديث، نزاهته وحرصه على إظهار براعته، تأنيه في الأمور، صموده وترفعه عن الخطايا، صدق الحديث، أدبه. مما سبق نجد أن رؤية الملك في يوسف عليه السلام قد تبلورت واكتملت من خلال ثلاث مواقف مكملة بعضها ببعض.

الموقف الأول:

العلم: علم يوسف الذي لم يكن أحد في مصر يعرفه ألا وهو تعبير الرؤيا، فأراد الملك أن يرى هذا الذي لديه علم لم يؤتى لأحد من رعيته ليستفيد من علمه، ومن هنا نجد فضل العلماء ومكانتهم.

الموقف الثاني:

ثباته وإصراره على إظهار الحق ، وترفعه عن الشهوات والصغائر: مما يدل على قوة شخصيته، وعدالة قضيته ، وأن الأهواء ليست لها طريق إليه ، وصبره وعزيمته في مواجهة التحديات ، وأن الحق والعدل هما أساس مبادئه ، حتى وإن كان على حساب حريته ، لأن كل هذا من تعاليم ربه الذي يدين له ولا يستطيع أن يخالفه في ما أمر به .

الموقف الثالث:

أسلوبه في الحديث عندما تكلم معه الملك، فظهرت فيه صفات أخلاقية بأدبه في الحديث مع الملك وكذا سعة علمه وأفقه.

من هنا قال له الملك ﴿إِنَّكَ أَلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

وفى هذه الآية اتخذ الملك موقفين مختلفين.

الأول قبل كلامه مع يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿أَتَتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصَهِ لِنَفْسِي﴾ أي يجعله مستشاراً خاصاً به.

الثاني بعد كلامه مع يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّكَ أَلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وعلى هذا ظهر للملك صفات أخرى في يوسف تؤهله لمنصب ما.

ومن هنا قال له يوسف في الآية التالية رقم ٥٥: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ^ط إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .

وهكذا كان التمكين الثاني كما جاء في يوسف ٥٦:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ^ج نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ^ط وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

وعلينا أن نتذكر قول الله سبحانه عند التمكين الأول: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ

لَا مِرَاتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا^ج وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ^ج مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وهذا التمكين في الأرض كان نتيجة المؤامرة الأولى في التاريخ.

إعجاز تاريخي في سورة يوسف عليه السلام

وهذه الدراسة فيها نفرق بين الملك وفرعون، فعند الحديث في القرآن الكريم عن يوسف عليه السلام كان الخطاب عند الملك، في حين كان الخطاب مع موسى عليه السلام عند فرعون. وكان النص القرآني صريحاً كالآتي:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ ﴾

فمن هو هذا الملك وما اسمه؟..

اهتم حكام الدولة القديمة ببناء الأهرامات، وإقامة المعابد، ونحت التماثيل، ويطلق عليهم الفراعين، على عكس حكام الدولة الوسطى الذين اهتموا بالمشروعات التي تعود على جميع أفراد الشعب بالخير والرخاء، مثل مشروعات الري والاهتمام بالزراعة والتجارة، والنهوض بالبلاد نهضة شاملة في جميع نواحيها ويطلق عليهم الملوك.

أشهر ملوك الدولة الوسطى وإنجازاتهم

١ - الملك منتوحتب الثاني

هو مؤسس الأسرة الحادية عشرة، اتخذ موطنه "طيبة" عاصمة لمملكته، وإليه يرجع الفضل في نهضة البلاد، وإعادة الوحدة إليها، ونشر الأمن والقضاء على الفتن. لهذا قدره المصريون القدماء، وصوروه بجانب الملك مينا موحد القطرين، والملك "أحمس" قاهر الهكسوس ومؤسس الدولة الحديثة.

٢ - الملك إمنمحات الأول

كان "إمنمحات الأول" وزيراً لآخر ملوك الأسرة الحادية عشرة، ولما مات الملك دون وريث، أعلن "إمنمحات" نفسه ملكاً على مصر، وبذل جهداً كبيراً لإخضاع حكام الأقاليم لسلطانه، كما اتخذ عاصمة جديدة في موقع متوسط بين الوجهين القبلي والبحري هي "إثيت تاوى" ومعناها القابضة على الأرضين، ومكانها حالياً قرية "الشت" جنوب مدينة "العياط" بمحافظة الجيزة. قضى "إمنمحات الأول" على غارات الآسيويين والليبيين على أطراف الدلتا، ونجح في تأديب العصاة في بلاد النوبة.

٣ - الملك سنوسرت الثالث Senusret III

من أهم ملوك الأسرة الثانية عشرة، ونظراً لقدرته الإدارية والعسكرية، قاد الحملات بنفسه إلى بلاد النوبة، وأقام بها سلسلة من الحصون أهمها قلعتا "سمنة وقمنة" فيما وراء الجندل الثانى على حدود مصر الجنوبية عند "وادي حلفا"، ومدّ حدود مصر إلى ما وراء حدود آبائه، وزاد فيها، وناشد خلفاءه أن يحافظوا على تلك الحدود:

"إن من يحافظ من أبنائي على هذه الحدود التي أقمتها فإنه ابني وولدي ... وإنه لأشبهه بالابن الذي حمى أباه والذي حفظ حدود من أعقبه ...، أما الذي يهملها ولا يحارب من أجلها فليس بابني ولم يولد مني..." - من نقش للملك "سنوسرت الثالث" على أحد النصب التي أقامها في بلاد النوبة.

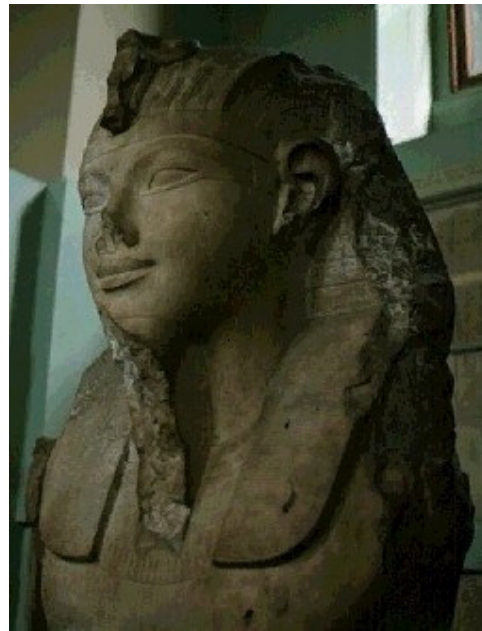
أمر الملك "سنوسرت الثالث" بحفر قناة في شرق الدلتا تصل بين أقصى فروع النيل شرقاً،



وخليج السويس، وهي أقدم اتصال مائي بين البحرين الأحمر والمتوسط، وقد سماها الإغريق "قناة سيزوستريس" نسبة إلى الملك "سنوسرت الثالث".

ومن الفوائد التي عادت على البلاد من حفر "قناة سيزوستريس" ازدياد النشاط التجاري وتوثيق الصلات التجارية بين مصر وبلاد "بونت" (الصومال الحالية)، وأيضاً ازدياد النشاط التجاري بين مصر وبلاد الشام، وجزر البحر المتوسط، مثل كريت وقبرص.

٤ - الملك إمنمحات الثالث Amenemhet III



تمثال من الجرانيت للملك "أمنمحات الثالث"، وهو معروض بالمتحف البريطاني في لندن

وجه الملك "إمنمحات الثالث" (من ملوك الأسرة الثانية عشرة) جهده للتنمية واستثمار موارد البلاد الطبيعية، وارتبط اسمه بعمله العظيم في منطقة الفيوم، إذ بنى سداً لحجز المياه عند "اللاهون" أنقذ به مساحة كبيرة من الأراضي كانت ضائعة في مياه الفيضان، وأضافها إلى المساحة المزروعة في مصر، وقد عرف هذا السد فيما بعد بـ"سد اللاهون".

كما أقام الملك "إمنمحات الثالث" مقياساً في الجنوب عند قلعة "سمنة" للتعرف على ارتفاع الفيضان، والذي كان يتم على أساسه تقدير الضرائب، وبنى هرمه الشهير عند بلدة "هواره" بالفيوم، وأقام معبداً ضخماً أطلق عليه فيما بعد "قصر التيه" لتعدد حجراته، حيث كان من الصعب على الزائر الخروج منه بعد دخوله.

كتب المؤرخ اليوناني "هيرودوت" يصف قصر التيه:

"إنه يفوق الوصف، يتكون من ١٢ بهواً، ومن ٣ آلاف غرفة، نصفها تحت الأرض، ونصفها الآخر فوقها، والغرف العليا تفوق ما أخرج الإنسان من آثار، إذ أن سقوفها كلها قد شيدت من الأحجار، ويحيط بكل بهو أعمدة مصنوعة من الأحجار البيضاء..."

عصر الاضمحلال الثاني (١٧٧٨-١٥٧٠ ق.م)

الأسرات ١٣-١٧

نهاية الدولة الوسطى

كانت نهاية الدولة الوسطى شبيهة إلى حد كبير بنهاية الدولة القديمة، فبعد وفاة الملك "إمنمحات الثالث" ضعفت قوة فرعون، وبدأ الصراع بين حكام الأقاليم، وحلت الفوضى، وعادت البلاد إلى التفكك، وسقطت البلاد فريسة في يد الأجانب، فقد دخلتها قبائل من البدو أتوا من غرب آسيا يعرفون باسم "الهكسوس" احتلوا شمالها ووسطها، وظلوا بها قرنين من الزمان.

يقول المؤرخ المصري "مانيتون" عن أسباب سقوط مصر في أيدي الهكسوس:

"إن الرعاة قد استولوا على مصر في سهولة، واجتاحوها في غير حرب، لأن المصريين كانوا يومئذ في ثورة واضطراب..."

غزو الهكسوس لمصر

من هم الهكسوس؟ الهكسوس في اللغة المصرية القديمة معناها "حكام البلاد الأجنبية"، وهم قبائل بدوية آسيوية، جاءت من فلسطين، وأسماهم المصريون الرعاة، لأنهم اغتصبوا بلادهم دون حق. تسلمت تلك القبائل إلى شرق الدلتا، واستقرت في مدينة "أواريس" ("سان الحجر")

قرب مدينة الزقازيق الآن) واتخذتها عاصمة، وواصلت زحفها جنوباً حتى احتلت مدينة "منف"، ومصر الوسطى. وفي الوقت نفسه سيطر النوبيون على الجزء الجنوبي من البلاد، ولم يبق مستقلاً سوى جزء يحكمه أمراء طيبة.



العربة التي أدخلها الهكسوس في مصر واستخدمت كسلاح مركبات في الحرب.

ومن الأسباب التي ساعدت الهكسوس على احتلال مصر بسهولة:

اضطراب الأحوال في مصر بسبب الفوضى وضعف الحكام، وتفوق الهكسوس نتيجة كثرتهم العددية، ومهارتهم في فنون القتال، فقد كانوا يستخدمون الخيول والعجلات الحربية التي تجرها الخيول، والسيوف والأقواس البعيدة المدى، وهي أسلحة لم يعرفها المصريون من قبل.

موقف الهكسوس من المصريين وموقف المصريين منهم

أساء الهكسوس معاملة المصريين، فأحرقوا المدن والقرى، بغير رحمة، وهدموا المعابد، وذبحوا بعض السكان، واجبروا المصريين على دفع ضرائب جديدة، وشيدوا القلاع والحصون.

وبمرور الزمن، تأثر الهكسوس بالحضارة المصرية، فتمصروا وقلدوا الفراعنة في أسمائهم وأزيائهم وتقاليدهم، وتكلموا اللغة المصرية، واعتنقوا ديانة المصريين.



الملك "أحمس الأول" مؤسس الأسرة ١٨ (بداية عصر الدولة الحديثة).

فراعين مصر

ربما أعتقد أن لقب (فرعون) بلغة مصر القديمة قد نُعت به جميع ملوك مصر منذ القدم، إذ قد يفهم من الآية الكريمة ص/١٢:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾.

أن فرعون ذي الأوتاد قديم قدم عاد وشمود ، والأوتاد هي الأهرام، وبذلك فالفرعون بالآية سابق لعصر الهكسوس، وليس هو نفس الفرعون المعاصر ليوسف عليه السلام. ولما لم يُشر القرآن، في قصة يوسف عليه السلام إلى لقب فرعون:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ۖ أَسْتَحْلِصُهُ لِنَفْسِي ۚ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا

مَكِينٌ أُمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾. يوسف / ٥٤.

وقد يُعَلَّل ذلك أن يوسف عليه السلام كان معاصراً لملك أجنبي (من الهكسوس) ، وأنه لا يحقّ التسمي بالفرعون إلا لملك محلي أما بعد طرد الأجانب، فقد جازت التسمية، حتى إذا أتى عصر موسى عليه السلام، كان ملك مصر محلياً يُخاطب بالفرعون كسابقه في القصص/٣:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

وهذا هو تفسير المغفور له فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي.

ولكن هذا التفسير لا تؤيده نقوش مصر، والأرجح أن كلمة فرعون بالقرآن لا يقصد بها سوى الفرعون المعاصر للنبي موسى عليه السلام، ووصفه بذئ الأوتاد ليس للأهرامات فحسب، ولكن لكثرة صروحه ومنشآته وعمائره وتمائيله الجبلية، لتعبده الناس.

وهو بعينه [رع موسى الثاني، (١٢٩٠/١٢٧٩ - ١٢٢٤/١٢١٣ ق.م) ويكتب اسمه بالنقوش: **رع مس س**]، أشهر الفراعنة وأكبر بناء، إذ سطا على آثار سابقه أو استخدمها لبنى صروحه وتماثيله هو، ولا يكاد يوجد أثر عمراني لمصر القديمة، سواء بناه أو اغتصبه، إلا وحفر عليه اسمه بعمق كي لا يُمحى.

وقد سجل ابنه من بعده (بين سني حكمه: ٢-٥) أنه دحر إسرائيل ولم يبق منهم بذرة، وبعيداً عن مصداقية الخبر، فإن النقش يُرجّح أن رع موسى الثاني هو الفرعون الغريق (لأن إسرائيل حسب النقش لم تعد بمصر، وتسكن نواحي فلسطين).

وعصر يوسف عليه السلام، الذي لعله في زمن الأسرة ١٢ (١٩٩١-١٧٨٦ ق.م)، هو سابق لعصر ملوك الهكسوس (بداية حكمهم في أقدم تقدير ١٧٢٠ ق.م).

لمؤشرات عدة منها:

١- معلوم أن يوسف عليه السلام قد وصل إلى عرش مصر، وعصره لا يبعد عن عصر أبيه خليل الله الذي قدر المؤرخون أحدثه بحوالي ١٨٠٠-١٨٥٠ ق.م، (وأرجعه البعض إلى ما قبل ٢٠٠٠ ق.م)، بينما حكم الهكسوس لمصر لم يبدأ في أقدم تقدير له، إلا في حوالي ١٧٢٠ ق.م، وهذا قد لا يُرجّح تلاقي العصرين.

٢- نجد من ملوك الهكسوس (الأسرة الملكية ١٥، حكمهم: ١٦٧٤-١٥٦٧ ق.م):

يعقوب هر، وتابعيهم من (الأسرة المعاصرة ١٦، حكمهم ١٦٨٤-١٥٦٧ ق.م):

يعقوب بل، ويعقب عم (Yak bam).

كما [وردت أسماء أمكنة من عهدهم مثل (يوسف إيل)]، مما قد يفيد التأثير والانتماء للأصل الأسبق (يعقوب ويوسف عليهما السلام). كتاب (العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة).

٣- قد نفهم من القرآن صعوبة الدخول لمصر في عهد يعقوب عليه السلام:

﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ^ط﴾

يوسف/٦٧.

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ^ج وَاللَّهُ

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يوسف/٢١.

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ^ج نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ

دَشَاءُ ^ط وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ يوسف/٥٦.

وفي يوسف/ ٩٩: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ﴿١١﴾.

وقد أمر منتوحتب ٣ (من الأسرة ١١: ٢١٣٣-١٩٩١ ق.م) ولعل قبله خيتي ٣ (من الأسرة ١٠: ٢١٣٠-٢٠٤٠ ق.م)، بالمبادرة في إقامة تحصينات حدود مصر الشرقية، ومعروف تاريخياً أن مصر في عهد الأسرة ١٢، قد شددت وعززت القلاع والتحصينات والنقاط لمراقبة وحراسة حدودها الشرقية كما لم يسبق من قبل.

وقد بنى مؤسس الأسرة، حائط الأمير الشهير، أو جدّد بنائه، لتعزيز ذلك.

ومن كتاب (هبة النيل، ايندلامونت ميدوكروفت):

[إنمحات (مؤسس الأسرة ١٢) بنى سوراً مرتفعاً في شرق البلاد أمام طريق القوافل ووضع حراساً عليه يراقبون من أعلى السور كل ما يحدث في الناحية الأخرى وبذلك تعذر على أي متجول أن يدخل مصر أو حتى يطلب ماء لتشرب منه ماشيته].

وهذا مما قد يُرجّح أن يعقوب عليه السلام في تلك الفترة، وأنه ربما عنى تلك الأبواب (التحصينات ونقاط المراقبة العديدة لمنافذ شرق مصر).

٤- كان مؤسس الأسرة (١٢) قد اغتيل من جراء مؤامرة باغته في القصر، نفّذها حرسه وخدمه، وقد قام ابنه من بعده بإعدام المتآمرين، ولعل في الآيات الكريمة إشارة إلى ذلك:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ يوسف/ ٣٦.

﴿يَصْحَبِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ

فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ﴿١٣﴾ يوسف/ ٤١.

ولفظ فتى، قد يدل على العبيد والمماليك، ففعل الفتيتين من خدم القصر ممن اتهموا بقتل الملك، وقد علمنا أن أحدهما ساقى الملك، وقد عفا الملك الجديد عن سنوحي، أشهر الفارين، بعد أن قضى عمره في البدو، ولم يعد لمصر إلا في شيخوخته. ومن كتاب (موسوعة الفراعنة)، أنه خلال عصر الأسرة ١٢، وفي الفترة الثانية من حكم سنوسرت ٢: ١٨٩٧-١٨٧٨ ق.م،

ورد ذكر (مكتب توزيع القوى البشرية ومكتب الخدمات الخاصة بالسجون، وكانا يختصان بإدارة شئون المساجين) .

٤- مع انهيار الأسرة التالية (١٣)، انهارت تحصينات منافذ الحدود الشرقية (وهي أساساً لمنع العامو) أو أهملت، ودخل الأجانب (العامو) من شرق مصر أفواجا، وقد استطاع آسيوي اسمه (خنجر) أن يملك مصر، خلال الأسرة ١٣، وعند نهاية هذه الأسرة (١٣)، أصبح غالب شرق الدلتا من الآسيويين (العامو)، وكذلك الأسر التالية (١٤، ١٥، ١٦) تكاد تكون من العامو (الهكسوس) أو خاضعة لملوكهم، حتى سُميت الدلتا بأرض العامو.

بينما قد يُفهم من سورة يوسف أن السيطرة والرقابة المصرية في عصر يوسف عليه السلام على طرق التجارة ومنافذها الشرقية ما زالت محكمة قوية منتظمة، وهذا يُرجّح أن زمن يوسف سابق لتلك الأوضاع.

٥- استمرت المجاعات منذ انهيار الدولة القديمة حتى بدايات الأسرة ١٢، وقد نقش أحد النبلاء في عهد الملك سنوسرت ١، خبر المجاعة.

ومن كتاب (المصريون، سايرل الدرد):

[في القرن ٢٠ ق.م، بدأ كل أمير يعزل مقاطعته من البقية الجائعة، وعلى المسلات ظهر تفاخر الأمراء بإبقائهم رجالهم ومحاصيلهم وقطعانهم على قيد الحياة].

ثم امتاز عصر المملكة الوسطى (خاصة الأسرة ١٢) بالرخاء الاقتصادي الذي لم يسبق له مثيل في مصر حيث اهتم الملوك بشئون الزراعة والري فنظموا مياه النيل وأقاموا المقاييس عليه واعتنوا بالمشروعات الزراعية، ويوسف عليه السلام له اليد الطولى أو الريادة في إنقاذ مصر من المجاعة، وفي إصلاح اقتصادها:

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ يوسف/٥٥.

وهذا يُرجّح أن دخول آل يعقوب مصر خلال عصر هذه الأسرة (١٢)، وليس بعدها.

— من كتاب (العملة وتاريخها، حسن محمود الشافعي):

[في مصر .. تتم عن طريق مقايضة السلع واتخذت القمح مقياساً للقيم وأداة للمبادلة إلى أن انتشرت المقايضات بالمعادن بأشكالها المختلفة في عهد الملك أمنمحات ٣ كما ذكر البعض (الأسرة ١٢، حكمه: ١٨٤١-١٧٩٢) ق.م، وكانت على شكل حلقات نحاسية وفضية وذهبية ذات أوزان معلومة مقدرة]، وقد تُشير لذلك الآية الكريمة:

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ نَخَسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ يوسف/٢٠.

حيث الدراهم قد تكون تلك العملات المصرية المعدنية (القطع الفضية) التي بدئ في استعمالها أثناء عصر هذه الأسرة (١٢)، فلعل عصر يوسف عليه السلام عموماً في زمن هذه الأسرة.

— من كتاب (العلاقات الحضارية في الوطن العربي خلال الألف الثاني ق.م، د.سليمان سعدون البدر، د.عز الدين إسماعيل):

[يتبين من المصادر المصرية والفلسطينية وبخاصة المناظر والصور للدولة الوسطى أن النشاط الاقتصادي بين فلسطين ومصر لم يقتصر على تبادل العديد من السلع والمنتجات بل شمل أيضاً جلب الماشية من فلسطين لمصر ثم توقف كل نشاط تجاري وخارجي بين فلسطين ومصر بسبب الهكسوس].

بينما نعلم أنه في ولاية يوسف كانت العلاقات التجارية قائمة منتظمة، مما يؤيد أن عصر يوسف سابق لعصر ملوك الهكسوس.

— الإقطاع والتفكك كان قد بدأ منذ أواخر الأسرة ٥ (انتهت حوالي ٢٣٤٥ ق.م)، حيث ظهرت عائلات قوية توارثت الوزارات والمناصب الكبرى، وفي الأسرة ٦ كانت قد ضاعت هيبة الملك وقيل أن مؤسسها اغتاله الحرس، وبانتهاء الأسرة (٦) عمّت الفوضى، وتصرف في البلاد حكام المدائن، وأصبح حكام الأسر التالية (٧، ٨) ملوك ظلّ (يملكون ولا يحكمون)، وانتشرت المجاعات وتكاثر الأجانب، وحاول الأمراء الهراقلة (الأسر: ٩، ١٠) أن يملكوا البلاد، وحاولوا ومن بعدهم طرد (العامو) الذين اخترقوا الدلتا، ولكن انشطرت البلاد، ليوحدها مؤسس الأسرة ١١، وبعد موته حاقت المجاعات والكوارث بالبلاد، واستمرت سلطة أمراء الأقاليم الوراثةيين عظيمة حتى منتصف عصر الأسرة ١٢ (أرشد وأقدر أسرة في تاريخ مصر القديمة)، التي استطاعت مصانعتهم ومراضاتهم، حتى دانوا بالتبعية، وبعضهم ظل قوياً حتى ١٨٧٨ ق.م، وأخيراً في عهد أمنمحات ٣ (١٨٤٢-١٧٩٧ ق.م) عادت هيبة الملك، وحلّ مكان النبلاء الإقطاعيين عمد محليون تسمّوا بألقابهم، وغدت المدن خلال الأسرة ١٢ تحت إدارة مدير (عز مر) أي حاكم إداري، ولعل لفظ العزيز بالقرآن يدل عليه، سواء حكام الأقاليم (النبلاء) أو المدراء الإداريين للمدن.

وتدهور الوضع ثانية في الأسرة التالية (١٣) وسيطر الوزراء والحكام المحليون، وظهر ملوك الهكسوس (الأسرة ١٥) شمالاً، معاصرين أكثر من أسرة على حكم البلاد، فاعتبروا الأسرة ١٣ بالجنوب مجرد أمراء، وتأمّروا على أمراء الأسر ١٤، ١٦، إلى أن بدأت الأسرة ١٧ (جنوب مصر) في منازعتهم ثم مقاتلتهم.

فيترجّح مما سبق من مؤشرات أن يوسف عليه السلام كان معاصراً للأسرة المصرية الثانية عشرة، وسابقاً لعصر الهكسوس.

وتسمي أحد الملوك بالفرعون في مثل تلك الفترة المتشاكسة، يُعدّ أمراً مستحيلاً.
والهكسوس قد تلقبوا في نقوشهم بالألقاب الملكية المصرية، مما يضعف إعراضهم عن التلقب بالفرعون إن جاز لغيرهم.

ولعل ملوك الهكسوس من ذرية آل يعقوب، وقد علمنا تمكين الله ليوسف بمصر:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف/ ١٠١].

﴿ وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ ۚ إِنَّ نَزْعَ الشَّيْطَانِ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف/ ١٠٠].

ولعل في هذه الآية الكريمة، إشارة لملك بني إسرائيل على مصر:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة/ ٢٠].

وسبب عدم تسمية القرآن لملك مصر زمن يوسف بالفرعون، ليس لأنه من الأجانب، ولكن لأن كل ملوك مصر حتى ذلك الحين لم يسبق أن خوطب أحدهم بالفرعون، كما تنص وتسرد النقوش والوثائق المصرية.

بل أن عصر يوسف بالذات، وما قبله وبعده (كما تقدّم بيانه) لا يمكن لملوك مصر فيه أن يتسموا بالفراعنة لقداسة اللقب بالنسبة لدينهم، فمنذ انهيار الدولة القديمة أو الأسرة السادسة، تملك البلاد أمراء شتى متناحرون، مما ألغى شخصية الملك أو أضاع هيبتها، بالإضافة للقطط الطويل والشديد بسبب انخفاضات النيل المتكررة في تلك الحقبة، وانتشار الفوضى وغيره من الظروف التي لم تضبط أو تكبح إلا عبر الأسرة ١٢، وأن يُلقب ملك بالفرعون في مثل تلك الأحوال المتنازعة، هو أمر أقرب للخيال منه للحقيقة.

وقد تعرّث كتبة اليهود والنصارى بسبب جهلهم لهذه الحقائق، فحرقوا كتب الله الأولى، إذ نعتوا جميع ملوك مصر بالفراعنة، فمثلاً جعلوا ملك مصر بعهد إبراهيم فرعوناً، مثل:

تكوين/١٢: وَلَمَّا اقْتَرَبَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ.. رُؤْسَاءُ فِرْعَوْنَ.. إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، فَأَحْسَنَ إِلَى
أَبْرَامَ.. الرَّبُّ ابْتَلَى فِرْعَوْنَ... فَاسْتَدْعَى فِرْعَوْنَ أَبْرَامَ.. وَأَوْصَى فِرْعَوْنَ رِجَالَهُ بِأَبْرَامَ،..
[١٤-٢٠]. ومثله بعهد يوسف، تكوين ٤١: ٤٤ فَبَعَثَ فِرْعَوْنُ وَاسْتَدْعَى يُوسُفَ، .. وَمَثَلَ أَمَامَ
فِرْعَوْنَ. ١٥ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: .. فَأَجَابَ يُوسُفُ: ١٧ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ ..

وعندما أتى موسى عليه السلام كان الملك المصري قد أصبح يُخاطب بالفرعون (بر-ع) أي
(البيت العالي)، وتفصيله: (بر/فر = براء=بيت) — عا (عال/عظيم).

وقد حدث ذلك قبل عصر موسى عليه السلام بحوالي المائتي سنة أو يزيد.

والذي سنّ ذلك قيل هو إخناتون Thumosis IV (١٣٥٢-١٣٣٨) ق.م، وقيل سلفه الملك
تحوت موسى III Tuthmosis فاتح الشام (تحتمس ٣: ١٤٧٩ - ١٤٢٥) ق.م، كما استدل
علماء الآثار من النقوش المصرية.

١— وتقول الموسوعة البريطانية أن لقب فرعون (البيت العظيم) استعمل كمرادف لملك مصر
بالمملكة الحديثة، منذ الأسرة ١٨ (١٥٣٩ ق.م - ١٢٩٢) ق.م .
وعند الأسرة ٢٢ (٩٤٥-٧٣٠) ق.م كان قد أُقِرَّ كصفة احترام:

Pharaoh: (from Egyptian per 'aa, "great house"), originally, the royal
palace in ancient Egypt; the word came to be used as a synonym for the
Egyptian king under the New Kingdom (starting in the 18th dynasty,
1539-1292 BC), and by the 22nd dynasty (c. 945-c. 730 BC) it had been
adopted as an epithet of respect.ENCYCLOPIDIA BRITANNICA.

٢— وتقول موسوعة الشرق أن لقب فرعون بدأ استعماله للملك في الفترة (١٤٠٠ - ٩٠٠)
ق.م:

The term "pharaoh" was originally used for the place where the king
resided, and is the be translated with "great house". Gradually the term
came to be used for the king, probably this happened somewhere between
1400- 900 BC. ENCYCLOPIDIA of the Orient

٣— ومن كتاب [Western World A Brief History of the] ص ٢٦، يقول
مؤلفه (Greer.H Thomas):

The king later called the pharaoh, a term that meant: Great House.

٤— وتقول موسوعة Encarta: يُرجع بعض المؤرخين تاريخ الإشارة للملك بلقب الفرعون
منذ ١٤٠٠ ق.م، (قبيل عهد رعموسى ٢) والبعض الآخر منذ ٩٥٠ ق.م.

٥- وجاء في مؤلف جاردنر ،النحو المصري (ص ٧٥) ما مفاده:
 [أنه منذ نهاية الأسرة ١٢ ، الاصطلاح كتب بر-ع ،ويقرأ [بر- ع : (عنخ، وسأ ،سنب)]، أي
 البيت العظيم: له الحياة والازدهار والصحة ،وظلّ دالاً على القصر .
 وأول إشارة مؤكدة فيها لفظة (بر-ع) تدل على الملك كانت في رسالة إلى أمنحتب ٤
 (أخناتون)، موجهة نحو: [بر-ع، (عنخ وسأ سنب)،نب (=الرب)].
 ومنذ الأسرة ١٩، استعمل لفظ (فرعون) أحياناً كنفس استعمال (سموّه)، حيث نقرأ الفرعون
 فعل، الفرعون قال،..وأصبح الاصطلاح لقب احترام للملك، وأقدم إشارة دُمج فيها لفظ فرعون
 مع اسم الملك كان في عهد الأسرة ٢٢].
 وهذا يفيد التطور التدريجي وأنه لابد قد سبق مخاطبة الملوك به.

As regards the term Pharaoh the facts are as follows .The Egyptian original pr aa (Great House) was used in the Old Kingdom as part of many phrases like (smr pr aa) = (courtier of the Great House) and clearly there referred to te palace itself or to the court and not to the person of the king .From the end of Dyn.XII onwards the term is written (pr aa ankh wda snb)= [Great House, may it (live ,prosper, be in health= l.p.h)] with the auspicious wish-formula ,but still it seems to mean only the palace. The earliest certain instance where (pr aa) refers actually to the king is in a letter to Amenophis IV (Akhenaten) ,which is addressed to (pr aa ankh wda snb, nb) = Pharaoh ,l.p.h. the Master. From Dyn.XIX onward it is used occasionally just as (His Majesty) might be used; we read Pharaoh went forth, Pharaoh said, etc.In other words the term has become a respectful designation for the king. Just as the head of the Ottoman government was termed the Sublime Porte .The final development was when a proper name was added to the title... The earliest Egyptian Example of this use is under one of the Shoshenks of Dyn.XXII.

٦- ويقول كولندر أن لفظ (فرعون) قد اتخذهُ ملوك المملكة الحديثة، للتعبير عن تلك الأشياء المتعلقة بالملك:

The palace was the headquarters for this bureaucracy of the king's, and it was called the per aa, or "Great House". From this word for the king's palace has come the word pharaoh, which is used by New Kingdom rulers to express those things relating to the king. Role of the Pharaoh in New Kingdom Egypt.Dr. V.G. Callender

٧- بر- عو البيت الكبير..أي كانت تشير للقصر الملكي ثم حدث خلال عصر تحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٢٥) ق.م (صار فرعوناً في ١٤٥٧ ق.م) أن الاصطلاح بدئ في إطلاقه على الملك نفسه.

وبالنسبة لأي ملك قبل أسرة ١٨، فإن استخدامنا للاصطلاح يعد بمثابة خطأ في تسلسل تواريخ الأحداث. (كتاب مصر الفراعنة، سير آلن جاردنر).

وقد جاء اللقب بصيغة (فرعه) في نقش أرامي أرسله أمير فينيقي أو فلسطيني لملك مصر، عثر عليه بمصر في سقارة (منف) مؤرخ بين عامي (٦٠٥-٦٠٠) ق.م، يقول: [إلى مريء ملوك (فرعه) ...، ص ١٦٨، (الكتابة من أقلام الساميين إلى الخط العربي - د.سيد فرج راشد)].

وبالمسند ألفاظ شبيهة: ٥٧٤: فرغ (=فارغ؟) يذهب ملك سبأ. جام ٦٠٣ : فرغ بن مقرر (=فارغ بن مقرر). جام ٧١٢: أشمس وأبشمر ومرثدأوم ويفرع أتنعن بنو برق. جام ٧٤٧: ريمن يردف وبنهو بنو يهفرع أغيمن، ويحتمل أن تكون لفظة (فرعون: أصلها المصري=بر عا/بر عو) لغة في البراء، أبرهه، برعي، برح، فارع (أي من جذر: برأ)، وقد يكون أصل كلمة فرعون (فر=ال) من أصل أعيان (كبراء).

فالملك المصري بدأ ممثل عن السلطة الدينية وعن الآلهة (نائب، رسول، ابن) ثم أصبح في الدولة الحديثة هو السلطة الدينية وهو الآلهة، وقد بدأ ذلك منذ عهد والد أخناتون ثم ابنه، وبلغ ذروته لدى رموسى الثاني، وهذا الأمر قد يفسر بوضوح سبب تلقب ملوك الدولة الحديثة بالفراعنة :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ﴿٢٩﴾

غافر/٢٩.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَمُنْ

عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ

الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ القصص/٣٨.

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ﴿٤﴾ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ

رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ ﴿٦﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ ﴿٢﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ ﴿٦﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ ﴿٢٢﴾

فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ ﴿٢٤﴾ النازعات/١٧ - ٢٤.

وادعاء ملوك مصر في الدولة الحديثة ، من وافقهم من المؤرخين، أن الهكسوس (ومنهم بني إسرائيل) أجانب غير شرعيين، قد لا يقره القرآن، فالأرض لله يورثها لمن يشاء، وقد مكّن الله ليوسف عليه السلام بمصر، ووصل للعرش بطريقة شرعية وباختيار الملك وتعيينه، وآل

يعقوب وفدوا مصر واستوطنوها بإذن الملك وبإذن عزيز مصر النبي يوسف ،وكذلك قد نفهم من آي القرآن الكريم أن قوم موسى عليه السلام من أهل مصر:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص/٤.

فالفرعون قد جعل أهل الأرض (مصر) شيعاً، ثم استضعف طائفة (بنو إسرائيل) منهم (أي من أهل مصر).

وهامان نائب فرعون، لا بد من ذكره، لعلاقته الوثيقة به، ولعله من تتحدث عنه هذه الآثار التي أوردها كتاب Kitchen ، ونسخته العربية (رمسيس الثاني ،فرعون المجد والانتصار،ترجمة د.أحمد زهير أمين):

ص ٥٥: كان الشاب آمن (=هامن/هامان) ؟ ام اينت em inet Amen في مثل سن الأمير (=رمسيس ٢) ورفيق صباه ،فلما أصبح رمسيس نائباً للملك ووريثاً للعرش أصبح الفتى بالتبعية رفيقه وتابعه ففتح له الطريق لمستقبل زاهر وهي ما تحقق فعلاً. وكان لآمن ام اينت em inet Amen أقارب ذوو نفوذ منهم عمه [لعله منموسى، Minmose] كبير كهنة الإله مين والإلهة ايزيس بقط (شمال طيبة) وقائد Commandant فيالق النوبة -أي الساعد الأيمن لنائب الملك في النوبة. ومنهم الفتى باكن خنسو [والده باسر وزير الجنوب وابن عم آمن ام اينت em inet Amen، ص ٢٤٢] مدرب الخيول الملكية الذي التحق بعد ذلك بالسلك الكهنوتي المستديم في خدمة آمون بطيبة [أصبح كبير كهنة آمون، ص ٢٤٢].

ص ٧٣: رقى الملك رفيق طفولته آمن ام اينت em inet Amen إلى وظيفة قائد المركبات الملكية Royal Charioteer وناظر للخيول Super Intendent of Horse .

﴿ وَنُمَكِّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

تَحْذَرُونَ ﴾ القصص/٦٠

ص ٩٧: آمن ام اينت em inet Amen رفيق الفرعون القديم قد رقى إلى منصب رسول الملك لكل البلاد الأجنبية ويقول الرجل بهذه المناسبة موضحاً طبيعة عمله الجديد : أرفع له (الفرعون) تقارير عن أحوال البلاد الأجنبية كلها.

[ص ١٩٩: وكانت أرقى وظائف الدولة هي وظيفة السفير (رسول الملك إلى كل البلاد الأجنبية) وكانت الترقية إليها قاصرة على كبار ضباط سلاح العربات الحربية].

ص ١٧٩: واختار الملك للمنصب [كبير كهنة آمون] الشاغر ون نفر Wennofer (مات سنة ٢٧) وهو والد رفيق طفولة رمسيس الثاني آمن ام اينت . وكان آمن ام اينت نفسه قد نقل من وظيفته العسكرية إلى الرمسيوم ليصبح مديراً لمشاريع الملك الأثرية هناك Chief of Works of All Royal Monument - ولا يزيد البعد بينه وبين أبيه كبير الكهنة بالكرنك عن عبور النهر إلى الضفة الأخرى من النيل .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُ

عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنْ

الْكَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ القصص/٣٨.

(ذكر كتاب Ancient Egypt An Introduction to ، أن أقدم استعمال للطين الموقود بمصر كان معروفاً منذ الدولة الوسطى).

ص ١٩٢: ويرجع الفضل في صعود نجم باسر [paser ، وزير للجنوب بطيبة viceroy ، عم باسر كان قائد الفرق بالنوبة وبعده ابنه نخت مين (ابن عم باسر)] واختياره نائباً للملك (في النوبة) إلى عراقة أسرته، فابن عمه آمن ام اينت هو رفيق طفولة رمسيس الثاني .

ص ١٩٩: وكان من علية القوم من اتخذ من الخدمة العسكرية ذريعة للوثوب إلى الوظائف المدنية العليا ، وقد تعرفنا من هؤلاء على ..، وآمن ام اينت القائد بسلاح المركبات ثم ميليشيات المدجاي Chief of Medjay-Militia ، بعدها عين مديراً للمصانع (وزير صناعة) .

ص ٢٤٠: أمنتب.. لكنه كان ينتمي لأسرة ذات نفوذ هي أسرة آمن ام اينت قائد ميليشيات المدجاي الشهيرة.

ص ٢٤٢: حيث يحتل مين مس آخر منصب كبير كهنة مين وآيزيس والذي يمت هو الآخر بصلة قرابة إلى آمن ام اينت .

والسؤال الآن:

سيدي يا رسول الله من أنبأك هذا؟؟؟....

الفصل الخامس

الهجرة النبوية الشريفة

المؤامرة

قام أبناء يعقوب بعقد اجتماع سري، بعيدا عن المعنيين بالأمر (يعقوب ويوسف وأخيه).

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَحْنُ عَصْبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴾

١ — كانت المشكلة مدار البحث حب أبيهم ليوسف وأخيه، والدافع هو الحسد وحب التملك.

٢ — كان هناك إقرار بالإجماع، أن أبيهم يعقوب نبي الله ضالّ، وضلاله واضح لا لبس فيه.

٣ — كانوا يؤمنون بالقوة المتحصلة من الكثرة (فهم عشرة أشقاء كبار مقابل اثنان صغار) .

٤ — جمعهم وحدة الغاية والمصلحة .

﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ آطَرُّهُ أَرْضًا تَحُلُّ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا

صَالِحِينَ ﴾ ثم التوبة قبل المعصية :كيف؟ ، ولذلك قالوا: نتوب ونكون من بعده

قوما صالحين، ولكن المسألة المهمة هنا هي أن الحديث عن التوبة قبل الجريمة — في الواقع — هو لأجل خداع الوجدان وإغرائه وفتح الباب للدخول إلى الذنب، فلا يعد دليلا على الندم أبدا.

وبتعبير آخر:

إن التوبة الواقعية هي التي توجد بعد الذنب حالة من الندم والخجل للإنسان، وأما الكلام في التوبة قبل الذنب فليس توبة.

وتوضيح ذلك أن الإنسان حين يواجه الضمير والوجدان عند الإقدام على الذنب ، أو حين يكون الاعتقاد الديني سدا وحاجزا أمامه يمنعه عن الذنب وهو مصمم عليه ، فمن أجل أن يجتاز حاجز الوجدان أو الشرع ببسر، يقوم الشخص بخداع نفسه وضميره كيف؟.

تراه يقول لنفسه لن أقف مكتوف اليدين بعد الذنب ، بل سأتوب وامضي إلى بيت الله وأؤدي الأعمال الصالحة ، وسأغسل جميع آثار الذنوب .

أي انه في الوقت الذي يرسم الخطة الشيطانية للإقدام على الذنب ، يرسم خطة شيطانية أخرى لمخادعة الضمير والوجدان ... وللاعتداء على عقيدته بحيث تمكنه من تحقيق الجناية والذنب وكسر الحاجز الديني الذي يقف أمامه، إن إخوة يوسف دخلوا من هذا الطريق أيضا.

المسألة الدقيقة الأخرى في هذه الآية :

أنهم قالوا: ﴿تَخَلُّ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ ولم يقولون : يخل لكم **قلب** أبيكم ، وذلك لأنهم لم يطمئنوا إلى أن أباهم سوف ينسى يوسف بهذه السرعة ... فيكفي أن يتوجه إليهم أبوههم، ولو ظاهرا وهناك احتمال آخر لهذا التعبير، وهو أن الوجه والعينين نافذتان إلى القلب، فمتى ما خلا الوجه لهم فان القلب سيخلو ويتوجه إليهم بالتدريج.

ولكن كان من بين الإخوة من هو أكثر ذكاء وارق عاطفة ووجدانا، لأنه لم يرض بقتل يوسف أو إرساله إلى البقاع البعيدة التي يخشى عليه من الهلاك فيها ... فاقترح عليهم اقتراحا ثالثا، وهو أن يلقي في البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمر قافلة فتأخذه معها، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث تقول الآية في هذا الصدد قَالَ ﴿ قَالِ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾...

الطرح الأول كان القتل أي حتمية الهلاك.

الطرح الثاني كان النفي إلى أرض بعيدة مع احتمالية الهلاك.

الطرح الثالث الإلقاء في الجب وفيه تخفيف الضرر مع احتمال النجاة.

كانت الغاية الاستفراد بحبّ أبيهم .

٥ — الإقرار بعدم مشروعية عملهم وفساده ، وذلك قبل شروعهم بالتنفيذ .

٦ — تبييت نية بالتوبة والصلاح، قبل ارتكاب الجريمة، وهذا منطق أعوج لا يقبله ربّ ولا عبد.

٧ — إغفالهم للعناية الإلهية المدخرة في علم الغيب ، والتي تتدخل في الوقت المناسب لتسيير الأمور .

﴿ قَالَ قَالِ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ

إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾... كان أصلحهم فاسدا، حيث وافقهم على فعل المنكر مع تخفيف الضرر.

٨— كان هناك إصرار لدى الأغلبية .

٩— كان القرار النهائي أخف الضرر: إلقاء يوسف في بئر مع توافر احتمالية الهلاك، فيما لو لم يلتقطه أحد.

١٠— عدم الاكتراث بنبوة أبيهم، وما كان ينتزل عليه من الوحي.

١١— غفلة وعمى بصر وبصيرة وإتباع للهوى ، فليس فيهم ذو رأي سديد.

١٢— جهل بعواقب الأمور ، كالأثر النفسي والمعنوي البالغ ، على من يطمحون بالاستفراد بحبه ، وبالتالي عدم تحقق مرادهم .

١٣— تبييت النية للقيام بالفعل عندما تحين الفرصة ١١ — ١٥:

﴿ قَالُوا يَتَابَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾
أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي
أَنْ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾
قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا
بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ تَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ
هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ۝ ﴾

— لم يكن يعقوب في العادة يأمنهم على يوسف وأخوه لمعرفته بعدم صلاحهم .

— لم ينتظروا الفرصة للتنفيذ، بل سعوا إلى خلقها وإيجادها، باستخدام الحيلة والمكر والدهاء.

— تجاهلوا تأكيد أبيهم لهم بأن غيبة يوسف عن وجهه، ولو لفترة بسيطة تسبب له الحزن. فكيف إذا كان ذلك أبديا؟! وكانت تلك محاولة منه عليه السلام لإحياء ضمائرهم لعالمهم يرجعون ، ولكنهم لم يشعروا بذلك فكان كما أخبره سبحانه .

— كان أبوهم عليه السلام على علم بمخطّطهم قبل التنفيذ، وقد أخبرهم بما كانوا قد خطّطوه مسبقا بشأن الذئب، لكن ذلك لم يُثْنِهم عن عزمهم.

قرار التنفيذ اتخذ بالإجماع .

١- تم إخفاء النوايا الإجرامية اتجاه يوسف، تحت غطاء من الحرص على ترفيهه، لإقناع أبيهم بالاستجابة لمطلبهم. ١٦ - ١٨ :

﴿ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٩﴾ .

٢- الاستخفاف بأبيهم واستضعافه لكبر سنّه .

٣- التضليل واختلاق وفبركة الشواهد والأدلة، لتبرئة أنفسهم وإدانة الذئب.

٤- الجراءة في الكذب على نبيّ الله مع علمهم بذلك .

٥- يقين يعقوب عليه السلام من كذبهم وتجنّيبهم على الذئب .

٦- ومما أحرزته عليه السلام هو ما كان عليه أبناءه من قلة إيمانهم ، وعقوقهم له ، وظلم لأخيه ، وفسادهم وإفسادهم ، وصفات وطبائع غاية في السوء ، لا تليق بالأنبياء أو بأبناء أنبياء يتنزّل الوحي بين ظهرانيهم ، وفي المقابل لم يملك عليه السلام إلا الصبر والرجاء وطلب العون من الله لمجابهتهم يوسف ٦٩: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

يوسف ٧٧: ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٢٠﴾ .

٧- بعد أن مرّت سنين على تلك الحادثة ، وأصبح يوسف وزيرا لمالية فرعون ، وقدم أخوته إليه في مصر ، احتال عليهم ليأمن منهم على أخيه ، ويرفع عنه ما كان قد وقع عليه من ظلم وكيد .

- ٨ — كان يوسف عليه السلام على علم، بما كانوا يكيدون لأخيه، عن طريق الوحي أو القياس.
- ٩ — عدم توبتهم عما فعلوه سابقا، وبقائهم على نفس الحال.
- ١٠ — خيانة يوسف بالغيب بعد كل هذه السنين، واتهامه زورا وبهتانا بالسرقة، فيوسف من عباد الله المخلصين، وما كان له أن يسرق.
- ١١ — تأكيد يوسف على فسادهم وإفسادهم بما حدث به نفسه، حيث لم يجهر نبي الله بقوله أنهم أسوء حالا ممن يسرق ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾ فما فعلوه معه لا يُقَارَنُ بخطيئة السرقة التي اتهموه بها ، والتي أقرّوا بأنها أحد أشكال الإفساد في الأرض ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ .
- ١٢ — عدم اكترائهم بسوء حال يعقوب عليه السلام، ومدى ما نزل به من أذى نفسي وجسدي حتى أنه كف بصره: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .
- ١٣ — قسوة قلوبهم باستنكارهم حزن أبيهم على يوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوْا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ .
- ١٤ — يعقوب عليه السلام يقطع الرجاء من أبنائه ، ويشكو قسوة أبنائه وضعفه وقلة حيلته في مواجهة أفعالهم إلى الله ٨٤، ٨٧: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسَفُ عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوْا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَبْنِي﴾ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿﴾ .
- ١٥ — لم يعترفوا لأبيهم بحقيقة فعلتهم مع يوسف، مع علمهم ومعرفتهم ومعايشتهم لحال أبيهم، وما وصلت إليه من سوء.
- ١٦ — كان يعقوب عليه السلام على يقين من نجاة يوسف وكذب أبنائه عليه .

هنا تتضح مفارقة عجيبة ، توضح الكثير من معالم الشخصية اليهودية الإسرائيلية القديمة الحديثة ، فهم يعلمون علم اليقين أن يوسف ذهب إلى غير رجعة وأنه قُتل على الأرجح ، ولكنهم لم يعترفوا لأبيهم بحقيقة ما فعلوا ، وظلّوا مصرّين على حكاية الذنب ، فلا ضمير يؤنبهم ولا قلب يشعر مع أبيهم، وأبيهم يعلم علم اليقين من ربه ، أن يوسف على قيد الحياة ، وأنه نبي وسيكون له شأن كبير مستقبلا ، إذ كان عالما بتأويل رؤيا يوسف السابقة ، وأن أخوته سيسجدون له لعلو منزلته ، وهذا ما كان يُصبره عليه السلام حين قال:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أما ما كان يؤلمه عليه السلام ، هو إصرار أبنائه على ما هم عليه واستمرارهم ، وعدم التوبة والرجوع إلى الله .

يوسف ١٠٠: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ وَقَالَ يَتَأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

هنا يتضح خلق الأنبياء وأدبهم في يوسف عليه السلام ، حيث قابل السيئة بالحسنة ونسب خطيئة أخوته إلى الشيطان.

معطيات المعادلة كانت:

جمع واجتماع في الخفاء + قرار بالإجماع + تنفيذ بمكر ودهاء = مؤامرة.

و أليس هذا هو عين ما حدث للنبي ﷺ ليلة الهجرة؟.

يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنفال ٣٠:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾

إنه التنكير بما كان في مكة ، قبل تغير الحال ، وتبدل الموقف، وإنه ليوحى بالثقة واليقين في المستقبل ؛ كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته فيما يقضي به ويأمر، ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون الحاليين معرفة الذي عاش ورأى وذاق .

وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوف وقلق ؛ في مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة. . وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله ﷺ في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرد النجاة منهم !.

لقد كانوا يمحرون ليؤثقوا رسول الله ﷺ ويحبسوه حتى يموت ؛ أو ليقتلوه ويتخلصوا منه ؛ أو ليخرجوه من مكة منفيا مطرودا.. ولقد انتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله ؛ على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعا ؛ ليتفرق دمه في القبائل ؛ ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها ، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر !.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، أخبرني عثمان الجريري ، عن مقسم مولى ابن عباس ، أخبره ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ . . .

قال: " تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق — يريدون النبي ﷺ — وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه.

فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ؛ فبات عليّ ﷺ على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه ؛ فلما رأوه عليا رد الله تعالى عليهم مكرهم ، فقالوا: أين صاحبك هذا ؟ قال: لا أدري ! فاققصوا أثره ؛ فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . . فمكث فيه ثلاث ليال " . والصورة التي يرسمها قوله تعالى:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ .

صورة عميقة التأثير.. ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذكرون ويدبرون ويمكرون . . والله من ورائهم، محيط، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون. إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة. . فأين هؤلاء البشر الضعاف المهزلة ، من تلك القدرة القادرة . . قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكل شيء محيط ؟.

والتعبير القرآني يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة في التصوير ؛ فيهز بها القلوب ويحرك بها أعماق الشعور.

ومن قبل هذه السورة كان الإعداد كالتالي :

طبيعة المعركة بين الكفر والإيمان:

تحذير هام للنبي ﷺ، من سورة القلم/٤٨: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ

الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

يبدأ التحذير بالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله ﷻ وأعدائه المخدوعين: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ هَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القلم/٤٤.

وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين، بهذا وذلك يخلي الله النبي ﷺ والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، فهي معركته ﷻ وهي حربه التي يتولاها بذاته . والأمر كذلك في حقيقته، مهما بدا أن للنبي ﷺ وللمؤمنين دورا في هذه الحرب أصيلا، إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدر الله في حربه مع أعدائه، فهم أداة يفعل الله بها أو لا يفعل؛ وهو في الحاليين فعال لما يريد؛ وهو في الحاليين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد .

وهذا النص نزل والنبي ﷺ في مكة، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شيء؛ فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفرح للمغتربين بالقوة والجاه والمال والبنين، ثم تغيرت الأحوال والأوضاع في المدينة، وشاء الله ﷻ أن يكون للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين دور ظاهر في المعركة، ولكنه هنالك أكد لهم ذلك القول الذي قاله لهم وهم في مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون في بدر: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾ الأنفال/١٧ .

وذلك ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة، حقيقة أن المعركة معركته هو سبحانه، وأن الحرب حربه هو سبحانه، وأن القضية قضيته هو سبحانه، وأنه حين يجعل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنا، وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا، أما حقيقة الحرب فهو الذي يتولاها ، وأما حقيقة النصر فهو الذي يكتبها ، وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم ، وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هي الأداة الوحيدة في يده .

وهي حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية في كل موضع، وفي كل حال، وفي كل وضع، كما أنها هي الحقيقة التي تتفق مع التصور الإيماني لقدرة الله وقدره، ولسنته ومشيتته، ولحقيقة القدرة البشرية التي تنطلق لتحقيق قدر الله. . أداة. . ولن تزيد على أن تكون أداة. . وهي حقيقة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، في حالتي قوته وضعفه على السواء، ما دام يخلص قلبه لله ، ويتوكل في جهاده على الله ، فقوته ليست هي التي تنصره في معركة الحق والباطل والإيمان والكفر، إنما هو الله الذي يكفل له النصر، وضعفه لا يهزمه لأن قوة الله من ورائه وهي التي تتولى المعركة وتكفل له النصر ، ولكن الله يملئ ويستدرج ويقدر الأمور في مواقيتها وفق مشيئته وحكمته، ووفق عدله ورحمته.

كما أنها حقيقة تفرع قلب العدو، سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة، فليس المؤمن هو الذي ينازله، إنما هو الله الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته، الله الذي يقول لنبيه ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ واخل بيني وبين هذا البائس المتعوس ! والله يملئ ويستدرج فهو في الفخ الرعيب المفزع المخيف ، ولو كان في أوج قوته وعدته ، فهذه القوة هي ذاتها الفخ وهذه العدة هي ذاتها المصيدة :

﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ . القلم/٤٨.

أما متى يكون، فذلك علم الله المكنون ! فمن يأمن غيب الله ومكره ؟ وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ؟.

توجيه للصبر ولقطة من قصة يونس

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه ﷺ إلى الصبر ، الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس ، والصبر على الأذى والتكذيب، الصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد، ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ، فلولا أن تداركته نعمة الله لنبذ وهو مذموم:

﴿ فَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا

أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ

مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ . القلم/٤٧-٥٠.

وصاحب الحوت هو يونس عليه السلام كما جاء في سورة الصافات، وملخص تجربته التي يذكر الله بها محمدا ﷺ لتكون له زادا ورصيда ، وهو خاتم النبيين ، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين

في حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، وصاحب الزاد الأخير، فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير، عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة، وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله، وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب، وكل يوم يأتي بجديد . .

ملخص تلك التجربة أن يونس بن متى عليه السلام أرسله الله إلى أهل قرية، قيل اسمها نينوى بالموصل، فاستبطأ إيمانهم ، وشق عليه تكؤهم ، فتركهم مغاضبا قائلا في نفسه: إن الله لن يضيق علي بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينته ، فلما كانوا في وسط اللجة ثقلت السفينة وتعرضت للغرق، فأقرعوا بين الركاب للتخفف من واحد منهم لتخفف السفينة . . فكانت القرعة على يونس ، فألقوه في اليم ، فابتلعه الحوت .

عندئذ نادى يونس عليه السلام — وهو كظيم — في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت ، في وسط اللجة ، نادى ربه:

﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء ٧٧-٨٨.

فتداركته نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطئ . . لحما بلا جلدا . . ذاب جلده في بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقيدنها قيد من مألوف البشر المحدود .!

والتحذير للنبي ﷺ من الخروج من مكة مهاجراً قبل أن يفرد له إذن خاص به...

ورأينا كيف كان التذكير له ﷺ في سورة هود بإخوانه الأنبياء وما حدث لهم، وفي سورة يونس، كان التذكير بقوم يونس لأهل مكة ، فلقد أعطى الله ﷻ لأهل مكة الفرصة بالإيمان، فلقد آمنوا ونفعهم إيمانهم.

وهنا نجد في البدايات الأولى للوحي يذكر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بعدم الاستعجال فقال له:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

وازداد الإيذاء ..

وازداد معه الصبر حتى أذن الله ﷻ للمسلمين الأوائل بالهجرة الأولى للحبشة..

الهجرة إلى الحبشة.. والخروج من الأزمة



حين اشتد العذاب بأصحاب النبي ﷺ وضافت بهم السبل، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة "إِن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه" فخرج فريق من المسلمين إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وتفكير النبي ﷺ في الحبشة ينطوي على معرفة واسعة للنبي الكريم بأحوال شبه الجزيرة العربية، واتجاهاتها السياسية، فلم

يكن هناك مكان أصلح للحماية والإيواء من الحبشة، فالقبائل العربية تربطها بقريش علاقات وثيقة، وروابط متينة تمنعها من استقبال هؤلاء المسلمين إذا ما فكروا في الهجرة إليها، وبلاد اليمن غير مستقرة يتنازعها التنافس بين الفرس والروم، والصراع بين اليهودية والنصرانية، ولم تكن أي مدينة من مدن الجزيرة العربية تصلح أن تكون مكاناً مناسباً لإيوائهم، حتى يثرب نفسها التي استقبلت النبي ﷺ بعد ذلك، وأقام بها دولته لم تكن تصلح هي الأخرى في هذا الوقت لاستقبال المهاجرين، حيث كانت تمزقها الخلافات الداخلية، والصراعات بين قبائلها، وكان جملة من هاجر إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً.

وقبل الهجرة الأولى للحبشة، كانت سورة الكهف تُعد الصحابة ﷺ لهذا الأمر :

سورة الكهف ١٩:

﴿ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا ۝١٩﴾

إنهم فتية، أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم، أشداء في استنكار ما عليه قومهم. . ولقد تبين لهم الطريقان طريق الإيمان وطريق الضلال ، واختلف المنهجان ، فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا للمشاركة في الحياة، ولا بد من الفرار بالعقيدة، إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل ، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويرادهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله .

ولما كان أمرهم قد كشف، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم:

﴿ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا ١٦ ﴾ .

وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم ، ويفارقون أهلهم . ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ، هؤلاء يستزوجون رحمة الله ، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة . ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ ولفظة (ينشر)تلقي ظلال السعة والحبوحة والإنفساح ، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء .
إن الحدود الضيقة لتتراح، وإن الجدران الصلدة لتترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .

بعد ذلك جاء الإعداد النفسي لرسول الله ﷺ للهجرة الشريفة فكان الحديث عن موسى عليه السلام .
ثم جاءت سورة القصص ٢٠:

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ .

وكان هذا ملمحاً للنبي ﷺ **بالحجرة** وذلك من خلال الأمر لنبي الله موسى بالخروج من المدينة والتوجه إلى مكان آخر ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ .

وهذا الإعداد للنبي ﷺ من قصة موسى عليه السلام للهجرة الشريفة إنما هو إعداد مقصود لذاته إنها يد القدرة التي تظهر في اللحظة المطلوبة، لتتم مشيئتها ، ولسوف نفرد دراسة خاصة لهذا الإعداد من خلال قصص موسى عليه السلام المتكرر في القرآن المكي، بمشيئة الله تعالى.

لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى عليه السلام وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر، فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد والانتصار لبني إسرائيل ، وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التأمر، ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحققت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء ، فانتدبت يد القدرة واحدا من الملأ .
الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة غافر، انتدبته ليسعى إلى موسى من أقصى المدينة في جد واهتمام ومسارعة، ليبلغه قبل أن يبلغه

رجال الملك: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ إِنَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٢﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ .

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية، التوتر والتلفت، ونلمح معها، التوجه المباشر بالطلب إلى الله، والتطلع إلى حمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه في المخافة، وترقب الأمن عنده والنجاة: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . .

ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة، خائفا يترقب، وحيدا فريدا، غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ؛ والتوجه إليه طالبا عونَه وهُداه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٤﴾ .

ونلمح شخصية موسى ﷺ فريدا وحيدا مطاردا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالى الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لا زاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب ، — لاحظ أن هذا هو نفس الحال التي كان عليها رسول الله ﷺ — وخرج منزعا بنذارة الرجل الناصح ، لم يتلبث ، ولم يتزود ولم يتخذ دليلا ، ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه ، مستسلمة له ، متطلعة إلى هُده: .

﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٤﴾ . .

ومرة أخرى نجد موسى ﷺ في قلب المخافة ، بعد فترة من الأمن ، بل من الرفاهية والطراءة والنعمى ، ونجده وحيدا مجردا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يطارده فرعون وجنده ، ويبحثون عنه في كل مكان ، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلا. — وهذا ما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم وأهل مكة حينما خرج مهاجراً — ولكن اليد التي رعتَه وحمتَه هناك ترعاه وتحميه هنا ، ولا تسلمه لأعدائه أبداً ، فهذا هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء، لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين ، وصل إليه وهو مجهود مكدود ، وانتهى به الأمر بعد ذلك عند الرجل الصالح شيخ مدين.

الخروج من مكة:

وفي الطريق إلى المدينة أنزل الله ﷻ في سورة القصص ٨٥:

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ۚ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ٨٥ .

الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن خلفه القلة المسلمة التي كانت يومها بمكة، يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وهو مخرج من بلده ، مطارده من قومه ، وهو في طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد ، فقد كان بالجحفة قريبا من مكة ، قريبا من الخطر ، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذي يحبه ، والذي يعز عليه فراقه ، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن صباه ، ومهد ذكرياته ، ومقر أهله .

يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ في آخر سورة القصص:

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ۚ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ٨٥ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۚ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٨٦ .

وهو في موقفه ذاك:

فما هو بتاركك للمشركين ، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة ما هو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك ، ويستبدون بك وبدعوتك ، ويفتنون المؤمنين من حولك ، إنا فرض عليك القرآن لينصرك به في الموعد الذي قدره ، وفي الوقت الذي فرضه ؛ وإنك اليوم لمخرج منه مطارد ، ولكنك غدا منصور إليه عائد .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ۚ ﴾ ٨٦ .

وهكذا شاعت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد في ذلك الظرف المكروب ، ليمضي ﷺ في طريقه آمنا وثقا ، مطمئنا إلى وعد الله الذي يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه .

و أليس هذا هو عين الموجود في سورة يوسف ١٥:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْحَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّنَهُمْ ۚ ﴾ ١٥

بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ١٦ .

وإن وعد الله لقائم لكل السالكين في الطريق ؛ وإنه ما من أحد يؤذى في سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله في وجه الطغيان في النهاية ، وتولى عنه المعركة حين يبذل ما في وسعه ، ويخلي عاتقه ، ويؤدي واجبه .

﴿ إِنِّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۖ ﴾ .

ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التي خرج منها هاربا مطاردا، رده فأنقذ به المستضعفين من قومه، ودمر به فرعون وملأه، وكانت العاقبة للمهتدين .

فامض إذن في طريقك، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن :

﴿ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ ﴾ .

ودع الأمر لله يجازي المهتدين والضالين، وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ؛ وما كان يجول في خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقي هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۚ ﴾ . وهو تقرير قاطع عن عدم تطلع الرسول ﷺ إلى

الرسالة ؛ إنما هو اختيار الله ﷻ ، والله يخلق ما يشاء ويختار ، فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرقاه . وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التي اختاره لهدايتها بهذه الرسالة ، رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين ، ولقد كان من حوله كثيرون في العرب وفي بني إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة في آخر الزمان، ولكن الله ﷻ — وهو أعلم حيث يجعل رسالته — وقد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها ، من دون أولئك الطامعين المتطلعين ، حينما علم منه الاستعداد لتلقي ذلك الفيض العظيم .

ومن ثم يأمره ربه — بما أنعم عليه بهذا الكتاب — ألا يكون ظهيرا للكافرين ؛ ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ويمحص له عقيدة التوحيد خالصة في وجه الشرك والمشركين .

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۚ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ ءَايَتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۚ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة نزلت ورسول الله ﷺ في طريق هجرته الفاصلة بين عهدين متميزين من

عهود التاريخ: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۚ ﴾ .

فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين .

بين يدي الهجرة النبوية الشريفة

أهمية الهجرة

تكمُن أهمية الهجرة في:

تخليص المؤمنين من حالة العوز وقلة الأمن، ومن ثم إطلاق قدراتهم الإنتاجية في حالتَي السلم والحرب معاً، قال تعالى في النساء/ ١٠٠:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ

اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ، والمراغم هو المنعة والقوة، أو ما يرغب به المؤمنون أعداءهم على مساومتهم ومنعهم من العدوان عليهم، والسعة هي سعة العيش، وقال تعالى في سورة النحل/ ٤١: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأَلَاخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ..

فالمهاجر في سبيل الله اليوم إنما يهاجر ليطلق لنفسه قدراتها، ويتحلل من كل قيد يلزمه بالقعود، والمهاجر في سبيل الله اليوم مطالب بأن يطلق لفكره وعقله وعلمه كل الآفاق الرحبة الواسعة.

والأمة تقف أمام أمر إطلاق الطاقات هذا وتتمتع في نفسها، وما يكبلها من آسار الأغلال الثقيلة التي جعلتها في آخر الأمم، وتمعن الأمة النظر في الأمن والحريات التي هي أول مدارج الصعود نحو الهجرة؛ لتعي الهوة الكبيرة بينها وبين الهجرة النبوية العطرة.

وكذا المسلم — بل الداعية — يجب أن يقف ليراجع فكره ونفسه، ويستخرج الأغلال التي تحيط به وأن ينطلق الانطلاقة المباركة وفق شرع ربنا الحكيم، وقدوته صاحب الهجرة ﷺ.

إن الأعداد الكبيرة من المسلمين التي تهاجر اليوم الهجرة العكسية إلى بلاد الغرب، ثم تظل تدور حول نفسها متأثرة بالمحيط الذي تعيش فيه، غاب عنها معنى إطلاق الطاقات هذا، وفات عليها لباب الأمر في فقه الهجرة.

والهجرة بمعناها الشامل حركة تجديد مستمر، وعامل من عوامل قوة الأمة الفكرية والمادية؛ كونها تتمحور حول المثل الأعلى ﷺ، ولا تزال الأمة بعافية ما دامت على صلة قوية بهذا المثل الأعلى، سواء في إنضاج فكرها أو تقدم مدنياتها، ومن تدبر أحداث الهجرة ودقائقها أدرك أهمية حركة التجديد، وترك البيئات المغلقة إلى البيئات المفتوحة، سواء أكانت بلدًا أو

مؤسسة، أو حتى نفس المؤمن ذاته؛ إذ المثل الأعلى يحث دائماً على أسمى الغايات، ويدفع لإنجاز أرقى الحضارات، ولن يتحقق ذلك إلا بالتجدد المنفتح، المتعلق بالمثل الأعلى ﷺ.

والهجرة مطلب قوي لتماسك الجبهة الداخلية في الأمة؛ إذ هي المراجعة والمحاسبة، سواء الذاتية أو الجماعية أو المؤسسية، إذ جوهر الهجرة يقوم على هجر كل ما لا يليق، وبهذه النظرة الواعية لمعنى الهجرة يكون النقد البناء، وتكون المراجعات الربانية للسَّير، والتفرس في الأخطاء، وهذا من أقوى عوامل النهوض الحضاري.

إن حالة الأمة اليوم – وحال أفرادها في الغالب – لفي أشد الحاجة إلى إطلاق الطاقات الكبيرة التي تحوزها في أبنائها، وتوفير الأمن والاستقرار لهم؛ فما سعى النبي ﷺ للمدينة إلا بعد سنوات من الكبت والتضييق؛ فكانت المدينة المنورة البيئة التي انطلق فيها البناء الحضاري، ونلمس اليوم إما كبتاً لمجتمعات كاملة، أو فقداناً للدور في كثرة من أفراد الأمة. وحركة التجديد التي قال فيها النبي ﷺ: "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (أبوداود بسند صحيح) هذه الحركة تحتاج إلى تجديد في الأفراد والمؤسسات.

والنقد الداخلي والتوبة والمراجعة قوة تتماسك بها الأمة، وتسترد بها عافيتها، ويتنفس بها كل فرد أنسام البناء الحضاري.

الهجرة.. حدث غير مجرى التاريخ

هجرة النبي ﷺ إلى يثرب ضرورة فرضتها آليات الدعوة لانطلاقة الدين الجديد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى الإسلام، ويصرهم بشرائعه، ويرشدهم إلى أحكامه، دون أن يتطرق إليه ملل، أو يصيبه كلل أو ضجر، لا تصرفه عن دعوته الشواغل، ولا يثنيه عن التبليغ وعد أو وعيد، وإنما هو ماضٍ في طريقه، تحوطه عناية الله وتكلوئه رحمته، لا يجد وسيلة تمكنه من تبليغ دعوته إلا اتباعها، ولا طريقة تهئ له النجاح إلا أخذ بأسبابها، طرق كل باب، ووقف عند كل جمع، وعرض دعوته على القبائل؛ لعل أحداً يؤمن بها ويؤازرها.

وآمن بالدعوة الجديدة بعض أهل مكة، ممن سمى نفوسهم، وصفت أفئدتهم، ونضجت عاطفتهم الدينية، فالتفوا حول نبيهم محمد ﷺ كما آمن عدد من الرقيق والموالي والمستضعفين في مكة، ولم تلق مكة بالاً لهذا الدين الجديد في بادئ الأمر، وعدت محمداً ﷺ وصحبه مجموعة من الحنفاء الذين يظهرون ثم يخنفون دون أن يلتفت إليهم أحد.. لكن هيهات هيهات...

فلقد استشعرت مكة وأهلها الخطر، حين وجدوا أنفسهم أمام رجل آخر، ودعوة مختلفة، وجماعة تتكون، وكتاب يُتلى، وأن الرسالة يتزايد أنصارها وإن كانت تشق طريقها ببطء بين دهاليز وجبال مكة وعقول أهلها وعصبيتهم التي جبلوا عليها، وليس هذا فحسب بل، هالهم

الأمر حين بدأ النبي ﷺ يهاجم الوثنية ويعيب الأصنام، ويسفّه عبادتها، وهنا رأت مكة أن مكانتها الدينية وزعامتها الروحية في خطر، فلجأت إلى مواجهة الدين الوليد، ومحاصرته بكافة الوسائل التي تضمن إجهاضه والقضاء عليه، ولم تتحرج في استخدام التعذيب والقتل والسجن مع المؤمنين بمحمد ﷺ ودعوته، ولم يسلم النبي ﷺ نفسه من الأذى، وتعرضت حياته للخطر.

مقدمات الهجرة الكبرى

وإذا كانت الحبشة التي يحكمها ملك عادل تصلح أن تكون مأوى صالحاً ومكاناً للحماية، فإنها لم تكن تصلح أن تكون مركزاً للدعوة، ومعتقلاً للدين، ولهذا لم يفكر النبي ﷺ في الهجرة إليها، واستمر في عرض دعوته على القبائل العربية التي كانت تفرّج على مكة، أو بالذهاب إلى بعضها كما فعل مع قبيلة ثقيف في الطائف، ولم تكن قريش تتركه يدعو في هدوء، وإنما تتبعت خطوه، تحذر القبائل من دعوته وتتفرها منه.

غير أن سعي النبي الدعوب، وحرصه على تبليغ دعوته كان لا بد أن يؤتي ثماره، فتفتحت لدعوته قلوب ستة رجال من الخزرج، فأسلموا، ووعدوه بالدعوة للإسلام في يثرب، وبشروه بالفوز لو قُدر له أن تجتمع عليه قبائل يثرب.

ولم يكد ينصرم عام حتى وافى النبي ﷺ في موسم الحج اثنا عشر رجلاً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وعقد معهم بيعة عرفت ببيعة العقبة الأولى، على "ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم...".

وأرسل معهم حين عادوا إلى بلادهم مصعب بن عمير، وكان داعية عظيمًا، فقيهاً في الدين، لبقاً فطنًا، حليماً رقيقاً، ذا صبر وأناة، فنجح في مهمته أيما نجاح، وانتشر الإسلام في كل بيت هناك، وهياً السبيل لتكون يثرب هي دار الهجرة، التي ينطلق إليها المسلمون، ومعتقل الدين ومركز الدولة.

وبعد عام عاد مصعب في موسم الحج، ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، التقوا بالنبي ﷺ في إحدى الليالي سرّاً وبايعوه ببيعة العقبة الثانية، التي تضمنت التزامهم بحماية النبي ﷺ عندما يهاجر إليهم والدفاع عنه، والمحافظة على حياته.

ومن ثم حددت هذه البيعة الوضع القانوني للنبي ﷺ بين أهل يثرب، فاعتبرته واحداً منهم، دمه كدمهم، وحكمه كحكمهم، وقضت بخروجه ضمناً من عداد أهل مكة، وانتقال تبعيته إلى أهل يثرب، ولهذا أخفى المتبايعون أمر هذه البيعة عن قريش؛ لأن الفترة بين إتمام هذه البيعة، ووصوله ﷺ لا يلتزم أهل يثرب خلالها بحماية النبي الكريم إذا وقع له مكروه أو أذى من قريش.

التجهيز للهجرة

وبعد أن تمت البيعة المباركة أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا أفراداً وجماعات، يتخفى بها من يخشى على نفسه، ويعلنها من يجد في نفسه القدرة على التحدي. ولم تقف قريش إزاء هذه الهجرة مكتوفة اليدين، فحاولت أن ترد من استطاعت رده، لتقتنه في دينه أو تعذبه أو تتكل به، ولكن دون جدوى، فقد هاجر معظم المسلمين، وبقي النبي ﷺ في مكة، ووقعت قريش في حيرة: هل يظل في مكة كما فعل في الهجرة إلى الحبشة، أم يهاجر في هذه المرة مع أصحابه؟ وفي هذا خطر شديد عليهم؛ لأنه يستطيع في يثرب أن ينظم جماعته، ويقم دولته، فتتهدد مكانة قريش بين القبائل، وتضيع زعامتها، وتتأثر تجارتها. حذمت قريش أمرها، واتخذت قرارها بقتل النبي ﷺ قبل أن تفلت الفرصة من بين أيديها، ويتحقق ما تخشاه، فأعدوا مؤامرتهم لهذا الغرض الدنيء، وأشركوا جميع القبائل في قتله، باختيار شاب قوي من بين أبنائها، حتى يتفرق دمه في القبائل، ولا يقوى بنو هاشم على محاربة أهل مكة، وقد سجل القرآن الكريم نبأ هذه المؤامرة الخسيسة في قوله تعالى في الأنفال / ٣٠:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَكْرِينَ ۖ﴾

حادث الهجرة.. وأسباب النجاح

اتخذ النبي ﷺ كل الأسباب التي تضمن نجاح هجرته إلى المدينة التي ترتب عليها قيام دولة الإسلام، واتساع رقعتها، وسطوع حضارتها، ولعل أهم الأسباب هو نجاحه الباهر في إعداد المكان الذي سينزل به هو وأصحابه، مستخدماً كل الوسائل الممكنة من توثيق عرى العلاقات مع أهل يثرب بعقد معاهدتين عظيمتين، وإرسال داعية عظيم الكفاءة، قوي الإيمان، شديد الإخلاص؛ لنشر الدين، وجذب الأتباع هناك.

والسبب الثاني من أسباب النجاح هو اختيار الوقت المناسب للهجرة، فلم يعزم النبي ﷺ على الهجرة إلا بعد أن استوثق من رسوخ إيمان أهل يثرب، وتعهدهم بحمايته والدفاع عنه، وذلك في بيعة العقبة الثانية، ومن ثم لم تعد هناك حاجة لبقائه في مكة بعد أن وجد النصر والمنعة عند أهل يثرب.

والسبب الثالث هو آليات الهجرة التي اتبعها النبي ﷺ في خروجه من مكة إلى المدينة، في واحدة من أجل ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوة وروعة، وتفاصيل هذه الهجرة المذكورة في كتب السيرة، ولسنا في حاجة إلى سردها الآن، ولكن يمكن القول بأنها كانت سرية إلى أقصى حد، ودقيقة إلى أبعد مدى، وضع لها النبي ﷺ كل ما في وسع البشر

وطاقتهم من وسائل تضمن لها النجاح، وخطط تحقق لها التوفيق، فإذا لم يفلح ذلك كله، فستأتي عناية الله في اللحظة المناسبة.

الرسول ﷺ في المدينة

وما أن وصل النبي المدينة في ضحى يوم الاثنين، الموافق (١٢ من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة الموافق ٢٤ سبتمبر ٦٢٢م) حتى بدأ العمل الجاد، والسعي الدؤوب، حتى أكمل رسالته على نحو لا مثيل له في تاريخ الإنسانية.

ولم تكن يثرب عندما نزلها النبي ﷺ مدينة بالمعنى المعروف، وإنما كانت واحات متفرقة في سهل فسيح تسكنها قبائل الأوس والخزرج والجماعات اليهودية، فنظم العمران بالمدينة، وشق بها طرقاً معبّدة، وكان المسجد هو الأساس في هذا التنظيم، انتظم حوله عمران المدينة الجديدة، واتسقت شوارعها.

وكان هذا المسجد هو مقر الرئاسة الذي تقام فيه الصلاة، وتُبرم فيه كل الأمور، وتُعقد به مجالس التشاور للحرب والسلام واستقبال الوفود، وبجوار المسجد اتخذ النبي ﷺ مساكنه، وكانت متصلة بالمسجد، بحيث يخرج منها إلى صلاته مباشرة، وأصبح من السنة أن تُبنى المساجد وبجوارها بيوت الولاة ودواوين الحكم.

ثم أصلح النبي ﷺ ما بين الأوس والخزرج وأزال ما بينهما من عداوة، وجمعهما في اسم واحد هو الأنصار، ثم آخى بينهم وبين المهاجرين على أساس أن المؤمنين إخوة، وكانت المرة الأولى التي يعرف فيها العرب شيئاً يسمى الأخوة، دون قرابة أو صلة رحم، حيث جعل كل رجل من المهاجرين يواخي رجلاً من الأنصار، فيصير الرجلان أخوين، بينهما من الروابط ما بين الأخوين من قرابة الدم.

وبعد المؤاخاة كانت الصحيفة، وهي الدستور الذي وضعه النبي ﷺ لتنظيم الحياة في المدينة، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها، هذه الوثيقة لم يُملّها النبي ﷺ إملاءً، وإنما كانت ثمرة مناقشات ومشاورات بينه وبين أصحابه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، وكلما استقروا على مبدأ قام الرسول ﷺ بإملاء نصه على علي بن أبي طالب، وشيئاً فشيئاً اكتملت الوثيقة، وأصبحت دستوراً للجماعة الجديدة، ولا يكاد يُعرف من قبل دولة قامت منذ إنشائها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية الجديدة، فإنما تقام الدول أولاً، ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور.

وأدت هذه السياسة الحكيمة إلى قيام جماعة متألّفة متحابّة، وإلى ازدياد عدد سكان المدينة حتى زاد عدد سكانها عما كانوا عليه أكثر من خمس مرات، بعد أن أقبل الناس على سكنائها؛ طلباً للأمن والعدل في ظل الإسلام، والتماساً لبركة مجاورة النبي ﷺ واستجابة لما دعا إليه القرآن من الهجرة إلى الله وإلى رسوله.

بين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة

كانت الهجرة إلى المدينة ضرورة ملحة فرضتها الأحداث التي أحاطت بالنبي ﷺ في مكة، وألزمته السعي إلى مكان آخر تُمارس فيها شعائر الإسلام، وتُطبق أحكامه، وتتطلق دعوته إلى كل مكان، دون مزاحمة أو تضيق، ومكة حينذاك لم تعد صالحة لهذه الفترة من عمر الرسالة، لأن العداء قد بلغ بها كل مدى ضد الدين الجديد، وأصبحت هناك صعوبة بالغة في استكمال الدعوة التي تحتاج إلى دولة حتى تنجح رسالتها.

ولم تكن الحبشة التي تنعم بالعدل والأمان تصلح لهذه الفترة؛ نظرا لاختلاف البيئة اللغوية والدينية هناك؛ الأمر الذي جعل حركة الإسلام هناك بطيئة، وبلا فاعلية، ولا تسمح هذه البيئة بالتطبيق؛ ومن ثم لم تكن هناك مدينة في شبه الجزيرة العربية تصلح لاستقبال الدين في الفترة الثانية إلا يثرب التي أُطلق عليها مدينة الرسول ﷺ.

وللهجرة معنيان:

حسي ومعنوي، وفي معناها اللغوي هي الانتقال، وقد يكون الانتقال حسياً بترك مكان لآخر، وقد يكون معنوياً بالانتقال من ثقافة إلى أخرى.

ومن معاني هذا الأخير قول الله تعالى في سورة المذثر/٥: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

وقوله عز وجل في المزمّل/١٠: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

فهي مراجعة لكافة الموروثات الثقافية والبنائية، واكتشاف الجوانب التي عدا عليها الخطأ أو الفساد في الفهم والتطبيق، مراجعة عملية فاعلة.

والهجرة إن هي إلا رديف لمعنى التزكية، قال ﷺ:

"لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها".

رواه أبو داود بسند صحيح.

إن الحديث عن الهجرة يجب ألا نقف فيه عند مظاهر هجرة النبي ﷺ، ونسرد التفاصيل التي وردت عنها، بل نحن مطالبون بالغوص في عميق جذرها، وتحليل نفسية الهجرة وفلسفتها؛ كي نعي وندرك منها بعضاً من سبل الخلاص لأنفسنا وأمتنا الكريمة.

إن التلازم بين معنيي الهجرة — الجسدي والنفسي — لا يزال قائماً ما دام المؤمنون لم يمسكوا بزمام الأستاذية العالمية، ولا يزالون حتى ذلك الوقت يحتاجون إلى المعين المزدوج

للهجرة النبوية العطرة، ولا يتوقف أبدًا المعنى النفسي أو المعنوي؛ لأنه بمثابة الزاد والتزكية للأنفس والمجتمعات.

فالهجرة النبوية نهر جاري العطاء في كل حين بإذن ربه، يغرف منه المؤمن رواء له حينًا بعد حين، يربط الحادثة بالواقع، ويتلقت منها ما يريد.

ومع إدراك فقه الهجرة وأبعادها يُطوى اليأس، وتطوى معه مراحل في النفس وفي الآفاق الدعوية، وما ثمة مكان للحزن:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا^ط فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ^ط عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى^ط وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا^ط وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

الفصل الخامس

هجرة اليهود إلى فلسطين

١- رحل يعقوب عليه السلام وبنوه : رأوبين ، شمعون ، لاوي ، يهوذا ، زبولون ، يساكر ، دان جاد ، أشير ، نفتالي ، بنيامين ، ومعهم بنو بنيهم ضيوفاً على المصريين في أرضهم وذلك في عهد يوسف عليه السلام رئيس الوزراء وكانوا قبل مجيئهم قوماً رحل يعيشون في البادية. يقول عليه السلام في سورة يوسف/١٠٠ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ

وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٤٩﴾ ۝ .

٢- عاش بنو يعقوب في مصر وتكاثروا ، ثم في عام ١٢٣٧ قبل الميلاد خرج بنو يعقوب بعد موت أبيهم من مصر بقيادة نبي منهم هو موسى عليه السلام يقول عليه السلام في البقرة/٤٩ :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ مِمَّا ءَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ۝ .

٣- توجه موسى عليه السلام بعد ذلك إلى أرض سيناء ومعه بني إسرائيل، يقول عليه السلام في سورة الأعراف/١٦٠ : ﴿ وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ ۖ وَالسَّلَوى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ۝ .

٤- بعد ذلك جاء الأمر الإلهي لهم بالدخول إلى مدينة أريحا بالشام، يقول عليه السلام في سورة المائدة/٢٠-٢٢ :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ يَنْقُومِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾ ۝﴾ .

٥- فراح صاحبي موسى " كالب بن يفنة ويوشع بن نون " يشجعونهم بقولهما لهم في المائدة/ ٢٣ :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ ۝﴾ .

فلم يعبنوا بكلامهما وتوجهوا إلى موسى ﷺ بقولهم :

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۝﴾ . المائدة/ ٢٤ .

٦- هنا توجه موسى ﷺ إلى ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي

فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۝﴾ . المائدة/ ٢٥

٧- على الفور جاء الأمر من فوق سبع سماوات بالتحريم الأبدي:

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۖ

٨ - وليس التحريم فقط بل هناك عقوبة سابقة عليه وهي النية في الصحراء، المائدة/ ٢٦:

﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۖ

٩- عاش بنو إسرائيل في النية أربعين عاماً ، وكان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك يقول ﷺ في سورة الأعراف/ ١٦٧ — ١٦٨ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ^ط وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾ .

١٠- وفي هذه المدة مات هارون وتبعه موسى عليهما السلام ولم يدخلوا الأرض المقدسة
١١- حيث أن موسى عليه السلام بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر بأمر من الله ﷻ كانت وجهته إلى الأرض المقدسة.. ولكن بني إسرائيل رفضوا الدخول خوفا من الفلسطينيين، وسورة المائدة الآيات ٢١ - ٢٦ توضح لنا الحقائق التالية.

أ- قال موسى عليه السلام لقومه:

﴿يَنْقُومِ آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ . المائدة/٢١-٢٢.

ب - كما تكشف الآيات حقيقة هامة وهي فرضية الهجرة فالحق ﷻ كتب المدينة للمسلمين الأوائل وأمرهم بالخروج إليها ، فلما نفذ المسلمون ما أمر الله به ، هدى أهل المدينة إلى الإسلام وخرجوا في استقبال رسول الله ﷺ ، وهكذا كان الحال مع بني إسرائيل ، فلقد كتب الله لبني إسرائيل أرض الشام وأمرهم بالخروج إليها ، ولو أنهم أطاعوا الله ورسوله موسى عليه السلام لهدى أهل الشام إليهم وهو ما قاله لهم صاحبي موسى كالب بن يَفْنَه ويوشع بن نون في سورة المائدة/٢٣:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ تَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ .

ج - فلما تقاعسوا صدر أمر الله تعالى إليهم إلى يوم القيامة:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ .

د — وليس التحريم فقط بل هناك عقوبة أخرى سابقة عليه ألا وهي التيه في الصحراء وليس التيه لمدة وجيزة ، بل لقد حددها الله جلَّ علاه بقوله تعالى تكلمة الآية الكريمة/٢٦ :

﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾.

وعليه لم يستطع موسى عليه السلام بعد التيه في سيناء أن يدخل باليهود إلى فلسطين و توفي عليه السلام قبل دخول بني إسرائيل أريحا و قبره في منطقة صحراوية لم يعرف إلى الآن، و لم يدخل القدس نهائيا في حياته.

١٢— وبعد موت موسى عليه السلام وفي عهد النبي صموئيل الثاني كانت بداية الهجرة إلى فلسطين حيث يقص الله ﷻ علينا ما حدث لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام إذ ذهبوا إلى نبي لهم يطلبون إليه الإذن بالدخول إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم الدخول إليها ، ولكن نبيهم يعرف تاريخهم الطويل وأنهم إذا كتب عليهم القتال فلن يقاتلوا ، فماذا حدث معهم يقول ﷻ في سورة البقرة/٢٤٦ :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِمَالِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ أَرْبَعُونَ سَنَةً نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ

مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ
 غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
 قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْقُوا اللَّهَ
 كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا
 لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ ﴿٢٤٧﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
 وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ
 الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٤٨﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا
 عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤٩﴾ . البقرة/٢٤٦-٢٥٢ .

ألم تر ؟ كأنها حادثة واقعة ومشهد منظور ، لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل ، من كبرائهم وأهل
 الرأي فيهم إلى نبي لهم ، ولم يرد في السياق ذكر اسمه ، لأنه ليس المقصود بالقصة ، وذكره
 هنا لا يزيد شيئاً في إحياء القصة ، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في
 تاريخهم الطويل . . لقد اجتمعوا إلى نبي لهم ، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت
 إمرته (في سبيل الله) . . وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه في (سبيل الله) يشي بانتفاضة
 العقيدة في قلوبهم ، ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن
 أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله .
 وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر ، فلا بد للمؤمن أن يتضح في حسه
 أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ؛ ولا بد أن يتجرد في حسه الهدف . . في سبيل الله . .
 فلا يغشيه الغش الذي لا يدري معه إلى أين يسير .
 وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزمهم ، وثبات نيتهم ، وتصميمهم على النهوض بالتبعة
 الثقيلة ، وجدهم فيما يعرضون عليه من الأمر :

﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ . .

ألا ينتظر أن تنكروا عن القتال إن فرض عليكم ؟ فأنتم الآن في سعة من الأمر ، فأما إذا
 استجبت لكم ، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ؛ ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَخُنْ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . .

وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات بني إسرائيل، لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه، ولقد قالوا:

إنهم يريدون أن يقاتلوا [في سبيلِ اللَّهِ] فما هم أَوْلَاءُ يَنْغَضُونَ رُؤُوسَهُمْ ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ؛ ويستتكرون أن يكون طالوت - الذي بعثه الله لهم - ملكا عليهم ، لماذا ؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة ، فلم يكن من نسل الملوك فيهم ، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عن أحقية الوراثة ، وكل هذا غيش في التصور ، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة . .

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية، وعن حكمة الله في اختياره:

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . إنه رجل قد اختاره الله.. فهذه واحدة.. وزاده بسطة في العلم والجسم.. وهذه أخرى.. ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ .

فهو ملكه ، وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء ..

[وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] .. ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد.. وهو الذي يعلم الخير ، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها . .

وهي أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش ، وأن تجلو عنه الغش . . ولكن طبيعة بني إسرائيل - ونبيها يعرفها - لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها، وهم مقبلون على معركة ، ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم، وتردها إلى الثقة واليقين: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

مُؤْمِنِينَ . وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة - التي غلبوا عليها على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى عليه السلام قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة في التابوت الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون .

وقيل: كانت فيه نسخة الألواح التي أعطاها الله لموسى على الطور، فجعل لهم نبيهم علامة من الله ، أن تقع خارقة يشهدونها ، فيأتيهم التابوت بما فيه [حَمَلُهُ الْمَلَكَةُ] فتفيض على قلوبهم السكينة .

وقال لهم: إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت ، إن كنتم حقا مؤمنين . . . ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت، فانتهى القوم منها إلى اليقين.

الآيات: ٢٤٩ - ٢٥١ المعركة وقتل داود لجالوت

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكسوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق . . . والسياق القرآني على طريقته في سياق القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين ، فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود: ﴿

طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ ﴿٢٤٩﴾

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . . . إنه مقدم على معركة ؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة ، وهو يواجه جيش أمة غالبية فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة ، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة ، الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء .

فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلى إرادة جيشه ، وصموده وصبره: صموده أولا للرجبات والشهوات ، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب ، واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش، ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية . وصحت فراسته: ﴿

شَرِبُوا وَارْتَوَوْا ، فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده، تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف ! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم ، انفصلوا عنه لأنهم لا

يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقهم وعانتهم، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف ، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة ، والجيش ليست بالعدد الضخم ولكن بالقلب الصامد ، والإرادة الجازمة ، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق . ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ؛ ولا بد من التجربة العملية ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها.

ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى. . بل مضى في طريقه . وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت — إلى حد — ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد ﴿٢٠﴾ : فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا

لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴿٢١﴾ . لقد صاروا قلة ، وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته بقيادة جالوت، إنهم مؤمنون لم ينكسوا عن عهدهم مع نبيهم، ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يروونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته، إنها التجربة الحاسمة، تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم ؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم .

وهنا برزت الفئة المؤمنة، الفئة القليلة المختارة، والفئة ذات الموازين الربانية : ﴿٢٢﴾ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٣﴾ .

﴿٢٤﴾ كَمَا مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥﴾ .. فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله .

القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار، ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة ، قوة الله الغالب على أمره القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين ، وهم يكلون هذا النصر لله: ﴿٢٦﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ . ويعلّلونه بعلمته الحقيقية:

﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٨﴾ فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل.

ونمضي مع القصة، فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابرين. إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقتلتها. . إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة، بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهي تواجه الهول الرعب:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ

جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴿٢٥﴾ .

هكذا [رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا] . . وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه

عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينه وطمانينة واحتمالا للهول والمشقة.

[وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا] فهي في يده - سبحانه - يثبتها فلا تتزعزع ولا تتزلزل ولا تميد .

[وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] فقد وضح الموقف . . إيمان تجاه كفر . وحق

إزاء باطل . ودعوة إلى الله لينصر أوليائه المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجج في الضمير ، ولا غيب في التصور ، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق .

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: [فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ] .. ويؤكد النص هذه

الحقيقة: [بِإِذْنِ اللَّهِ] .. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما، وليتضح التصور الكامل

لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه. . إن المؤمنين ستار القدرة ؛ يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار. . بإذنه. . ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريد بإذنه. . وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمانينة واليقين . . إنه عبد الله . اختاره الله لدوره . وهذهمنة من الله وفضل . وهو يؤدي هذا الدور المختار ، ويحقق قدر الله النافذ . ثم يكرمه الله - بعد كرامة الاختيار - بفضل الثواب . . ولولا فضل الله ما فعل، ولولا فضل الله ما أثيب. . ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق. . فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي ، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة قائم بما يريد . استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص .

ويبرز السياق دور داود: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ . .

وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل . وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا . . ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بطواهرها ، إنما تجري بحقائقها . وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها في يده وحده . فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ، ويفوا الله بعهدهم . ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريده . وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير ، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم . . وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله . فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه ابنه سليمان ، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل ؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود:

﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ أَلْمَلَكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾

وكان داود ملكا نبيا ، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى . . أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعا . . وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر، ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض ، وتمكين الصلاح في الحياة . إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار .

كما إننا نخلص من هذه الآيات البيّنات إلى الحقائق التالية:

- واضح أنها تعالج موضوعاً تتفق أحداثه مع ظروف المسلمين الأوائل في العهد المدني من حيث الهجرة والتحرر من الحياة في ظل سلطان مجتمع وثني وتكوين مجتمع خالص الإيمان.
 - إنها تعالج وتقدم العبرة المسلمين الأوائل في ذلك العهد حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من جبن وعصيان وتقاعس عن القتال في سبيل الله تعالى .
- إن الآيات تكشف حقيقة هامة، هذه الحقيقة تكمن في طبيعة تكوين بني إسرائيل حتى لا يندفع المسلمون بمظاهر قوة اليهود في المدينة آنذاك أو حتى فيما بعد إذ أنهم:

﴿لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ

شَدِيدٌ ۚ﴾ الحشر/ ١٤.

فهذه الآيات البينات وغيرها نصوص صريحة توضح انه لما رفض بنو إسرائيل الإذعان لأوامر الله بالدخول إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، حرما عليهم وعاقبهم بالتيه أربعين سنة ، وهو تحذير مقصود لذاته يفهمه المسلمون وهم في بداية العهد المدني .
ولقد أوضحت الآيات الكريمة { ١٦٧-١٦٨ } من سورة الأعراف مصير بني إسرائيل بعد التيه وتحريم الأرض المقدسة عليهم إلى يوم القيامة فيقول ﷻ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمْ الَّذِينَ صَالَحُوا وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَلَوْلَنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّاهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

فلقد كتب الله عليهم الشتات في الأرض، فلا وطن لهم ولا مكان، ولقد تحقق وعد الله وبعث عليهم من سامهم سوء العذاب ولقد بينت سورة الإسراء الكريمة بشيء من التفصيل ما أجملته سورة الأعراف الكريمة.

وتمضي بنا قافلة الزمان وتتحول الأيام شهوراً وتكتمل سنيناً وقد أتى الله ﷻ داود الملك والحكمة ثم ورث سليمان الملك أبيه بعد موته بإذن ربه جلّ علاه.

يقول ﷻ في سورة النمل/ ١٥—١٦ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ

وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مَّنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ

الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

بعد موت سليمان الملك انقسمت الدولة العبرية إلى مملكتين :

المملكة الأولى : مملكة إسرائيل في الشمال ، لأنها تقع في شمال فلسطين وتضم عشرة أسباط وهم : رأوبين ، جاد ، أفرايم سبط يوسف ، يساكر ، زبولون ، أشير ، دان، شمعون ، لاوي نفتالي ، ونصف سبط منسى .

وأول ملك عليها هو " يوربعام الأول بن نباط " - ٩١٠/٩٣١ ق.م - والذي اتخذ من ترصة الواقعة شمالي شرق شكيم " نابلس " بـ ١٠ كم عاصمة لمملكته ، ونصب عجول الذهب في بيت إيل وأمر بعبادتها .

هذا وقد ملك على هذه المملكة ١٩ ملكاً ، دام حكمهم أكثر من قرنين إلى أن دمرها الآشوريون تدميراً كاملاً بقيادة سرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق.م وهؤلاء اليهود هم المعروفون بالسامريين وتوراتهم هي التوراة السامرية .

المملكة الثانية : مملكة يهوذا في الجنوب ، لأنها تقع في جنوب فلسطين وتضم سبطين اثنين هما سبط يهوذا وبنيامين ونفر من سبط لاوي ، وتقول أن جبل صهيون هو الجبل الذي عظمه الله وتوراتهم هي التوراة العبرية ، ويطلق عليها مملكة داود ولقد تعاقب على حكمها ٢٠ ملكاً من نسل داود ، أولهم "رحبعام بن سليمان" ودام حكمهم حوالي ثلاثة قرون ونصف إلى أن دمرها بختنصر البابلي عام ٥٨٦ ق.م وذلك بعد دمار مملكة إسرائيل الشمالية على يد الآشوريين بـ ١٣٥ سنة وكان آخر ملوك مملكة يهوذا هو " صدقيا بن يوشيا " .

إذن لا وجود حقيقي لمملكتي إسرائيل ويهوذا ، والسبب الأساسي هو غضب الرب عليهم لأنهم نقضوا الميثاق ولعنوا على لسان أنبيائهم لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ولم يقبلوا الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام إلا بعد أن رفع الله جل علاه الجبل فوقهم ولم يكتفوا بذلك وإنما طلبوا من نبيهم أن يُريَهُمُ الله جهرة بالإضافة إلى اتخاذهم العجل إلهاً من دون الله وقتلهم الأنبياء بغير حق فباءوا بغضب على غضب ، إنهم يعرفون ذلك تماماً ويسعون للحصول على رضى الرب عليهم وعلامة رضاه عليهم هي بناء الهيكل الثالث ، ومن ثمَّ تراهم يرتدون السواد ويتوجهون نحو الحائط المزعوم فيقرءون نصوصاً من التلمود يقولون فيها : تقطع رأسي ويدي إن لم أسع لبناء الهيكل ، وعند اكتمال البناء سوف ينزل المسيح ، ومن هنا نشأت حركة أمناء جبل الهيكل، التي سعت إلى تأسيس دولة اليهود وذلك من خلال الهجرة الحديثة إلى فلسطين.

بين هجرة المسلمين وهجرة اليهود

نقارن هنا بين هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة قديماً وبين هجرة اليهود من بلاد كثيرة إلى الأراضي الفلسطينية الطاهرة حديثاً، وتتركز المقارنة هنا في أمر يلتقي فيه المسلمون واليهود، وأمور يفترقون عندها.

فأما الذي يلتقون فيه فهو أن الدافع للهجرة كان عقدياً دينياً، فالمسلمون هاجروا من أجل إقامة دين جديد في بلد آمن.

وهاجر اليهود من أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقيا مقررين أن يتركوا أرضهم ولغتهم ويحترموا اللغة العبرية من أجل إقامة مملكة الله أو دولة إسرائيل فكلتا الهجرتين باسم الدين والعقيدة.

أما الأمور التي يختلفون فيها فهي:

١ — أن هجرة المسلمين كانت بوحى من الله سبحانه وتعالى، وكانت الأسباب من صنعهم وبرغبتهم وتطلعهم إلى ثواب الله.

أي أنها كانت تخطيطاً وتدبيراً محكماً لا يعفى فيه المسلمون من الجد، والتخطيط اتكالا على نصر يتقاطر عليهم من السماء.

٢ — مقدمات الهجرة: بيعة العقبة الثانية.

— بعد اجتماع الرسول ﷺ بوفد المدينة قالوا له : قد سمعنا مقالتك ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، وفي رواية خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك ما شئت .

فقال النبي ﷺ: أشرت لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبائكم .

فقال ابن رواحة : فإذا فعلنا فما لنا ؟.

فقال ﷺ: لكم الجنة .

قالوا : ربح البيع لا نقبل ولا نستقبل .

لم تكن صفقة دنيوية إذن، وما كان فيها شيء من مساومة.

وفي رواية أن العباس بن عباد بن نضلة تكلم مع الأنصار وشد العقدة ، فقال : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ إنكم تباعونه على حرب الأحمر ، والأسود

من الناس — أي على من حاربه منهم — ثم ذكر مثل ما تقدم عن أسعد بن زرارة.

ثم توافقوا على ذلك .

وقالوا: يا رسول الله ما لنا بذلك إن نحن قضينا ؟.

هنا يظهر جوهر الرسالة .

قال: رضوان الله والجنة.

قالوا: رضينا أبسط يدك.

فبسط يده ﷺ فبايعوه .

وأول من بايعه ﷺ البراء بن معرور ، وقيل اسعد بن زرارة ، وقيل أبو الهيثم بن النيهان ، ثم بايعه السبعون كلهم ، وبايعه المرأتان المذكورتان من غير مصافحة ، لأنه ﷺ كان لا يوافق النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أحرزن قال اذهبن فقد بايعتكن . فلما قدم الأنصار المدينة أظهروا الإسلام إظهارا كليا وتجاهروا به . وأمر ﷺ من كان معه من المسلمين بالهجرة إلى المدينة .

— أما هجرة اليهود فقد دبرها لهم غيرهم ومهد لها الانتداب البريطاني على فلسطين .

يقول بنيامين نتنياهو— رئيس وزراء إسرائيل عام ١٩٩٦م — في كتابه (مكان تحت الشمس) الذي ترجمه للعربية محمد عوده الدويري وراجعته كلثوم السعدي، ونشرته دار الجيل، عمان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م، ص ٣٦٣: تحت عنوان [استمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين هو الذي يحقق حلم مؤسسي الحركة الصهيونية].

(إن تاريخ الصهيونية هو تاريخ هجرة اليهود إلى "أرض إسرائيل" وهذا هو العنصر الذي سيحسم مستقبل الدولة السكاني؛ لذا فإن المفتاح لمستقبل الدولة والحل لكافة مشاكلها السكانية يكمنان في استمرار هجرة اليهود إلى إسرائيل حتى تصبح مأوى للجماهير اليهودية التي شاهدها مؤسسو الحركة الصهيونية في أحلامهم، ولذا فإن النضال من أجل الهجرة اليهودية هو نضال من أجل استمرار بقاء إسرائيل).

٣ — أن وصف المسلمين الذين تركوا مكة إلى المدينة أطلق عليهم [المهاجرون] وهو وصف أطلقه رب العزة عليهم، جاءت الآيات الكثيرة التي ترفع من قدرهم، ومنها:

أ — قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [٢٠] التوبة.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢١٨] البقرة.

و قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَاتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ١٩٥ آل عمران.

و قوله تعالى في النحل/ ٤١ - ٤٢ :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ٤١ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ٤٢

وقوله تعالى في النساء/ ١٠٠ ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ١٠٠.

وهذا اللقب أطلق عليهم لأنه لم يكن لهم على ظهر الأرض من نصير، فقد كانت الدنيا كلها ضدّهم:

مشركون ونصارى ويهود أما المشركون فلأن القرآن عاب الأصنام وحقر الأوثان وهدم تقاليد الجاهلية وأما المسيحية فإن الإسلام كان في مكة ينكر بحرارة أن يكون لله ولد، وذلك في سورة الكهف ومريم وغيرهما من السور المكية وأما اليهود — وهم عدو ثالث — فإن القرآن لم يترك من أمرهم شيئاً، فقد فضح عقائدهم وعرى صفاتهم الخبيثة المتعددة فلم يكن بد لهؤلاء جميعاً — وقد عالّهم القرآن بصفاتهم وخباياهم — أن يغتاظوا ويغضبوا ويزداد كرههم للإسلام وحقدهم للمسلمين، ومن هنا لم يكن للمسلمين في الهجرة يد تحميهم إلا يد الله، ولا كنف يأوون إليه إلا كنف الله:

من ناحية أخرى كانت الجماعة المسلمة في ذلك الوقت ضعيفة من حيث العدد والعدة، وكان أعداؤهم يملكون عناصر القوة وأسباب الاضطهاد ورغم ذلك فقد نجحوا في بناء مدينة تأتي دونها في الوصف المدينة الفاضلة التي تعشقها الفلاسفة وتخليلوا فيها الكمال وأثبتوا أن الإيمان الناصح يحيل البشر إلى خلائق تنبهي الملائكة سناء ونضارة.

ب — بينما كانت حال اليهود مباينة لذلك من كل جانب فلقد تعهدت إنجلترا — الدولة الأولى في العالم يومئذ — ما بين عامي ٧١٩١ - ٨٤٩١ أن تكيف الظروف في فلسطين لاستقبالهم وكان الحاكم الإنجليزي في فلسطين يذل العرب ويعطش أرضهم حتى لا ينبت فيها زرع

فبييعها الفلسطينيون بأبخس ثمن أو بأغلاء، ولم تتعهد إنجلترا وحدها بذلك إنما تولى إصر ذلك معها أميركا وروسيا وفرنسا، كذلك ملوك العرب بخيانتهم وخذلانهم يقول بنيامين نتنياهو في كتابه مكان تحت الشمس ص ١٠٤ : لم تكن بريطانيا الدولة الوحيدة التي وعدت اليهود بوطن قومي في فلسطين، بل إن عصبة الأمم التي انتدبت بريطانيا على فلسطين ضمت وعد بلفور (إلى كتاب الانتداب كجزء لا يتجزأ منه)، وفيه (يكون صاحب الانتداب مسئولاً عن أن تسود في الدولة ظروف سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي). ص ١٠٤ .

من ناحية أخرى كان اليهود وأعدائهم غاية في القوة والافتدار، ومع ذلك فإننا نرى اليوم ما يحدث على أرض الرسالات من رعب وهلع لليهود، فلا يتمتعون بأمن ولا ينعمون باستقرار، ومصيرهم حتماً إلى الزوال بمنطق القرآن والسنة والتاريخ والواقع.

٣ - أن المسلمين الذين هاجروا كانوا دعاة توحيد لله وإصلاح للأرض كانوا يعلمون الدنيا أن الله رب العالمين لا شريك له وأن الناس يجب أن يسلموا وجوههم إليه ويحيوا على الأرض وفق المنهج الذي ارتضاه الله لهم، فترفعت عن المآرب همهم، وأخلصوا لله طواياهم، وذهلوا عن متاع الدنيا، واستهوتهم مثل عليا لا مثيل لها في الأولين والآخرين.

بينما كانت صلة اليهود بالله مغشوشة، والدوافع التي جاءت بهم، وإن كانت دينية إلا أن ما فيها من باطل أضعاف ما فيها من حق، وما يكتنفها من ظلم ليست معه شائبة عدل، من أجل هذا كله كان البون شاسعاً والفرق واسعاً بين هجرة المسلمين وهجرة اليهود.

إن المسلمين - في قضية الهجرة - إنما يقيمون على أرضهم بتأشيرة إقامة إلهية باسم الإسلام، فإذا فقدوا هذه التأشيرة أو تنازلوا عنها لم يكن لهم أرض ولا وطن ولا هجرة.

أما اليهود فيقيمون على أرض فلسطين بتأشيرة إقامة من بلفور والبون واسع بين التأشيرتين.

الهجرة اليهودية الحديثة وبداية الاستعمار الاستيطاني اليهودي في أواخر الحكم العثماني

في عام ١٨٣٧ أنشئت أول مستعمرة يهودية في فلسطين على يد اليهودي البريطاني مونتفيوري ، حيث كان عدد سكانها في ذلك الوقت (١٥٠٠) يهودي وارتفع عدد المهاجرين إلى (١٠٠٠٠) يهودي عام ١٨٤٠ ثم ١٥ ألف يهودي عام ١٨٦٠ ثم ٢٢ ألف يهودي عام ١٨٨١.

في عام ١٨٨٢ بدأت أفواج المهاجرين الروس بالتوافد إلى فلسطين رغم إصدار السلطات العثمانية لقانون يحد من الهجرة وقدر عدد الفوج الأول بألفي يهودي وارتفع هذا العدد ليصل إلى (٢٥) ألف يهودي عام ١٩٠٣.

هذا ويوضح الجدول التالي : تطور عدد اليهود القادمين إلى فلسطين في أواخر العصر العثماني.

الفترة الزمنية	مجموع المهاجرين اليهود بالآلاف	بالآلاف المتوسط السنوي للهجرة اليهودية
1850-1880	25	0.8
1881-1903	25	1
1904-1910	20	2.9
1911-1914	14	3.5
المجموع	83	1.3

ويتضح من الجدول ازدياد عدد المهاجرين اليهود في بداية القرن العشرين خصوصا في الفترة من ١٩١١-١٩١٤.

وتعرضت الأراضي الفلسطينية لخمس موجات متتالية من الهجرات اليهودية وذلك في أعقاب الأزمات المتعاقبة التي حدثت منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الثانية وذلك في المناطق التي تواجد فيها اليهود.

١. الهجرة الأولى ١٨٨٢-١٩٠٣:

وقد تمت على دفعتين قدم فيها إلى فلسطين حوالي (٢٥) ألف يهودي معظمهم من يهود رومانيا وروسيا وقد تم تمويلها بواسطة جمعيات أرباب صهيون وحركة البيلو إلى جانب بعض الشخصيات الاستعمارية والأجهزة البريطانية.

٢. الهجرة الثانية ١٩٠٤-١٩١٨:

حدثت هذه الهجرة بعد إنشاء الحركة الصهيونية، وقد بلغ عدد المهاجرين فيها نحو (٤٠) ألف جاء معظمهم من روسيا ورومانيا وكانوا أساسا من الشباب المغامرين الذين جندتهم الأجهزة الاستعمارية والصهيونية. ومع نهاية موجة الهجرة الثانية وبسبب نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وصل عدد اليهود في فلسطين إلى حوالي (٨٥) ألف يهودي ووصلت مساحة الأراضي التي يمتلكونها إلى ٤١٨ ألف دونم ونحو ٤٤ مستعمرة زراعية.

٣. الهجرة الثالثة ١٩١٩-١٩٢٣:

بلغ عدد المهاجرين فيها حوالي (٣٥) ألف مهاجر يهودي.

٤. بمعدل ثمانية آلاف مهاجر سنوياً.

٥. جاء معظمهم من روسيا ورومانيا وبولندا بالإضافة إلى أعداد صغيرة من ألمانيا وأمريكا.

٦. الهجرة الرابعة ١٩٢٤-١٩٣٢:

بدأت في زمن الانتداب البريطاني.

٧. حيث توافد إلى فلسطين في هذه الموجة نحو (٨٩) ألف مهاجر يهودي معظمهم من أبناء الطبقة الوسطى وبالذات من بولندا وقد استغلوا رؤوس الأموال الصغيرة التي أحضروها معهم لإقامة بعض المشاريع الصغيرة الخاصة بهم.

وقد بلغ تدفق المهاجرين الصهيونيين ذروته في عام ١٩٢٥ حيث وصل عددهم إلى حوالي (٣٣) ألف مقابل (١٣) ألف في عام ١٩٢٤ وبعد ذلك انخفض العدد مرة أخرى ليصل إلى حوالي (١٣) ألف في عام ١٩٢٦.

ثم بدأت الهجرة بالانحسار سنة ١٩٢٧ بسبب الصعوبات الاقتصادية في البلاد آنذاك، فانخفض عددهم إلى ثلاثة آلاف ثم ألفين فقط في عام ١٩٢٨.

هذا وقد وصل مجمل عدد اليهود في فلسطين في نهاية هذه المرحلة حوالي (١٧٥) ألفاً واستوطن ١٣٦ ألفاً منهم في ١٩ مستعمرة مدنية أما الباقون فقد انتشروا في نحو ١١٠ مستعمرات زراعية.

٨. الهجرة الخامسة ١٩٣٣-١٩٣٩:

وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود الذين قدموا في هذه الهجرة إلى فلسطين نحو (٢١٥) ألفاً جاء معظمهم من أقطار وسط أوروبا التي تأثرت بعد وصول النازية إلى الحكم.

٩. فهاجر منها وحدها خلال هذه الفترة (٤٥) ألف مهاجر.

وقد بلغت نسبة المهاجرين اليهود من ألمانيا إلى فلسطين سنة ١٩٣٨ نحو ٥٢% من المجموع العام لليهود المهاجرين.

وفي سنة ١٩٣٣ صدر الكتاب الأبيض الذي بموجبه قامت بريطانيا بتحديد الهجرة اليهودية بـ (٧٥) ألف خلال الخمس سنوات التالية وهكذا قلل بقدر الإمكان العدد الكبير من المهاجرين عن الطريق الرسمي وزاد عددهم عن الطريق غير الرسمي ، حيث بلغ ذروته سنة ١٩٣٥ ليصل عدد المهاجرين حوالي (٦٢) ألفاً، ثم أخذت بالهبوط بسبب اشتعال ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، هذا ويوضح الجدول رقم (٢) عدد المهاجرين اليهود من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٦.

جدول رقم (٢) : عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال السنوات ١٩٢٠-١٩٣٦

السنة	عدد المهاجرين	(%) النسبة المئوية
1920	5514	1.95
1921	9149	3.24
1922	7844	2.77
1923	7421	2.63
1924	12856	4.55
1925	33801	11.96
1926	13081	4.63
1927	2713	0.96
1928	2178	0.77
1929	5249	1.86
1930	4944	1.75
1931	4075	1.44
1932	9553	3.38
1933	30327	10.73
1934	42359	14.98
1935	61854	21.88
1936	29727	10.52
المجموع	282.645	100%

وقد وصل إلى فلسطين في سنوات الحرب العالمية الثانية نحو (٥٥) ألف مهاجر غير شرعي حيث كان الأسطول البريطاني مكلفا بإرشاد سفن المهاجرين اليهود وإمدادهم بالماء والتموين والوقود وقيادتها إلى السواحل الفلسطينية.

إلى جانب ذلك دخل البلاد من اليهود بين عام ١٩٤٠-١٩٤٨ نحو (١٢٠) ألف يهودي ومع انتهاء فترة الانتداب البريطاني كان عدد اليهود قد وصل إلى (٦٢٥) ألفاً، أي ما يعادل ثلث السكان في البلاد.

— المصدر: تطور القضية الفلسطينية (التاريخي والاجتماعي والسياسي) ، الدكتور رياض العيلة. الطبعة الثانية ، مايو ١٩٩٨.

جدول (٣) النسبة المئوية لعدد السكان العرب واليهود في فلسطين

خلال السنوات ١٩١٨-١٩٤٨

السنة	النسبة المئوية لعدد السكان العرب	النسبة المئوية لعدد اليهود
1918	92.80%	7.20%
1925	85.33	14.67
1931	83.10	16.90
1933	79.41	20.90
1935	72.85	27.15
1940	69.99	30.1
1946	68.60	31.40
1948	68.52	31.48

جدول (٤) المهاجرون اليهود إلى فلسطين خلال السنوات ١٩١٩-١٩٣٦ حسب الجنسية والنسبة المئوية.

النسبة المئوية	عدد المهاجرين	البلد
42.80	124.010	بولندا
10.50	30.429	روسيا
9.89	28.629	ألمانيا
5.10	14.754	رومانيا
3.22	9.305	ليتوانيا
2.95	8.529	اليمن وعدن
2.65	7.674	الولايات المتحدة
2.25	6.516	اليونان
2.11	6.122	العراق
1.57	4.546	لاتفيا
1.39	4.016	تركيا
1.29	3.748	تشيكوسلوفاكيا
1.27	3.690	النمسا
1.05	3.047	إيران
11.96	34.583	بلدان أخرى غير معنية
100%	289.616	المجموع

— المصدر : الجداول (٢)، (٣)، (٤) ، (٥) الدكتور: محمد سلامة النحال، كتاب سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين العربية - منشورات فلسطين المحتلة الطبعة الثانية ١٩٨١ بيروت ص ٧٤-٧٥-٧٦.

* الهجرة بعد قيام إسرائيل ١٩٤٨-١٩٦٧

باغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨ وطرد العرب الفلسطينيين من أرضهم ووطنهم، بدأت الصهيونية في بذل جهود كبيرة لتسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأصدرت قانون العودة الذي أقر عام ١٩٥٠ والذي ينص على:

" أن لكل يهودي الحق في العودة إلى البلاد كيهودي عائد. والهجرة تكون بتأشيرة مهاجر". كما صدر قانون الجنسية الإسرائيلية عام ١٩٥٢ بحيث يحق لكل يهودي يهاجر إلى إسرائيل الحصول على الهوية الإسرائيلية بمجرد دخول البلاد. كل ذلك بالإضافة إلى تشجيع الوكالة اليهودية للهجرة وتنظيمها والاهتمام بأمور المهاجرين عند وصولهم إلى البلاد، ساعد على ازدياد الهجرة.

جدول (٥) الهجرة اليهودية إلى فلسطين خلال السنوات ١٩٤٨-١٩٦٧

السنة	عدد المهاجرين
1948	101.828
1949	239.576
1950	170.249
1951	175.095
1952	24.369
1953	11.326
1954	18.370
1955	37.478
1956	56.234
1957	71.224
1958	27.082
1959	23.895
1960	24.510
1961	47.638
1962	61.328
1963	64.364
1964	54.716
1965	30.736
1966	15.730
1967	14.327

يلاحظ من الجدول السابق ما يلي:

أولاً: ارتفاع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال السنوات الأربعة الأولى لقيام دولة الكيان الصهيوني، حيث تم دخول حوالي (٧٠٠) ألف مهاجر خلال هذه الفترة في حين أن عدد اليهود في فلسطين بلغ حوالي (٦٥٠) ألف نسمة عام ١٩٤٨ ويرجع سبب تزايد الهجرة اليهودية إلى ما يلي:

١. قيام المنظمات الصهيونية بنقل من تبقى من اليهود في مخيمات اللاجئين في أوروبا الغربية إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية.
٢. المفاوضات التي قامت بها الحكومة الإسرائيلية مع حكومة رومانيا عام ١٩٤٨ وادت إلى وصول حوالي (١١٨) ألف مهاجر روماني خلال الأربع سنوات ١٩٤٨-١٩٥١.
٣. استخدام الصهيونية أساليب ملتوية إرهابية لتحقيق أهدافها بالنسبة للهجرة وخاصة في بلدان الشرق الأوسط وخاصة في اليمن والعراق وليبيا حيث كان اليهود يقومون بتفجيرات في الأحياء اليهودية لإثارة الرعب .
٤. ومن ثم يطلبون منهم الهجرة إلى فلسطين للتخلص من الإرهاب.

ثانيا: انخفاض عدد المهاجرين خلال الثلاث سنوات التالية ١٩٥٢-١٩٥٤ بسبب الأزمة الاقتصادية في البلاد التي نتجت عن ازدياد عدد المهاجرين وانتشار البطالة.

ثالثا: استمرار الهجرة وبشكل متضاعف عن الفترة السابقة خلال السنوات الثلاث (١٩٥٥-١٩٥٧) وعلاقة ذلك بحوادث المجر والوضع الاقتصادي في البلاد بسبب العدوان الثلاثي على مصر وقطاع غزة.

رابعا: انخفاض عدد المهاجرين بعد عام ١٩٥٧ بشكل واضح بسبب توقف الهجرة من شمال أفريقيا ومصر حيث عملت الحكومات العربية في المغرب وتونس ومصر على تشجيع اليهود على البقاء في البلاد عن طريق توفير الظروف المواتية لمعيشتهم وأمنهم وخاصة بعد عدوان السويس والتخلص من عملاء الصهيونية وما قاموا به من أعمال إرهابية.

خامسا: ارتفاع عدد المهاجرين منذ عام ١٩٦١ حيث وصل المعدل (٥٠) ألف مهاجر سنويا وذلك خلال السنوات من ١٩٦١ وحتى ١٩٦٥.

الجدول رقم (٦) المهاجرون إلى فلسطين وإسرائيل بحسب القارة التي ولدوا فيها ١٨٨٢-

١٩٩٣ (نسب مئوية)

فترة الهجرة	العدد المطلق	%	آسيا وأفريقيا	أوروبا-أمريكا
1882-1914	55.000-70.000	100		
1919-1948	482.857	100	10.4	89.6
15 مايو ١٩٤٨-١٩٩٣	2.363.481	100	35.3	64.7
15 مايو ١٩٤٨-١٩٥١	687.624	100	49.9	50.1
1952-1954	54.676	100	76.4	23.6
1955-1957	166.492	100	68.3	31.7
1958-1960	75.970	100	36.0	64.0
1961-1964	228.793	100	59.4	40.6
1965-1968	82.244	100	49.7	50.3
1969-1971	116.791	100	27.3	72.7
1972-1974	142.755	100	9.2	90.8
1975-1979	124.827	100	14.3	85.7
1980-1984	83.637	100	27.1	72.9
1985-1989	70.196	100	20.4	79.6
1990-1993	529.478	100	6.5	93.5
1990	199.516	100	2.7	97.3
1991	176.100	100	11.9	88.1
1992	77.057	100	6.5	93.5
1993	76.805	100	4.1	95.9

والجدول رقم (٧) يوضح تطور عدد سكان إسرائيل اليهود والعرب، و نسبتي اليهود والعرب من مجموع السكان، ويبين الجدول أيضا أن العدد الإجمالي للسكان قد تطور على نحو سريع، فوصل في نهاية سنة ١٩٩٣ إلى (٥,٣٢٧,٦٠٠) نسمة منهم ٨١,٤% يهود و ١٨,٦% عرب

وتشمل هذه الإحصاءات طبعا سكان القدس العربية وهضبة الجولان اللتين ضممتا إلى إسرائيل (١٧٢,٠٠٠) تقريبا، وإذا استثنينا سكان هاتين المنطقتين المحتلتين منذ سنة ١٩٦٧، فإن نسبة السكان العرب من مجموع سكان إسرائيل تهبط قليلا فتبلغ ١٥,٤%.

الجدول رقم ٧ تطور عدد سكان إسرائيل، اليهود والعرب، ونسبة العرب من مجموع السكان بين ١٩٤٨/١١/٨ ونهاية سنة ١٩٩٣ (الأعداد بالآلاف)

الفترة	العديد الإجمالي	يهود	عرب	نسبة العرب من مجموع السكان	الفترة	العديد الإجمالي	يهود	عرب	نسبة العرب من مجموع السكان
8/11/1948	872.2	716.6	156.0	17.9	نهاية ١٩٧١	3.120.7	2.662.0	458.6	14.7
نهاية ١٩٤٨	758.7	-	-	-	نهاية ١٩٧٢	3.225.0	2.752.7	472.3	14.6
نهاية ١٩٤٩	1.173.9	1.013.9	160.0	13.6	نهاية ١٩٧٣	3.338.2	2.845.0	493.2	14.8
نهاية ١٩٥٠	1.370.1	1.203.0	167.1	12.2	نهاية ١٩٧٤	3.421.6	2.906.9	514.7	15.0
نهاية ١٩٥١	1.577.8	1.404.4	173.4	11.0	نهاية ١٩٧٥	3.493.2	2.959.4	533.8	15.3
نهاية ١٩٥٢	1.629.5	1.450.2	179.3	11.0	نهاية ١٩٧٦	3.575.4	3.020.4	555.0	15.5
نهاية ١٩٥٣	1.669.4	1.483.6	185.8	11.1	نهاية ١٩٧٧	3.653.2	3.077.3	575.9	15.8
نهاية ١٩٥٤	1.717.8	1.526.0	191.8	11.2	نهاية ١٩٧٨	3.737.6	3.141.2	596.4	16.0
نهاية ١٩٥٥	1.789.1	1.590.5	198.6	11.1	نهاية ١٩٧٩	3.836.2	3.218.4	617.8	16.1
نهاية ١٩٥٦	1.872.4	1.667.5	204.9	10.9	نهاية ١٩٨٠	3.921.7	3.282.7	639.0	16.3
نهاية ١٩٥٧	1.976.0	1.762.8	213.1	10.8	نهاية ١٩٨١	3.977.7	3.320.3	657.4	16.5
نهاية ١٩٥٨	2.031.7	1.810.2	221.5	10.9	نهاية ١٩٨٢	4.063.6	3.373.2	690.4	17.0

17.1	706.1	3.412.5	4.118.6	نهاية ١٩٨٣	11.0	229.8	1.858.8	2.088.7	نهاية ١٩٥٩
17.3	727.9	3.471.7	4.199.7	نهاية ١٩٨٤	11.1	239.2	1.911.3	2.150.4	نهاية ١٩٦٠
17.6	749.0	3.517.2	4.266.2	نهاية ١٩٨٥	11.3	252.2	1.981.7	2.234.2	نهاية ١٩٦١
17.8	769.9	3.561.4	4.331.3	نهاية ١٩٨٦	11.3	262.9	2.068.9	2.331.8	نهاية ١٩٦٢
18.0	793.6	3.612.9	4.406.5	نهاية ١٩٨٧	11.3	274.6	2.155.6	2.430.1	نهاية ١٩٦٣
18.3	817.7	3.659.0	4.476.8	نهاية ١٩٨٨	11.3	286.4	2.239.2	2.525.6	نهاية ١٩٦٤
18.5	842.5	3.717.1	4.559.6	نهاية ١٩٨٩	11.5	299.3	2.299.1	2.598.4	نهاية ١٩٦٥
18.1	875.0	3.946.7	4.821.7	نهاية ١٩٩٠	11.8	312.5	2.344.9	2.657.4	نهاية ١٩٦٦
18.1	914.3	4.144.6	5.058.8	نهاية ١٩٩١	14.1	392.7	2.383.6	2.776.3	نهاية ١٩٦٧
18.3	953.4	4.242.5	5.195.9	نهاية ١٩٩٢	14.3	406.3	2.432.8	2.841.1	نهاية ١٩٦٨
18.6	992.5	4.335.2	5.327.6	نهاية ١٩٩٣	14.4	422.6	2.506.8	2.929.5	نهاية ١٩٦٩
					14.6	440.0	2.582.0	3.022.1	نهاية 1970

المصدر: statistical Abstract of Israel, No.45(1994),p.43

منذ سنة ١٩٦٧ تشمل الإحصاءات الإسرائيلية سكان مدينة القدس العربية التي ضمت إلى إسرائيل (نحو ٧٠,٠٠٠ في سنة ١٩٦٧ و ١٥٥,٥٠٠ في سنة ١٩٩٣).
ومنذ سنة ١٩٨٢، تشمل هذه الإحصائيات السكان العرب في هضبة الجولان التي ضمت أيضا إلى إسرائيل (نحو ١٦,٥٠٠ في سنة ١٩٩٣).

ويوضح الجدول التالي رقم (٨) أن اليهود الغربيين الذين شكلوا الأغلبية الساحقة قبل سنة ١٩٤٨ تقلص نسبتهم بعد قيام إسرائيل بسبب هجرة اليهود الشرقيين، لكنهم بقوا يشكلون الأغلبية بنسبة قليلة حتى أوائل الستينات (٥٢,١% سنة ١٩٦١).

الجدول (٨) سكان إسرائيل بحسب الديانة، وبلد الأصل ، ومكان الولادة، وفترة الهجرة
(نسب مئوية)

31/12 1993	31/12 1992	31/12 1991	31/12 1990	31/12 1989	31/12 1985	31/12 1980	19/5 1972	22/5 1961	8/11 1948	
100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	المجموع
81.4	81.6	81.9	81.9	81.5	82.5	83.7	85.4	88.7	82.1	يهود
14.1	14.0	13.9	14.1	14.4	13.5	12.7	11.2	7.8		مسلمون
2.8	2.7	2.5	2.4	2.3	2.3	2.3	2.3	2.3	17.9	مسيحيون
1.7	1.7	1.7	1.7	1.8	1.7	1.3	1.2	1.2	-	دروز آخرون
100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	اليهود بحسب الأصل- المجموع
23.8	23.1	22.4	22.3	22.4	18.5	14.0	8.4	5.5	-	إسرائيل أو فلسطين
36.3	37.1	37.9	39.3	41.6	43.3	44.9	47.5	42.3	-	آسيا - أفريقيا
39.9	39.8	39.7	38.4	36.0	38.2	41.1	44.2	52.1	-	أوروبا- أمريكا
		100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	100.0	اليهود بحسب مكان الولادة - المجموع
60.9	60.7	60.5	61.9	64.0	60.4	55.9	47.3	37.8	35.4	مواليد إسرائيل أو فلسطين - المجموع
23.8	23.1	22.4	22.3	22.4	18.5	14.0	8.4	5.5	-	الأب: إسرائيل أو فلسطين
22.6	23.0	23.3	24.3	25.6	25.8	25.4	22.6	14.9	-	آسيا -إفريقيا
14.5	14.6	14.7	15.3	16.0	16.1	16.5	16.3	17.4	-	أوروبا- أمريكا
39.1	39.3	39.5	38.1	36.0	39.6	44.1	52.7	62.2	64.6	مواليد الخارج- المجموع
13.7	14.1	14.6	15.0	16.0	17.6	19.5	24.8	27.4	9.8	آسيا -إفريقيا
25.4	25.2	24.9	23.1	20.0	22.0	24.6	27.9	34.8	54.8	أوروبا- أمريكا

وتقلصت نسبة اليهود الغربيين أكثر بعد ذلك، وتفاوتت عليها في أوائل السبعينات نسبة اليهود الشرقيين (٤٤,٢ % في مقابل ٤٧,٤ % سنة ١٩٧٢).

وبقيت نسبة اليهود الشرقيين أعلى من نسبة اليهود الغربيين حتى تدفق هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل في أوائل التسعينات.

وفي سنة ١٩٩٣، رجحت كفة اليهود الغربيين قليلاً على كفة اليهود الشرقيين (٣٩,٩ % في مقابل ٣٦,٣ %) أما سكان إسرائيل من اليهود ارتفع عددهم بنسبة من ٥,٥ % سنة ١٩٦١ إلى ٢٣,٨ % سنة ١٩٩٣.

وأخيراً يوضح الجدول رقم (٩) أن اليهود الذين ولدوا خارج فلسطين شكلوا أغلبية يهود إسرائيل حتى أوائل السبعينات . ثم ارتفعت نسبة اليهود المولودين في (إسرائيل أو فلسطين قبل سنة ١٩٤٨) أكثر وأصبح هؤلاء يشكلون أغلبية سكان إسرائيل اليهود (٦٠,٩ % سنة ١٩٩٣).

الجدول رقم (٩) سكان إسرائيل بحسب بلد الأصل: ١٩٩٣

بلد الأصل	العدد المطلق	%
المجموع الكلي	4.335.2	100.0
آسيا -المجموع	736.300	17.0
تركيا	86.300	2.0
العراق	256.500	5.9
اليمن	158.00	3.6
إيران	134.7	3.1
غير ذلك (بشمّل الهند وباكستان)	100.2	2.3
أفريقيا -المجموع	837.6	19.3
المغرب	502.8	11.6
الجزائر وتونس	126.5	2.9
ليبيا	74.7	1.7
مصر	63.0	1.4
غير ذلك (بشمّل أثيوبيا)	70.6	1.6
أوروبا وأمريكا وأوكرانيا-المجموع	1.730.5	39.9
الاتحاد السوفيتي	712.1	16.4
بولندا	262.5	6.0
رومانيا	258.0	5.9
بلغاريا واليونان	59.9	1.4

2.0	85.0	ألمانيا والنمسا
4.4	191.8	تشيكوسلوفاكيا (سابقا) وهنغاريا ودول أوروبية أخرى
3.7	161.2	أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية وجزر المحيطات
23.8	1.030.8	مواليد فلسطين/إسرائيل والأب كذلك

الجدول رقم ١٠ السكان في إسرائيل بحسب المنطقة في سنوات مختارة (نسب مئوية)

31/12 1993	31/12 1991	31/12 1985	20/5 1972	22/5 1961	8/11 1948	المنطقة
						يهود
4.335.2	4.144.6	3.517.2	2.686.7	1.932.3	716.7	المجموع: العدد
100	100	100	100	100	100	%
10.7	10.7	10.5	9.7	9.7	12.0	القدس
10.3	10.4	10.0	9.5	10.0	7.6	الشمال
12.7	13.0-	13.5	15.2	16.7	21.1	حيفا
24.0	23.9+	23.2	19.9	19.7	15.2	المركز
25.7	26.8-	28.5	33.5	35.9	43.2	تل أبيب-يافا
13.8	12.8	12.9	12.1	8.0	0.9	الجنوب
2.7	2.3	1.3	0.1			الضفة الغربية وقطاع غزة
						عرب
820.5	754.5	610.3	381.0	247.2	156.0	المجموع: العدد
100	100	100	100	100	100	%
1.4	1.7	1.5	1.6	1.7	1.9	القدس
53.4	54.3	56.0	57.3	57.8	58.1	الشمال
18.8	19.0	19.5	19.7	19.4	17.6	حيفا
11.8	11.8	11.8	11.6	10.9	10.3	المركز
3.0	2.6	2.0	1.9	2.7	2.3	تل أبيب-يافا
11.6	10.7	9.2	8.0	7.5	9.9	الجنوب

في هذه الدراسة يتبين أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع مهاجرين أو مجتمع مستوطنين لا يزال ٣٩,١% من سكان اليهود من مواليد أماكن خارج البلاد و ٣٧,١% من مواليد البلاد (فلسطين أو إسرائيل) لكن آبائهم ولدوا في الخارج و ٢٣,٨% فقط من السكان اليهود ولدوا هم وآبائهم في البلاد.

وقد نما عدد السكان اليهود سريعا، فتضاعف منذ قيام إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى نهاية سنة ١٩٩٣ نحو ست مرات، وساهم ميزان الهجرة، بصورة عامة، في نصف الزيادة السكانية والزيادة الطبيعية في النصف الآخر.

إن الفلسطينيين في إسرائيل، باستثناء سكان القدس العربية يشكلون ١٥,٤% من مجموع السكان .

وقد حافظ المواطنون العرب على نسبتهم، على الرغم من الهجرة اليهودية المكثفة، بفضل الزيادة الطبيعية التي تصل نسبتها إلى نحو ضعفي نسبة الزيادة الطبيعية لدى اليهود. والسكان اليهود في إسرائيل ينقسمون/ وفقا لـ "بلد الأصل" كما تعرفه الإحصاءات الإسرائيلية أي وفقا لمكان ولادة الشخص ومكان ولادة أبيه، إلى ثلاث جماعات اثنية رئيسية:

أ. **يهود غربيون** (أو من أصل غربي): وهم من مواليد أوروبا- أميركا، ومواليد البلاد لآباء من مواليد أوروبا- أميركا.

ب. **يهود شرقيون** (أو من أصل شرقي): وهم من مواليد آسيا- إفريقيا- ومواليد البلاد لآباء من مواليد آسيا- إفريقيا.

ج. **يهود أبناء البلد**: أي يهود ولدوا هم وآباؤهم في البلد (فلسطين أو إسرائيل).

* المصدر: دليل إسرائيل. العام. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، محمود ميعاري، التركيب السكاني ص ٣٧-٨٩.

* المهاجرون الروس من الاتحاد السوفيتي.

يشكل المهاجرون الروس من الاتحاد السوفيتي سابقا إلى إسرائيل نحو ١٠% من مجموع عدد السكان فيها ، ويزداد نفوذهم وتأثيرهم في الحياة السياسية باطراد منذ موجة الهجرة الكبيرة، التي حملت العدد الأكبر منهم إلى إسرائيل في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات، فخلال أربع سنوات (١٩٩٠-١٩٩٣) هاجر أكثر من نصف مليون مواطن من الاتحاد السوفيتي سابقا إلى إسرائيل ، الأمر الذي أدى إلى ازدياد عدد سكانها بنسبة ١٠% وكانت أكثرية المهاجرين الراشدين من خريجي الجامعات السوفيتية أو المعاهد التكنولوجية كما كانت الفئة الأكبر بين هؤلاء مهندسين ومهندسين معماريين.

يوضح الجدول ١١ أعداد المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتي سابقا إلى إسرائيل

جدول رقم(١١): الهجرة إلى إسرائيل من الاتحاد السوفيتي سابقا

السنة	مجموع المهاجرين	مهاجرون من الاتحاد السوفيتي سابقا
1986	9505	202
1987	12.965	2096
1988	13.034	2283

12.932	24.000	1989
185.227	199.516	1990
147.839	176.100	1991
65.093	77.057	1992
66.196	76.805	1993
67.771	79.844	1994
64.489	76.361	1995
58.447	70.605	1996
54.521	65.962	1997
45.400	56.700	1998
772.496	938.454	المجموع

المصدر: Israel and Center Bureau American Sephardi Federation, Jewish Agency for
of Statistics
<http://www.us.israel.org/jsource/immigration/FSU.html>

المصدر: احمد خليفة، المهاجرون الروس في إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٣٨،
ربيع ١٩٩٩ ص ٨٠+ص ١٢٤.

في السنوات الأخيرة بات العامل الديموغرافي مهيمنا في تحديد شبكة العلاقات بين اليهود
والعرب في ارض إسرائيل كلها "فلسطين التاريخية"، أما في داخل دولة إسرائيل ٢٠٠١
فيشكل اليهود ٧٣% من السكان.

من المتوقع أن تصل نسبة السكان اليهود داخل إسرائيل في سنة ٢٠٢٠ رغم الازدياد المستمر
إلى ٦٨% تشمل هذه المعطيات عرب القدس- والعمال الأجانب وأيضا مجموعات غير
يهودية إضافية تقطن إسرائيل.

تصل نسبة السكان اليهود اليوم في ارض فلسطين الغربية كلها (الساحل الفلسطيني) إلى
٥١% لكن من المتوقع أن تصل بعد عشرين سنة إلى ٤٢% وهذا، دون اخذ إعادة اللاجئين
بالحسبان.

جدول ١٢: تركيبة السكان في ارض إسرائيل " فلسطين التاريخية" بالآلاف " سنة

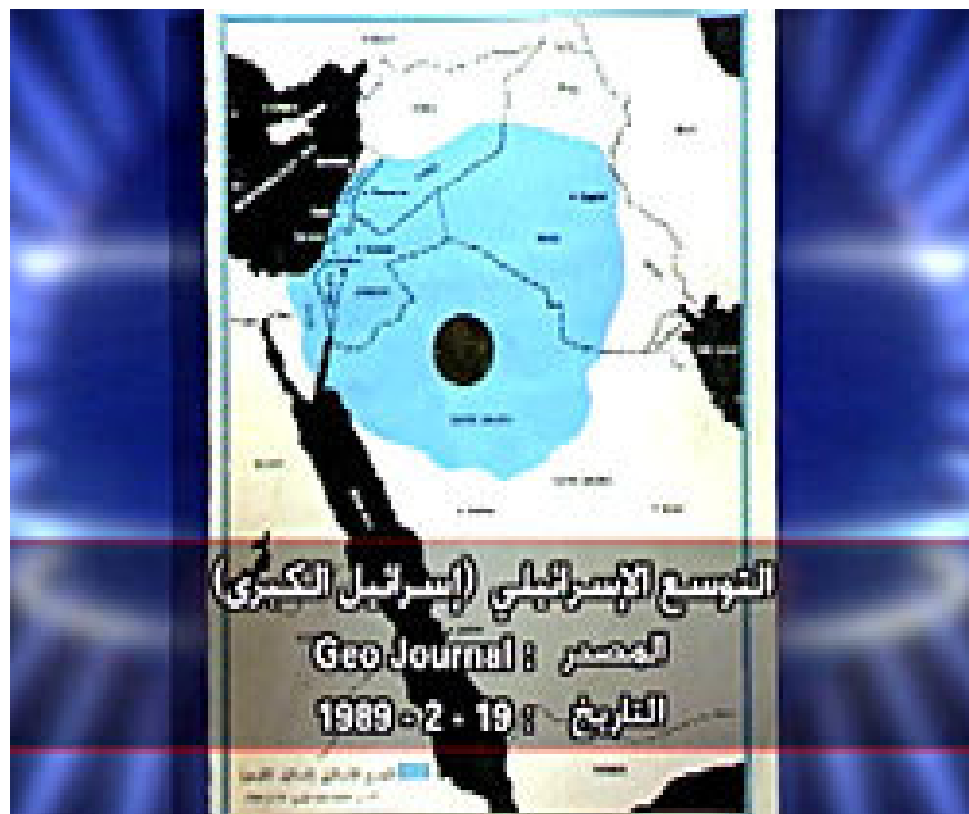
٢٠٠٠ وتوقعات لسنة ٢٠٢٠

السنة	2000	ملاحظات	2020	ملاحظات
في إسرائيل				
يهود	4.900	37% في الدولة	6.400	68% في الدولة يشمل عرب
عرب	1.300		2.100	القدس
آخرون (عمال أجانب وغير يهود)	0.500		0.900	
المجموع في إسرائيل	6.700	100%	9.400	زيادة ٢,٧ مليون نسمة خلال ٢٠ سنة

في الكيان الفلسطيني				
عرب في قطاع غزة	1.200		2.500	
عرب في الضفة الغربية	1.800		3.300	
المجموع في السلطة	3.000		5.800	
مجموع عرب وآخرين في البلاد	4.800	49.5% من ارض إسرائيل "فلسطين التاريخية"	8.800	58% من سكان ارض إسرائيل "فلسطين التاريخية"
مجموع السكان في ارض إسرائيل "فلسطين التاريخية"	9.700	اليهود يشكلون ٥٠,٥% من مجموع سكان ارض إسرائيل "فلسطين التاريخية"	15.200	زيادة ٥,٥ مليون نسمة في ٢٠ سنة يشكل اليهود ٤٢% من مجموع السكان
قبل تنفيذ حق العودة				

المصدر: إسرائيل: ديموغرافيا ٢٠٠٠-٢٠٢٠ "مخاطر واحتمالات" بقلم: ارنون سوفير، ترجمة وتقديم : محمد حمزة غنايم. إبريل ٢٠٠١، تصدر هذه السلسلة عن مدار "المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية" انخفضت معدلات الهجرة إلى إسرائيل حيث بلغت ٣٠-٤٠ ألف سنويا وربما اقل من ذلك بعدما كانت تصل إلى ١٠٠ ألف مهاجر سنويا في السنوات السابقة. وهناك انخفاض في معدلات الزيادة الطبيعية للسكان اليهود في إسرائيل بسبب انخفاض معدل المواليد، ١,٦% في المقابل تزايد معدل الوفيات خصوصا بين المسنين مع الأخذ بعين الاعتبار أن الهرم السكاني الإسرائيلي وصل إلى مرحلة الشيخوخة، أي أن عدد كبار السن اكبر من عدد صغار السن ، حيث بلغت نسبة عدد السكان اقل من ١٧ سنة، ٣٢% سنة ١٩٩٧. إن نسبة زيادة السكان اليهود منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٩٨ تصل إلى ٢٨% في حين تزايد عدد السكان الفلسطينيين داخل إسرائيل بسبعة أضعاف أي ٧٠٠% وكذلك سكان الضفة وقطاع غزة.

المصدر: تقرير بعنوان: حرب ديموغرافية اشد ضراوة وراء العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، الهيئة العامة للاستعلامات -www.sis.gov.ps. ومع ذلك تسعى إسرائيل لتكوين خارطة الدولة العبرية الكبرى، وهذه هي الخارطة.



وفي الختام يأتي فتح مكة

ورد في سفر تثنية الآيات ١-٣ من الإصحاح ٣٣ والتي تشكل المقدمة، والتي تقرأ كما يلي: [وَهَذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى رَجُلُ اللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ ٢ فَقَالَ: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَلَّالاً مِنْ جَبَلِ **فَارَانَ** وَأَتَى مِنْ **رَبَوَاتِ الْقُدْسِ** وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ. ٣ فَأَحَبَّ الشَّعْبَ. جَمِيعُ قَدِيسِيهِ فِي يَدِكَ وَهُمْ جَالِسُونَ عِنْدَ قَدَمِكَ يَتَقَبَّلُونَ مِنْ أَقْوَالِكَ].

وهذه بشارة في الكتاب المقدس عن فتح الرسول ﷺ لمكة، وقد أورد المهتدي الإسكندراني هذه البشارة باللغة العبرية كالتالي والتي تنطق هكذا:

(وَامَادْ أَدُونَايْ مَسِينَايْ إِشْكَلِي وَدَبْهُورْ يَقَايَهْ مَسِيعِيرْ ائْخُزِي لَنَا اسْتِخِي بَغُيُورْتِيَهْ تَمَلْ طُورَادْ **فَارَانَ** وَعَمِيَهْ **مَرْبَوَاتْ قَدِيسِينَ**).

والنص العبري هكذا:

[א וְזאת הַבְּרָכָה, אֲנֹכִי בִרְךָ מִנְּשֵׂה אִישׁ הָאֵלֹהִים-אֶת-בְּנֵי יִשְׂרָאֵל: לְפָנַי, מוֹתוֹ. ב יִיאָמַר, יִהְיֶה מְסִינִי בָּא וְזָרַח מִשְׁעִיר לְמוֹ-הַזֹּפִיעַ מִהָר פָּאָרָן, וְאֶתֶּה **מִרְבֶּבֶת קִדְשׁ**; מִיְמִינוֹ, אֲשֶׁרֶת אֵשׁ דָּת לְמוֹ. ג אֶף חַיִּב עַמִּים, כָּל-קֹדֶשׁ שִׁיּוֹ בִּידְךָ; וְהֵם תָּכוּ לְרַגְלְךָ, יִשָּׂא מִדְּבַר תִּיכָּךְ.]

أرجو ملاحظة كلمة (**مَرْبَبَت** - **مربوات** - **كِدْش** - **قديسين**) الواردة في النص، إنها تعني عشرة آلاف قديس بالتحديد وذلك طبقاً للغة العبرية وطبقاً لما هو وارد في القاموس العبري بالإضافة إلى دقة النص المترجم إلى اللغة الإنجليزية وتحديدًا نسخة الملك جيمس كما سنرى، والعجيب أن القس عبد المسيح بسيط أبو الخير كاهن كنيسة السيدة العذراء الأثرية بمسطرده يحرف النص في كتابه (هل تنبأ الكتاب المقدس عن نبي آخر يأتي بعد المسيح؟) الطبعة الأولى ٢٠٠٤/١/٧ ص حيث أنه قد أثبت الرسم وحرف النطق هكذا:

من (**مَرْبَبَت كِدْش** **مربوات قديسين**) إلى (**مَرْبَبَت كِدْش** - **مرببوت قودش**) فالنص العبري هو هو ولكن النطق غير سليم فمن **مربوات قديسين** إلى **مرببوت قودش**. فما المقصود **مربوات القدس** (**مَرْبَبَت كِدْش** - **مرببوت قودش**) طبقاً لتفسير القس المبجل؟.

يقول بالحرف الواحد ما نصه: [" قودش = قدس أو مقدس "، ومن ثمّ فترجمة النص العبري إلى العربية حرفياً هو:

"أَقْبَلَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ، وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَجَلَّى مِنْ جَبَلِ فَارَانَ؛ وَأَتَى مِنْ رَبِّي الْقُدُسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ مُشْتَغَلَةٌ".

لاحظ أنه نطق كلمة קִדְשָׁא قديسين هكذا: [قودش] لتصبح القدس بعد ذلك ويصبح النص بناء على كلامه كالاتي:

يقول:

[قبل موت موسى النبي مباشرة أخذ يبارك أسباط إسرائيل الإثني عشر ويذكرهم بأعمال الله العظيمة التي عملها معهم طوال رحلة الخروج من مصر، ويعرفهم بماهيّة الرب (يهوه יהוה)) مانح البركة ثم يقدم لهم في الإصحاح الـ ٣٣ بركة فردية خاصة لكل سبط من أسباط إسرائيل الإثني عشر، ويبدأ الإصحاح بقوله " وَهَذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى رَجُلُ اللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: "جَاءَ الرَّبُّ (يهوه יהוה)) مِنْ سَيْنَاءَ وَأَشْرَقَ (يهوه יהוה) لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَلَأَلَا (يهوه יהוה) مِنْ جَبَلِ فَارَانَ وَأَتَى مِنْ رَبَّوَاتِ الْقُدُسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ شَرِيعَةٌ لَهُمْ. "[(تنثية ٣٣/ ٢٠).

تصحيح خطأ جناب القس:

لو نظرنا إلى الترجمة الحرفية للنص نجدها كالتالي:

بداية جاءت العبارة في اللغة العبرية (יְהוָה רַבּוֹתָא – مربوات قديسين) ، وليست كما قال جناب القس: (مربيوت قودش).

مع ملاحظة أن كلمة [י – مي] تعني [مع] وليست [من] ، وكلمة [רַבּוֹתָא – ربوات] تعني [عشرة آلاف] وليست [ربوات جمع ربوة] ، كما يذكر نيافته، كما أن كلمة [קִדְשָׁא] تعني [قديسين] ، وليست [القدس] كما يحاول التضييل، نسأل الله له ولنا الهداية. والمدقق في النص نجد أن جناب القس قد أغفل كلمة (يهوه יהוה) من باقي النص كما هو متبع في شرحه حيث قال:

[وَأَتَى مِنْ رَبَّوَاتِ الْقُدُسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ شَرِيعَةٌ لَهُمْ.] وبناءً على تفسيره يفترض أن يصبح النص هكذا:

[لَوَاتَى (يهوه יהוה) مِنْ رَبَّوَاتِ الْقُدُسِ وَعَنْ يَمِينِهِ (يهوه יהוה) نَارٌ شَرِيعَةٌ لَهُمْ.] حيث أن الضمير في النص يعود على (يهوه יהוה)، ومع ذلك فهو لم يفعل ، لماذا لأنه بعد ذلك أكد أن القادم مِنْ رَبِّي الْقُدُسِ هو السيد المسيح، وإليك إعادة قوله مرة ثانية:

[ومن ثم فترجمة النص العبري إلى العربية حرفياً هو " أَقْبَلَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ، وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَجَلَّى مِنْ جَبَلِ فَارَانَ؛ وَأَتَى مِنْ رَبِّي الْقُدُسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ مُشْتَغَلَةٌ].

والذي نرتاح إليه ونركن، هو ما ذكره المهتدي سعيد الإسكندراني والمهتدي عبد الأحد داوود وليس كما ذكره جناب القس كاهن كنيسة السيدة العذراء الأثرية بمسطرده بالقاهرة، ويصبح النص كالتالي:

[א וְזֶאת הַבְּרָכָה, אֲשֶׁר בֵּרַךְ מֹשֶׁה אֶת הָאֱלֹהִים-אֵת-בְּנֵי יִשְׂרָאֵל:
לְפָנָיו, מוֹתוֹ. ב וַיֹּאמֶר, יְהוָה מִסִּינַי בָּא וַיֵּרָח מִשִּׁעִיר לָמוֹ-הוֹפִיעַ
מִהָר פָּאָרָן, וְאֵתָה מִרְכָּבַת קֹדֶשׁ; מִיְמִינוֹ, אֲשַׁדֵּת אֵשׁ דָּת לָמוֹ] .

وإليك النص من ترجمة King James والتي أنقلها كالاتي:

1 And this is the blessing, wherewith Moses the man of God blessed the children of Israel before his death.

2 And he said, The LORD came from Sinai, and rose up from Seir unto them; he shined forth from mount Paran, and he **came with ten thousands** of saints: from his right hand went a fiery law for them.

والربوات **μυριασι** في اللغة اليونانية وفي اللغة العبرية **רַבְבֹּת** تعني عشرة آلاف، كما جاءت في معاجم اللغة العبرية مثل (Dictionary Young's Hebrew) تعني:

[**multitude, ten thousands,**] **عشرة آلاف.**

أما النص المستشهد به من قبل جناب القس فلقد تم التحريف فيه هكذا:

“ 2 And he said The Lord came from Sinai and dawned over them from Seir; He shone forth from Mount Paran. He came from **myriads of holy ones** from his right hand went a fierly”

ويقوم بالشرح والتعليق على النص بقوله:

" مع ملاحظة أنّ عبارة [holy ones] هي حرفياً [holy one].

ونقلت في بعض الترجمات الإنجليزية ومنها الترجمة الدولية الحديثة ، " **myriads** " NIV

في حين أن كلمة " **myriad** " كما جاء في " The Lexicon Webster Dictionary

والتي استشهد بها نيافته تعني عشرة آلاف وإليك التعريف كما هو وارد في القاموس :

ten "Indefinite, immense number; a multitude of things or people" **thousand**

وما لنا نذهب بعيداً إليك النص التوراتي الشارح لها:

جاء في سفر عزرا الإصحاح الثاني عدد ٦٤ و٦٥:

[٦٣ وَقَالَ لَهُمُ التَّرْشَنَّا أَنْ لَا يَأْكُلُوا مِنْ قُدُسِ الْأَقْدَاسِ حَتَّى يَقُومَ كَاهِنٌ لِلْأُورِيمِ وَالتَّمِيمِ. ٦٤ كُلُّ الْجُمْهُورِ مَعًا اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ مِئَةٍ وَسِتُونَ ٦٥ فَضْلاً عَنْ عِبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ فَهَؤُلَاءِ كَانُوا سَبْعَةَ أَلْفٍ وَثَلَاثَ مِئَةٍ وَسَبْعَةَ وَثَلَاثِينَ وَلَهُمْ مِنَ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَّاتِ مِئَتَانِ].

وجاء في سفر نحemia الإصحاح السابع عدد ٦٥-٧٦:

[٦٥ وَقَالَ لَهُمُ النَّرْشَانَا أَنْ لَا يَأْكُلُوا مِنْ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ حَتَّى يَقُومَ كَاهِنٌ لِلْأُورِيمِ وَالتُّمِيمِ. ٦٦ كُلُّ الْجُمْهُورِ مَعاً أَرْبَعُ رِبَوَاتٍ وَأَلْفَانِ وَثَلَاثُ مِئَةٍ وَسِتُّونَ ٦٧ فَضْلاً عَنْ عِبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا سَبْعَةَ آلَافٍ وَثَلَاثَ مِئَةٍ وَسَبْعَةَ وَثَلَاثِينَ.]

ويقول البروفسور عبد الأحد داوود والذي أورد نصّ الفقرة كالآتي:
[جاء نور الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران وجاء معه عشرة آلاف قديس، والشرية المشعة بيده]...

ففي الكلمات شبه نور الرب بنور الشمس:
" إنه يأتي من سيناء ويشرق من ساعير، ولكنه تلألأ بالمجد من (فاران) حيث يظهر مع عشرة آلاف قديس (مؤمن) ويحمل الشريعة بيده اليميني "
[كتاب " محمد... في كتب اليهود والنصارى " للبروفيسور عبد الأحد داود ص ١٠٠].

و هذا يعني دخول النبي ﷺ مع عشرة آلاف قديس (مؤمن) وجاء بنور الشريعة إلى شعبه فلقد جاء في كتاب (السيرة النبوية وأخبار الخلفاء للإمام الحافظ أبي حاتم بن أحمد التميمي المتوفي ٣٥٤ هـ الطبعة الثالثة صفحة ٣٢٦) والذي كتب عن دخول النبي ﷺ مكة ومعه عشرة آلاف من المسلمين.

الرسول ﷺ يصلي في الكعبة ثم يخطب أمام قريش.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟.

قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: فإنني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:

﴿ قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

اذهبوا فأنتم الطلقاء.

و أليس هذا هو عين الموجود في سورة يوسف ٩١، ٩٢:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ (٩١) قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢).

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ (٩١) قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢).

ماكانات القرآن الكريم:

جاء في ختام سورة يوسف ١٠٣: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [١٢: ٤٩].

وفي هذه الآية الكريمة إشارة لطيفة إذ أنها ضمن منظومة ما يطلق عليها بماكانات القرآن وهي جمع ما كنت.

١ – تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ (هود: ٤٩).

٢ – وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ (الشورى: ٥٢).

٣ – ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَكْثَرُ أَيْهَمُ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ (آل عمران: ٤٤).

٤ – ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ (يوسف: ١٠٢).

٥ – وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ (القصص: ٤٤).

٦ – وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۖ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ (القصص: ٤٥).

٧ – وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ (القصص: ٤٦).

الفصل السادس

سورة يوسف بين التوراة والقرآن

سورة يوسف كما جاءت في الكتاب المقدس ومقارنتها بالقرآن الكريم

ولسوف تلاحظ مدى التطابق بينهما إلى حد ما ولكن المهم في الموضوع كله السؤال التالي: من الذي أعلم النبي ﷺ بما هو موجود بالتوراة والتي كانت مكتوبة باللغة الآرامية القديمة أو العبرية أو حتى اليونانية ، ألا تكفي سورة يوسف ﷺ لتكون دليلاً على صدق النبي ﷺ.

القصة التوراتية كما جاءت في سفر التكوين	القصة القرآنية كما جاءت في سورة يوسف
<p>يوسف وإخوته</p> <p>وأقام يعقوب في أرض كنعان، حيث تغرب أبوه. ٢ وهذه سيرة بني يعقوب: كان يوسف، وهو فتى في السابعة عشرة من عمره، يرعى الغنم مع إخوته بني بلهة وبني زلفة زوجتي أبيه، فأخبر أباه بما يشاع عن مساوئهم. ٣ وكان يعقوب يحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته. فصنع له قميصاً ملوناً. ٤ ورأى إخوته أن أباهم يحبه أكثر منهم جميعاً. فأبغضوه حتى لم يقدروا أن يكلّموه بمودة.</p> <p>٥ ورأى يوسف حلمًا، فلما أخبر به إخوته زاد بُغضهم له. ٦ قال لهم: «إسمعوا هذا الحلم الذي رأيته. ٧ رأيْتُ كأننا نحزم حُزماً في الحقل، فوقفت حُرمتي بعتة وانتصبت ثم أحاطت بها حُرُمكم وسجدت لها». ٨ فقال له إخوته: «أتظن أنك تملك وتتسلط علينا؟» وزاد بُغضهم له لأجل أحلامه وكلامه. ٩ ورأى حلمًا آخر، فقصّه على إخوته قال: «رأيْتُ حلمًا آخر، كأن الشمس ساجدة لي والقمر وأحد عشر</p>	<p>الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ خُنْ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ تَجَتَبَلْكُ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾</p>

كوكبا». ١٠ ولما قصه على أبيه وإخوته
 إنتهره أبوه وقال له: «ما هذا الحلم الذي
 رأيته؟ أنجيء أنا وأمك وإخوتك فنسجد
 لك إلى الأرض؟» ١١ فحسده إخوته. وأما
 أبوه فحفظ هذا الكلام في قلبه.

إخوة يوسف يبيعونه

١٢ وذهب إخوة يوسف ليرعوا غنم أبيهم
 عند شكيم، ١٣ فقال يعقوب ليوسف:
 «إخوتك يرعون الغنم عند شكيم، فتعال
 أرسلك إليهم». قال: «نعم، ها أنا». ١٤
 فقال له: «أذهب وانظر كيف حال
 إخوتك وحال الغنم وجئني بالخبر!»
 وأرسله من وادي حبرون، فجاء إلى
 شكيم. ١٥ وصادفه رجل وهو تائه في
 البرية، فسأله: «ماذا تطلب؟» ١٦ فأجاب:
 «أطلب إخوتي. أخبرني أين يرعون». ١٧
 فقال الرجل: «رحلوا من هنا،
 وسمعتهم يقولون: نذهب إلى دوثان». ١٨
 فسعى يوسف وراء إخوته، فوجدهم في
 دوثان.

١٨ فلما رآوه عن بعد وهو يقترب منهم
 تآمروا ليقتلوه. ١٩ فقال بعضهم لبعض:
 «ها صاحب الأحلام مقبل نحونا.

٢٠ تعالوا نقتله ونطرحه في بئر ونقول:
 «وحش شرس أكله، ونرى ماذا تنفع
 أحلامه». ٢١ فسمع رؤوبين، فأنقذه من
 أيديهم وقال: «لا نقتله!» ٢٢ ثم قال لهم
 رؤوبين: «لا تسفكوا دما. **إطرحوه في هذه
 البئر** التي في البرية ولا ترفعوا أيديكم
 عليه». قال هذا لينقذه من أيديهم ويرده

❖ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ
 لِلْءَلْسَآلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ
 إِلَيْنَا أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا

سَخِلٌ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ؕ

قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا

يُوسُفَ وَالْقَوْهٖ فِي غَيْبَتِ الْحَبِّ يَلْتَقِطُهُ

بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا

يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ

تَذْهَبُوا بِهِ ؕ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ

وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ

الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ؕ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي

غَيْبَتِ الْحَبِّ ؕ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ

هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَءَابَاهُمُ

عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا

نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَعِنَا فَاكْلَهُ

إِلَى أَبِيهِ. ٢٣ فَلَمَّا وَصَلَ يَوْسُفُ إِلَى إِخْوَتِهِ
 نَزَعُوا عَنْهُ الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ الَّذِي يَلْبِسُهُ
 ٢٤ وَأَخَذُوهُ وَطَرَحُوهُ فِي الْبَيْرِ، وَكَانَتْ
 الْبَيْرُ فَارِغَةً لَا مَاءَ فِيهَا، ٢٥ ثُمَّ جَلَسُوا
 يَأْكُلُونَ. وَرَفَعُوا عُيُونَهُمْ فَرَأَوْا قَافِلَةً مِنْ
 الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ مُقْبِلَةً مِنْ جُلْعَادَ، وَجَمَالُهُمْ
 مُحَمَّلَةٌ صُمُغًا وَبَلْسَمًا وَمُرًا، وَهُمْ فِي
 طَرِيقٍ نَزُولِهِمْ إِلَى مِصْرَ. ٢٦ فَقَالَ يَهُوذَا
 لِإِخْوَتِهِ: «مَا الْفَائِدَةُ مِنْ أَنْ نَقْتُلَ أَخَانَا
 وَنُخْفِيَ دَمَهُ؟ ٢٧ تَعَالَوْا نَبِيعْهُ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ
 وَلَا نَرْفَعْ أَيْدِيَنَا عَلَيْهِ، فَهُوَ أَخُونَا مِنْ لَحْمِنَا
 وَدَمِنَا». فَسَمِعَ لَهُ إِخْوَتُهُ.
 ٢٨ وَامَرَ تَجَارٌ مَدْيَانِيُّونَ فَأَمْسَكُوا يَوْسُفَ
 وَأَصْعَدُوهُ مِنَ الْبَيْرِ وَبَاعُوهُ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ
 بَعِشْرِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، فَجَاءُوا بِهِ إِلَى مِصْرَ
 ٢٩ وَرَجَعَ رَأُوبِينُ إِلَى الْبَيْرِ، فَلَمْ يَجِدْ
 يَوْسُفَ فِي الْبَيْرِ، فَمَزَقَ ثِيَابَهُ ٣٠ وَرَجَعَ
 إِلَى إِخْوَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «الْوَلَدُ غَيْرُ مُوجُودٍ،
 وَأَنَا إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟» ٣١ فَأَخَذُوا قَمِيصَ
 يَوْسُفَ وَذَبَحُوا تَيْسًا مِنَ الْمَعَزِ وَغَمَسُوا
 الْقَمِيصَ فِي الدَّمِ. ٣٢ وَأَرْسَلُوا الْقَمِيصَ
 الْمُلَوَّنَ إِلَى أَبِيهِمْ وَقَالُوا: «وَجَدْنَا هَذَا.
 فَتَحَقَّقْ أَقْمِيصُ ابْنِكَ هُوَ أَمْ لَا؟» ٣٣ فَتَحَقَّقَهُ
 وَقَالَ: «قَمِيصُ ابْنِي. وَحَسُّ شَرِّسٍ أَكَلَهُ.
 مَزَقَ يَوْسُفُ تَمْزِيقًا». ٣٤ وَشَقَّ يَعْقُوبُ
 ثِيَابَهُ وَلَبَسَ الْمِسْحَ حَدَادًا عَلَى أَبْنِهِ، وَنَاحَ
 أَيَّامًا كَثِيرَةً. ٣٥ وَقَامَ جَمِيعُ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ
 يُعْزُونَهُ، فَأَبَى أَنْ يَتَعَزَّى وَقَالَ: «بَلْ أَنْزِلُ
 إِلَى عَالَمِ الْأَمْوَاتِ نَائِحًا عَلَى ابْنِي». وَبَكَى
 عَلَيْهِ يَعْقُوبُ.

الَّذِئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا

صَادِقِينَ ﴿٧﴾

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ٣٦ قَالَ بَلْ
 سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ٣٧ وَاللَّهُ
 الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٨﴾

٣٦ وباع المديانيون يوسف في مصر
لفوطيفار، كبير خدام فرعون ورئيس
الطهاة.

الإصحاح ٣٩

يوسف في مصر

وأما يوسف فأنزله الإسماعيليون معهم
إلى مصر، فاشتراه منهم فوطيفار
المصري، كبير خدام فرعون ورئيس
الطهاة. ٢ وكان الرب مع يوسف، فكان
رجلاً ناجحاً وأقام في بيت سيده
المصري.

٣ ورأى سيده أن الرب معه وينجحه في
كل ما عمله يداً، ٤ فنال يوسف حظوة
عنده وخدمه. وأكله فوطيفار على بيته،
وجعل في عهده كل ما كان له. ٥ وكان
منذ وكله على بيته، وعلى كل ما هو له،
أن يبارك الرب بيت فوطيفار المصري
إكراماً ليوسف، وكانت بركة الرب على
كل ما هو له في بيته وفي حقوله. ٦ فترك
كل ما كان له في يد يوسف، وكان لا
يعرف شيئاً مما عنده إلا الخبز الذي كان
يأكله.

محاولة إغراء يوسف

وكان يوسف حسن الهيئة وجميل المنظر.
٧ فحدث بعد ذلك أن امرأة سيده رفعت
عينها إليه وقالت: «اضطجع معي!»
٨ فرفض وقال لها: «سيدي لا يعرف شيئاً

وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه

قال يبشري هذا غلماً وأسروه بضعة

والله عليهم بما يعملون ﴿١٩﴾ وشروه

بثمن نخس درهم معدودة وكانوا فيه

من الزهادين ﴿٢٠﴾ وقال الذي اشتراه من

مصر لمرأته أكرمي مثوه عسى أن

ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا

ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل

الآحاديث والله غالب على أمره ولكن

أكثر الناس لا يعلمون ﴿٢١﴾ ولما بلغ

أشده آتينه حكماً وعِلْماً وكذلك نجزي

المحسنين ﴿٢٢﴾

ورأته التي هو في بيتها عن نفسه

وعلفت الأبواب وقالت هيت لك قال

معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا

مِمَّا فِي الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا يَمْلِكُهُ اَنْتَمَنْتَنِي عَلَيْهِ. ٩ لاَ اَحَدٌ فِي هَذَا الْبَيْتِ اَعْظَمُ مِنِّي اِلَّا سَيِّدِي، وَسَيِّدِي لَمْ يَمْنَعْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكَ لِأَنَّكَ أَمْرَأَتُهُ، فَكَيْفَ أَفْعَلُ هَذِهِ السَّيِّئَةَ الْعَظِيمَةَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللَّهِ؟» 10 وَكَلَّمَتْهُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ أَنْ يَضْطَجَعَ بِجَانِبِهَا وَيَكُونَ مَعَهَا، فَلَمْ يَسْمَعْ لَهَا. ١١ وَحَدَّثَتْ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَقُومَ بِعَمَلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ، ١٢ فَأَمْسَكَتْ بَثْوِبِهِ وَقَالَتْ: «إِضْطَجِعْ مَعِي!» فَتَرَكَ ثَوْبَهُ بِيَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى خَارِجِ الْبَيْتِ. ١٣ فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِيَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى الْخَارِجِ ١٤ اصْاحَتْ بِأَهْلِ بَيْتِهَا وَقَالَتْ لَهُمْ: «انْظُرُوا كَيْفَ جَاءَنَا بِرَجُلٍ عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ لِيُضَاجِعَنِي فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي، ١٥ فَلَمَّا سَمِعَنِي أَرْفَعُ صَوْتِي وَأَصْرُخُ، تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ خَارِجًا».

16 وَوَضَعَتْ الْمَرْأَةُ ثَوْبَ يَوْسُفَ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ زَوْجُهَا إِلَى بَيْتِهِ، ١٧ فَحَكَتْ لَهُ الْحِكَايَةَ ذَاتَهَا. قَالَتْ: «هَذَا الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْنَا بِهِ دَخَلَ لِيُدَاعِبَنِي. ١٨ وَعِنْدَمَا رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ خَارِجًا». ١٩ فَلَمَّا سَمِعَ السَّيِّدُ أَمْرَأَتَهُ تَقُولُ: «هَكَذَا فَعَلَ بِي عَبْدُكَ». «حَمِيَّ غَضِبْتُهُ، ٢٠ فَأَخَذَ يَوْسُفَ وَطَرَحَهُ فِي الْحِصْنِ الَّذِي كَانَ سُجْنَاءُ الْمَلِكِ يُحْبَسُونَ فِيهِ. فَأَقَامَ هُنَاكَ فِي الْحِصْنِ».

[لا يوجد حديث عن الشاهد ولا حديث

يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ١ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ٢ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ٣ وَالْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ٤ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ٥ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ٦ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ٧ وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ٨ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ٩ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ١٠ إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا

عن قول النسوة وومروادتهن ليوسف عن نفسه]

٢١ وكان الربُّ مع يوسفَ فأمدَّه بِرَحْمَتِهِ وَأَنَالَهُ حُطْوَةً عِنْدَ قَائِدِ الْحِصْنِ. ٢٢ وجعلَ قَائِدُ الْحِصْنِ فِي عَهْدَةِ يَوْسُفَ جَمِيعَ السُّجَنَاءِ الَّذِينَ فِي الْحِصْنِ وَأَوَّكَلَ إِلَيْهِ تَدْبِيرَ جَمِيعِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ هُنَاكَ. ٢٣ وكانَ الْقَائِدُ لَا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا فِي عَهْدَةِ يَوْسُفَ، لِأَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَهُ وَكَانَ يُنْجِحُهُ فِي كُلِّ مَا يَعْمَلُ.

وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَأَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُفَّنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ



وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا

يوسف وتفسير الأحلام

وَحَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ رَئِيسَ السَّقَاةِ وَرَئِيسَ الْخُبَّازِينَ خَطَبَا إِلَى سَيِّدِهِمَا فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ. ٢ أَشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمَا ٣ وَحَبَسَهُمَا فِي سِجْنِ بَيْتِ رَئِيسِ الطُّهَّاءِ فِي الْحِصْنِ حَيْثُ كَانَ يَوْسُفُ مَسْجُونًا. ٤ فَأَوَّكَلَ رَئِيسُ الطُّهَّاءِ أَمْرَهُمَا إِلَى يَوْسُفَ، فَاعْتَنَى بِهِمَا مُدَّةَ إِقَامَتِهِمَا فِي السِّجْنِ. ٥ وَفِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ رَأَى كُلُّ مَنِ سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَخُبَّازِهِ الْمَحْبُوسِينَ فِي السِّجْنِ حُلُمًا

لَهُ تَفْسِيرٌ غَيْرُ تَفْسِيرِ الْآخِرِ. ٦ وَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمَا يُوسُفُ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ رَأَاهُمَا مُضْطَرِبَيْنِ ٧ فَسَأَلَهُمَا: «مَا بَالُ وَجْهَيْكُمَا مُكْتَنِبَيْنِ الْيَوْمَ؟» ٨ فَأَجَابَا: «رَأَيْنَا حُلُمًا، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يُفَسِّرُهُ لَنَا». فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ: «أَمَا لِلَّهِ كُلُّ تَفْسِيرٍ؟ قُصَا الْحُلُمَ عَلَيَّ».

٩ فَقَصَّ رَئِيسُ السَّقَاةِ حُلْمَهُ عَلَى يُوسُفَ قَالَ: «رَأَيْتُ فِي حُلْمِي كَأَنَّ كَرْمَةً بَيْنَ يَدَيَّ، ١٠ وَفِي الْكَرْمَةِ ثَلَاثَةُ قُضْبَانٍ، فَمَا إِنِ أَفْرَخَتْ حَتَّى طَلَعَ زَهْرُهَا وَنَضَجَتْ عَنَاقِيدُهَا وَصَارَتْ عِنَبًا. ١١ وَكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدَيَّ، فَأَخَذْتُ الْعِنَبَ وَعَصَرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ وَنَاوَلْتُ الْكَأْسَ لِفِرْعَوْنَ». ١٢ فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: «هَذَا تَفْسِيرُهُ: الثَّلَاثَةُ الْقُضْبَانِ هِيَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. ١٣ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيُرْذَلُ إِلَى مَقَامِكَ، فَتَتَاوَلُ فِرْعَوْنَ كَأْسُهُ كَعَادَتِكَ حِينَ كُنْتَ سَاقِيَهُ. ١٤ وَلَكِنْ مَتَى حَسُنْتَ حَالُكَ تَرَأْفُ بِي وَلَا تَتَسَنَّى، بَلِ أَذْكُرْنِي لِفِرْعَوْنَ فَيُخْرِجَنِي مِنْ هَذَا السِّجْنِ، ١٥ الْآنَ نِي خَطَفْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ، وَطَرَحْتُ هُنَا فِي السِّجْنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا».

٦ وَلَمَّا رَأَى رَئِيسُ الْخُبَّازِينَ أَنْ تَفْسِيرَ الْحُلُمِ كَانَ خَيْرًا، قَالَ لِيُوسُفَ: «حَلُمْتُ أَنَا أَيْضًا كَأَنَّ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ سِلَالٍ مِنَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ، ١٧ وَفِي السَّلَّةِ الْعُلْيَا مُخْتَلَفُ أَصْنَافِ الطَّعَامِ الْمَخْبُوزِ الَّتِي يُحِبُّهَا فِرْعَوْنُ، وَالطَّيْرُ يَأْكُلُهَا مِنَ السَّلَّةِ

مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧﴾ يَصْصَحِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٨﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ يَصْصَحِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴿١٠﴾ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢﴾

فوق رأسي». ١٨ فقال له يوسف: «هذا تفسيره: الثلاث السلال هي ثلاثة أيام. ١٩ بعد ثلاثة أيام ينزع فرعون رأسك عن بدنك ويعلقك على خشبة، **فيأكل الطير لحمك**».

٢٠ وفي اليوم الثالث، يوم مولد فرعون، أقام فرعون وليمة لجميع عبيده، فأحضر رئيس السقاة ورئيس الخبازين إلى أمام رجال حاشيته. ٢١ فرد رئيس السقاة إلى وظيفته ليناول فرعون الكأس، ٢٢ وأما رئيس الخبازين فعلقه على خشبة، كما فسر لهما يوسف. ٢٣ ونسي رئيس السقاة يوسف ولم يذكره لفرعون.

حلم فرعون

وبعد مرور سنتين من الزمان رأى فرعون حلمًا كأنه واقف على شاطئ النهر، ٢ فطلعت من النهر سبع بقرات حسنة المنظر سمينة الأبدان، وأخذت ترعى في المروج. ٣ ثم طلعت وراءها من النهر سبع بقرات قبيحة المنظر هزيلة الأبدان، ووقفت بجانبها على شاطئ النهر. ٤ فأكلت البقرات القبيحة المنظر الهزيلة الأبدان البقرات السبع السمينة الحسنة المنظر. وأفاق فرعون.

ثم نام فرعون ثانية فرأى حلمًا كأن سبع سنابل نبتت في ساق واحدة، وهي ممثلة جيدة، ٦ وكان سبع سنابل نحيلة لفحتها الرياح الشرقية نبتت وراءها. ٧ فابتلعت السنابل النحيلة السنابل الممتلئة وأفاق فرعون، فإذا هو حلم.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعِلْمِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ

بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٢٥﴾

يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات

سيمان يأكلهن سبع عجاف وسبع

سنبلات خضر وأخرى يابست لعلّي أرجع إلى

الناس لعلهم يعلمون ﴿٢٦﴾

٨ وفي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ أَنْزَعَتْ نَفْسُهُ،
 فَأَرْسَلَ وَدَعَا جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَجَمِيعَ
 حُكَمَائِهَا. فَقَصَّ فِرْعَوْنُ عَلَيْهِمْ حُلْمَهُ، فَلَمْ
 يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُفَسِّرَهُ لَهُ. ٩ فَقَالَ رَئِيسُ
 السُّقَاةِ لِفِرْعَوْنَ: «تَذَكَّرُ الْيَوْمَ خَطَايَايَ.
 ١٠ أَحِينَ اشْتَدَّ غَضَبُكَ عَلَى عَبْدِيكَ، أَنَا
 وَرَئِيسُ الْخُبَّازِينَ، حَبَسْتَنَا فِي سِجْنِ بَيْتِ
 رَئِيسِ الطُّهَّاءِ. ١١ فَرَأَيْنَا كِلَانَا فِي لَيْلَةٍ
 وَاحِدَةٍ حُلْمًا لَهُ تَفْسِيرٌ غَيْرُ تَفْسِيرِ الْآخَرِ.
 ١٢ وَكَانَ مَعَنَا هُنَاكَ فَتَى عِبْرَانِيٍّ مِنْ عِبِيدِ
 رَئِيسِ الطُّهَّاءِ فَقَصَّصْنَا عَلَيْهِ مَا حَلُمْنَاهُ.
 فَفَسَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا حُلْمَهُ. ١٣ وَكَمَا فَسَّرَ
 لَنَا كَانَ، فَكَدَدْتَنِي أَيْهَا الْمَلِكُ إِلَى وَظِيفَتِي
 وَعَلَّقْتَ رَئِيسَ الْخُبَّازِينَ عَلَى خَشَبَةٍ.
 ١٤ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَعَا يَوْسُفَ، فَأَسْرَعُوا
 بِهِ مِنَ السِّجْنِ. وَبَعْدَمَا حَلَقَ وَأَبْدَلَ ثِيَابَهُ
 دَخَلَ عَلَى فِرْعَوْنَ، ١٥ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ:
 «رَأَيْتُ حُلْمًا وَمَا مِنْ أَحَدٍ يُفَسِّرُهُ، وَسَمِعْتُ
 عَنْكَ أَنَّكَ إِذَا سَمِعْتَ حُلْمًا تُفَسِّرُهُ».
 ١٦ فَأَجَابَهُ يَوْسُفُ: «لَا أَنَا، بَلِ اللَّهِ هُوَ
 الَّذِي يُجِيبُ فِرْعَوْنَ بِمَا فِيهِ سَلَامَتُهُ».
 ١٧ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيَوْسُفَ: «رَأَيْتُ فِي الْحُلْمِ
 كَأَنِّي وَقَفْتُ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، ١٨ فَطَلَعَتْ
 مِنَ النَّهْرِ سَبْعُ بَقَرَاتٍ سَمِينَةٍ الْأَبْدَانِ حَسَنَةٍ
 الْهَيْئَةِ، فَأَخَذَتْ تَرَعَى فِي الْمَرْجِ.
 ١٩ وَفَجْأَةً طَلَعَتْ وَرَاءَهَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ
 أُخْرَى هَزِيلَةٍ قَبِيحَةٍ الْهَيْئَةِ نَحِيلَةِ الْأَبْدَانِ،
 مَا رَأَيْتُ أَقْبَحَ مِنْهَا فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ.
 ٢٠ فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ النَّحِيلَةَ الْقَبِيحَةُ السَّبْعُ
 الْبَقَرَاتِ الْأُولَى السَّمِينَةَ. ٢١ فَدَخَلَتْ فِي

بُطُونِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّبِعْنَ أَنَّهَا دَخَلَتْ فِيهَا،
وَبَقِيَ مَنْظَرُهَا قَبِيحًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا. وَأَفْقَتْ
مِنْ نَوْمِي. ٢٢ ثُمَّ رَأَيْتُ حُلُمًا آخَرَ كَأَنَّ
سَبْعَ سَنَابِلَ نَبَتَتْ فِي سَاقٍ وَاحِدَةٍ مُمْتَلِئَةً
جَيِّدَةً. ٢٣ وَكَأَنَّ سَبْعَ سَنَابِلَ أُخْرَى يَابِسَةً
نَحِيلَةً لَفَحَتْهَا الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ نَبَتَتْ وَرَاءَهَا.
٢٤ فَأَبْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ النَّحِيلَةَ السَّنَابِلُ الْجَيِّدَةُ.
فَرَوَيْتُ ذَلِكَ لِلسَّحَرَةِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ
يُوضِحَهُ لِي.»

٢٥ فَقَالَ يَوْسُفُ لِفِرْعَوْنَ: «مَا حُلُمُهُ

فِرْعَوْنُ حُلُمٌ وَاحِدٌ، وَاللَّهُ أَوْضَحَ لَكَ مَا
سَيَفْعَلُهُ. ٢٦ السَّبْعُ الْبَقَرَاتُ الْجَيِّدَةُ هِيَ سَبْعُ
سِنِينَ، وَالسَّبْعُ السَّنَابِلُ الْجَيِّدَةُ هِيَ سَبْعُ
سِنِينَ، هُوَ حُلُمٌ وَاحِدٌ. ٢٧ السَّبْعُ الْبَقَرَاتُ
النَّحِيلَةُ الْقَبِيحَةُ الطَّالِعَةُ وَرَاءَهَا، وَالسَّنَابِلُ
النَّحِيلَةُ الَّتِي لَفَحَتْهَا الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ، هِيَ
سَبْعُ سِنِينَ جَوْعًا. ٢٨ فَيَكُونُ أَنَّ اللَّهَ، كَمَا
قُلْتُ لَكَ، أَرَاكَ مَا سَيَفْعَلُ. ٢٩ سَتَجِيءُ سَبْعُ
سِنِينَ فِيهَا شَبَعٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ
مِصْرَ، ٣٠ ثُمَّ تَجِيءُ بَعْدَهَا سَبْعُ سِنِينَ
جَوْعٍ تُنْسِي كُلَّ ذَلِكَ الشَّبَعِ الَّذِي كَانَ فِي
أَرْضِ مِصْرَ. وَيُتْلَفُ الْجَوْعُ الْأَرْضَ
٣١ وَيَكُونُ شَدِيدًا جَدًّا، فَلَا يَتَذَكَّرُ أَهْلُ
الْبِلَادِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّبَعِ.

٣٢ وَمَا تَكَرَّرُ الحُلُمُ عَلَى فِرْعَوْنَ مَرَّتَيْنِ
إِلَّا لِأَنَّ الْأَمْرَ أَقْرَهُ اللَّهُ وَسَيَفْعَلُهُ عَاجِلًا.»

٣٣ «وَالآنَ، فَعَلَى فِرْعَوْنَ أَنْ يَرَى رَجُلًا
فَهِيمًا حَكِيمًا يُقِيمُهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ،
٣٤ وَيُؤْكَلُ وَكَلَاءٌ عَلَى الْأَرْضِ. وَيَأْخُذُ
خُمْسَ غَلَّتِهَا مِنْ سَبْعِ سِنِينَ الشَّبَعِ.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ

فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا

قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ

وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ^ط

فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ

فَسأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ

رَبِّي بِكِدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ

رَاوَدْتُنَّ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ

مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ

الَّتِي كَانَتْ تَكُونُ فِي مَعْنَاهُ لَمَّا رَاوَدَتْهُ عَنْ

نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ

لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

٣٥ فَيَجْمَعُونَ، تَحْتَ سُلْطَةِ فِرْعَوْنَ،
خَيْرَاتِ السَّنِينَ الْآتِيَةِ وَيَخْزِنُونَ الْقَمْحَ فِي
الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ. ٣٦ فَيَكُونُ الطَّعَامُ ذَخِيرَةً
لِسَبْعِ سِنِينَ الْجُوعِ الَّتِي سَتُصِيبُ أَرْضَ
مِصْرَ، فَلَا يَنْقَرِضُ أَهْلُهَا بِالْجُوعِ».

ترقية يوسف

٣٧ فَحَسَّنَ هَذَا الْكَلَامَ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَعِنْدَ
جَمِيعِ رِجَالِ حَاشِيَتِهِ، ٣٨ فَقَالَ لَهُمْ: «هَلْ
نَجِدُ مِثْلَ هَذَا رَجُلًا فِيهِ رُوحُ اللَّهِ؟»
٣٩ وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «بَعْدَمَا أُعْطَاكَ
اللَّهُ كُلَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ، فَلَا فَهِيمَ وَلَا حَكِيمَ
مِثْلَكَ. ٤٠ أَنْتَ تَكُونُ وَكِيلًا عَلَيَّ بَيْتِي،
وإِلَى كَلِمَتِكَ يَنْقَادُ كُلُّ شَعْبِي، وَلَا أَكُونُ
أَعْظَمَ مِنْكَ إِلَّا بِالْعَرْشِ. ٤١ وَهَا أَنَا أُفَيِّمُكَ
حَاكِمًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». ٤٢ وَنَزَعَ
فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ
يُوسُفَ، وَالْبَسَهُ ثِيَابَ كِتَانٍ، وَطَوَّقَ عُنُقَهُ
بِقِلَادَةٍ مِنْ ذَهَبٍ. ٤٣ ثُمَّ أَرْكَبَهُ مَرْكَبَتَهُ
الثَّانِيَةَ وَنَادَى الْحَرَسُ أَمَامَهُ: «ارْكَعُوا».
وَهَكَذَا أَقَامَهُ فِرْعَوْنُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ
مِصْرَ.

٤٤ وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ.
بِدُونِكَ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ يَدَهُ وَلَا رِجْلَهُ فِي كُلِّ
أَرْضِ مِصْرَ. ٤٥ وَسَمَّى فِرْعَوْنُ يُوسُفَ
صَفْنَاتَ فَعْتِيحَ، وَزَوَّجَهُ أَسْنَانَ بِنْتَ فُوطِي
فَارَعَ، كَاهِنَ مَدِينَةِ أُون. وَصَارَ يُوسُفُ
وَصِيًّا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ.
٤٦ وَكَانَ يُوسُفُ أَبْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً حِينَ دَخَلَ

﴿ وَمَا أَطْرَأُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾



وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ۚ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۚ
فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ



في خدمة فرعون ملك مصر. وخرج من بين يديه وجال في كل أرض مصر.

٤٧ وأثمرت الأرض في سبع سنين الشبع خيراً كثيراً، ٤٨ فجمع يوسف كل غلال

السنين السبع التي توالى على أرض مصر وخبزها طعاماً في المدن، كل مدينة وغلل ما حولها من الحقول. ٤٩ فكان ما جمعه من القمح يعادل رمل البحر كثرة، حتى ترك إحصاءه لأنه لم يكن يحصى.

بنو يوسف

٥٠ هو ولد ليوسف ابنان قبل أن تدخل سنة الجوع، وهما اللذان ولدتهما أسنات بنت فوطي فارغ، كاهن مدينة أون. ٥١ فسمى يوسف ابنه البكر منسى لأنه قال:

«أنساني الله كل تعبي وكل أهل بيت أبي». ٥٢ وسمى الثاني أفرام لأنه قال: «جعلني الله مثمراً في أرض شقائي».

53 وكملت سبع سنين الشبع الذي كان في أرض مصر ٥٤ وأبدأت سبع سنين

الجوع تتوالى كما قال يوسف. فكان جوع في جميع البلدان إلا في أرض مصر لأنه كان فيها طعام مخزون. ٥٥ فلما بدأ أهل

مصر يجوعون صرخوا إلى فرعون طالبين الخبز، فقال لهم فرعون: «إذهبوا إلى يوسف. وما يقوله لكم فافعلوه».

٥٦ واشتد الجوع وشمل كل أرض مصر، ففتح يوسف جميع المخازن وباع قمحاً

للمصريين. ٥٧ وجاء الناس من جميع أقطار الأرض إلى مصر ليشتروا قمحاً من يوسف، لأن الجوع كان شديداً في كل

قال أجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ

عليهم ﴿٥٥﴾ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض

يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من

نشاء ﴿٥٦﴾ ولا نضيع أجر المحسنين ﴿٥٦﴾

ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا

يتقون ﴿٥٧﴾

مكان.

أَوَّلُ لِقَاءِ بَيْنِ يَوْسُفَ وَإِخْوَتِهِ

فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ أَنَّ الْقَمْحَ مَوْجُودٌ فِي
مِصْرَ قَالَ لِبَنِيهِ: «مَا بِالْكُم تَنْظُرُونَ
بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؟»^٢ وَقَالَ: «سَمِعْتُ أَنَّ
الْقَمْحَ مَوْجُودٌ فِي مِصْرَ، فَانْزِلُوا إِلَي هُنَاكَ
وَأَشْتَرُوا لَنَا فَنَحْيَا وَلَا نَمُوتَ».^٣ فَانْزَلَ
عَشْرَةٌ مِنْ إِخْوَةِ يَوْسُفَ لِيَشْتَرُوا قَمْحًا مِنْ
مِصْرَ،^٤ أَمَّا بَنِيَامِينَ أَخُو يَوْسُفَ، فَلَمْ
يُرْسِلْهُ يَعْقُوبُ مَعَ إِخْوَتِهِ لِأَنَّهُ قَالَ فِي
نَفْسِهِ: «رَبِّمَا أَصَابَهُ أَذًى».

فَجَاءَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فِي جَمَلَةٍ مِنْ جَاءَ،
لِيَشْتَرُوا قَمْحًا لِأَنَّ الْجَوْعَ كَانَ فِي أَرْضِ
كِنَعَانَ.^٥ وَكَانَ يَوْسُفُ هُوَ الْحَاكِمُ فِي
أَرْضِ مِصْرَ. فَكَانَ يَبِيعُ الْقَمْحَ لِجَمِيعِ
الشُّعُوبِ، فَأَقْبَلَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ
بُيُوجِهِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ.^٦ وَلَمَّا رَأَى يَوْسُفُ
إِخْوَتَهُ عَرَفَهُمْ، فَتَتَكَّرَ لَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ بِجَفَاءٍ
وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟» قَالُوا: «مِنْ
أَرْضِ كِنَعَانَ لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا».

^٨وَعَرَفَ يَوْسُفُ إِخْوَتَهُ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ

يَعْرِفُوهُ.^٩ وَتَذَكَّرَ يَوْسُفُ الْأَحْلَامَ الَّتِي
حَلُمَهَا بِهِمْ فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ! جِئْتُمْ
لِتُرَوَّا مَوَاطِنَ الضُّعْفِ فِي الْبِلَادِ».

وَجَاءَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ

وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾

١٠ اَقَالُوا لَهُ: «لَا يَا سَيِّدِي، جِئْنَا نَحْنُ عِبِيدُكَ لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. ١١ اِنْحَنُ كُلُّنَا إِخْوَةً. نَحْنُ قَوْمٌ شُرَفَاءُ لَا جَوَاسِيسُ».

١٢ اَقَالَ لَهُمْ: «كَلَّا، بَلْ جِئْتُمْ لَتَرَوْا مُوَاطِنَ الضُّعْفِ فِي الْبِلَادِ». ١٣ اَقَالُوا: «نَحْنُ يَا سَيِّدِي اثْنَا عَشَرَ أَخًا، وَبَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي أَرْضِ كِنْعَانَ. أَصْغَرُنَا الْيَوْمَ عِنْدَ أَبِينَا وَالْآخَرُ مَفْقُودٌ». ١٤ اَقَالَ لَهُمْ يَوْسُفُ: «بَلْ مِثْلَمَا قُلْتُ لَكُمْ، أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ. ١٥ وَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ لَا خَرَجْتُمْ مِنْ هُنَا أَوْ يَجِيءَ أَخُوكُمْ الصَّغِيرُ إِلَى هُنَا. وَبِهَذَا أُمْتَحِنُكُمْ.

١٦ فَأَرْسِلُوا وَاحِدًا مِنْكُمْ لِيَجِيءَ بِأَخِيكُمْ، وَأَنْتُمْ تُحْبَسُونَ حَتَّى نَمْتَحِنَ صِدْقَ كَلَامِكُمْ، وَإِلَّا فَقَسَمًا بِحَيَاةِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ».

١٧ فَحَبَسَهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

١٨ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ قَالَ لَهُمْ يَوْسُفُ: «أَنَا رَجُلٌ أَخَافُ اللَّهَ. افْعَلُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ فَتَحْيَا. ١٩ إِنْ كُنْتُمْ شُرَفَاءَ. فَوَاحِدٌ مِنْكُمْ يَبْقَى فِي هَذَا الْحَبْسِ. أَمَّا أَنْتُمْ الْآخَرُونَ فَادْهَبُوا وَمَعَكُمْ قَمْحٌ يَسُدُّ جُوعَ أَهْلِ بَيْوتِكُمْ ٢٠ وَجِيئُوا بِأَخِيكُمْ الصَّغِيرِ إِلَيَّ لِيَتَحَقَّقَ كَلَامُكُمْ وَلَا تَمُوتُوا». فَوَافَقُوا عَلَى ذَلِكَ.

٢١ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «نَعَمْ، نَحْنُ أَخْطَأْنَا إِلَى يَوْسُفَ أَخِينَا. رَأَيْنَاهُ فِي ضَيْقٍ، وَلَمَّا اسْتَرْحَمْنَا لَمْ نَسْمَعْ لَهُ. لِذَلِكَ نَزَلَ بِنَا هَذَا الضَّيْقُ».

٢٢ فَأَجَابَهُمْ رَأُوبِينُ: «أَمَّا قُلْتُ لَكُمْ: لَا تَخْطَاؤُوا وَتُسَيِّئُوا إِلَى الْوَلَدِ، فَلَمْ تَسْمَعُوا؟ لِذَلِكَ نَحْنُ الْآنَ مُطَالَبُونَ بِدِمِهِ». ٢٣ وَمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ يَوْسُفَ يَفْهَمُ لُغَتَهُمْ، لِأَنَّهُ

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُّونِي بِأَخٍ لَّكُمْ
مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا
خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا
سُرُّودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

كَانَ يَسْتَعِينُ بِتَرْجَمَانٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

٢٤ فَمَالَ عَنْهُمْ وَبَكَى، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ، وَأَخَذَ مِنْ بَيْنِهِمْ شِمْعُونَ وَقَيْدَهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ.

العودة إلى أرض كنعان

٢٥ وَأَمَرَ يَوْسُفُ رَجَالَهُ أَنْ يَمْلَأُوا أَوْعِيَةَ إِخْوَتِهِ قَمْحًا وَيَرْثُوا فِضَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى عَدْلِهِ، وَأَنْ يُعْطَوْهُمْ زَادًا لِلطَّرِيقِ، فَفَعَلُوا. ٢٦ وَحَمَلَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ قَمْحَهُمْ عَلَى حُمِيرِهِمْ وَسَارُوا مِنْ هُنَاكَ. ٢٧ فَلَمَّا تَوَقَّفُوا لِلْمَبِيتِ، فَتَحَ أَحَدُهُمْ عَدْلَهُ لِيُعْطِيَ عُلْفًا لِحِمَارِهِ، فَرَأَى فِضَّتَهُ فِي فَمِ عَدْلِهِ. ٢٨ فَقَالَ لِإِخْوَتِهِ: «رُدَّتْ فِضَّتِي، وَهَا هِيَ فِي عَدْلِي». فَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ فَرَعًا، وَالتَفَتَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا: «مَاذَا فَعَلَ اللَّهُ بِنَا؟»

٢٩ وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ فِي

أَرْضِ كَنْعَانَ أَخْبَرُوهُ بِكُلِّ مَا جَرَى لَهُمْ، فَقَالُوا: ٣٠ «خَاطَبَنَا سَيِّدُ تِلْكَ الْأَرْضِ بِقِسَاوَةٍ وَحَسَبْنَا مِنَ الْجَوَاسِيْسِ. ٣١ فَقُلْنَا لَهُ: نَحْنُ قَوْمٌ شُرَفَاءُ لَا جَوَاسِيْسُ. ٣٢ نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ أَخًا مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ، أَحَدُنَا مَفْقُودٌ وَالصَّغِيرُ الْيَوْمَ عِنْدَ آبِينَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٣٣ فَقَالَ لَنَا: «بِهَذَا أَعْرِفُ أَنْكُمْ قَوْمٌ شُرَفَاءُ: دَعُوا عِنْدِي أَخَا مِنْكُمْ، وَخَذُوا مَا يَسُدُّ جُوعَ أَهْلِ بُيُوتِكُمْ وَانصَرِفُوا ٣٤ وَجِئُوا بِأَخِيكُمُ الصَّغِيرِ إِلَيَّ، فَأَعْرِفَ

وَقَالَ لِفَتَيَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٤﴾

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ

أَنْكُمْ قَوْمٌ شُرَفَاءُ لَا جَوَاسِيْسُ فَأَعْطِيكُمْ
أَخَاكُمْ وَتَجُولُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ».

٣٥ وَبَيْنَمَا هُمْ يُفَرِّغُونَ عِدَالَهُمْ، وَجَدَ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ صُرَّةَ فَضَّتِهِ فِي عِدْلِهِ. فَلَمَّا
رَأَوْا صُرَرَ الْفِضَّةِ، هُمْ وَأَبُوهُمْ، خَافُوا.

٣٦ فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ أَبُوهُمْ: «أَفَقَدْ تَمُونِي
بَنِي. يَوْسُفُ مَفْقُودٌ وَشَمْعُونُ مَفْقُودٌ، وَالْآنَ
تَأْخُذُونَ بَنِيَامِينَ. هَذَا كُلُّهُ نَزَلَ عَلَيَّ».

٣٧ فَأَجَابَ رَأُوبِينُ أَبَاهُ: «أَعُوذُ بِهِ إِلَيْكَ أَوْ
تَقْتُلُ وَلَدِي. سَلَّمَهُ إِلَى يَدَيَّ وَأَنَا أَرُدُّهُ
إِلَيْكَ». ٣٨ فَقَالَ يَعْقُوبُ: «لَا يَنْزِلُ ابْنِي
مَعَكُمْ. أَخُوهُ مَاتَ وَهُوَ وَحْدَهُ بَقِيَ لِي، فَإِنْ
أَصَابَهُ أَدَى فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَسْلُكُونَهَا
أَنْزَلْتُمْ شَيْبَتِي بِحَسْرَةٍ إِلَى عَالَمِ الْأَمْوَاتِ».

عودة بني يعقوب ومعهم بنيامين

وَلَكِنَّ الْجُوعَ أَشَدَّ فِي الْأَرْضِ. ٢ فَلَمَّا
فَرَّغُوا مِنْ أَكْلِ الْقَمْحِ الَّذِي جَاؤُوا بِهِ مِنْ
مِصْرَ، قَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: «إِرْجِعُوا اشْتَرُوا
لَنَا قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ». ٣ فَأَجَابَهُ يَهُوذَا:
«لَكِنَّ الرَّجُلَ هَدَدْنَا وَقَالَ: لَا تَرُونَ وَجْهِي
إِلَّا وَأَخُوكُمْ مَعَكُمْ. ٤ فَإِنْ أُرْسَلْتَ أَخَانَا
مَعَنَا نَزَلْنَا وَاشْتَرَيْنَا لَكَ طَعَامًا، هُوَ إِنْ لَمْ
تُرْسَلْهُ لَا نَنْزِلُ، لِأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا: لَا
تَرُونَ وَجْهِي إِلَّا وَأَخُوكُمْ مَعَكُمْ». ٦ فَقَالَ
يَعْقُوبُ: «وَلِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ وَأَخْبَرْتُمُ الرَّجُلَ
أَنْ لَكُمْ أَخَا آخَرَ؟» ٧ قَالُوا: «سَأَلَ الرَّجُلُ
عَنَّا وَعَنْ عَشِيرَتِنَا وَقَالَ: هَلْ أَبُوكُمْ حَيٌّ
بَعْدُ؟ وَهَلْ لَكُمْ أَخٌ؟ فَردَدْنَا لَهُ الْجَوَابَ،
فَكَيْفَ كُنَّا نَعْرِفُ أَنَّهُ سَيَقُولُ: أَحْضِرُوا
أَخَاكُمْ؟»

إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَأَبَّأْنَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَعْتُنَا
رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ
كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾

قَالَ لَنْ أُرْسِلُهُ مَعَكُمْ حَتَّى تَوْثُونِ مَوْثِقًا
مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ
فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ
وَكَيْلٌ ﴿١٦﴾

٨ وقال يهوذا لأبيه: «أرسل الصبيّ معي حتى نقوم ونمضي، فنحيا ولا نموت نحن وأنت وأطفالنا جميعاً. ٩ أنا أضمنه. ومن يدي تطلبه. إن لم أعد به إليك سالماً، فأنا مخطئ إليك طول الزمان. ١٠ ولولا أننا أضعنا وقتنا، لكنا الآن رجعنا مرتين».

١١ فقال لهم أبوهم: «إن كان لا بد من ذلك فافعلوه. خذوا من أطيب فاكهة الأرض في أوعيتكم وأحملوها هدية إلى الرجل. خذوا شيئاً من البلسم، وشيئاً من العسل ومسكاً وعلكاً وفستقاً ولوزاً. ١٢ وخذوا معكم فضة أخرى في أيديكم: والفضة المردودة في أفواه عدلكم رُدُّوها معكم، فربما كان ذلك سهواً. ١٣ وخذوا أخاكم وقوموا أرجعوا إلى الرجل، ١٤ والله القدير يجعل الرجل يرحمكم فيطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين وإن فقدت بني أكون فقدتهم».

١٥ فأخذ الإخوة هذه الهدية، وأخذوا فضة أخرى في أيديهم وبنيامين وقاموا ونزلوا إلى مصر ووقفوا في حضرة يوسف. ١٦ فلما رأى يوسف بنيامين معهم قال لوكيل بيته: «أدخل هؤلاء الرجال إلى البيت وأطبخ طعاماً وهيئه ليأكلوا معي عند الظهر». ١٧ فأدخلهم الرجل إلى البيت كما أمره يوسف.

١٨ فخافوا لما دخلوا إلى بيت يوسف وقالوا: «أدخلنا إلى هنا بسبب الفضة التي رُدَّت في عدالنا أول مرة ليستضعفنا وينقص علينا ويأخذنا عبيداً ويأخذ

وَقَالَ يَسَنَّى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ

وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ

مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٧﴾

حميرنا». ١٩ افتقدتموا إلى وكيل بيت

يوسف وقالوا له عند باب البيت:

٢٠ «إسمع يا سيدي، نزلنا إلى مصر أول

مرة لنشتري طعامًا، ٢١ فلما توقفنا للمبيت

في طريق عودتنا، فتحنا عدالنا فوجد كل

واحد منا فضته في قم عدله بكامل وزنها،

فرددناها معنا ٢٢ وجئنا بفضة أخرى معنا

لنشتري طعامًا، ونحن لا نعرف من

وضع فضتنا في عدالنا». ٢٣ فقال الرجل:

«سلام لكم. لا تخافوا. إلهكم وإله أبيكم

رزقكم كنزًا في عدالكم، وأما فضتكم

فصارت عندي». ثم أخرج إليهم شمعون

٢٤ وأدخلهم إلى بيت يوسف، وأعطاهم

ماء ليغسلوا أرجلهم وعلفًا لحميرهم.

٢٥ وهياؤوا الهدية ليوسف حين يجيء عند

الظهر، لأنهم سمعوا بأنهم سيأكلون

طعامهم هناك.

٢٦ ولما جاء يوسف إلى البيت قدّموا إليه

الهدية التي معهم وسجدوا له إلى الأرض.

٢٧ فسألهم عن سلامتهم وقال: «هل أبوكم

الشيخ الذي ذكرتموه لي في سلام؟ أحي

هو بعد؟» ٢٨ قالوا: «أبونا يا سيدي في

سلام، وهو حي بعد». وأنحنوا له

ساجدين. ٢٩ فرفع عينيه ونظر إلى

بنيامين أخيه ابن أمه وقال: «أهذا أخوكم

الصغير الذي ذكرتموه لي؟» وقال له:

«يتحزن الله عليك يا ابني». ٣٠ ثم أسرع

يوسف إلى الخارج لأن قلبه حنّ على

أخيه وطلبت نفسه البكاء، فدخل إلى

غرفته وبكى هناك. ٣١ ثم غسل وجهه

ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما

كان يغني عنهم من الله من شيء إلا

حاجة في نفس يعقوب قضها وإنه لذو

علم لما علمته ولكن أكثر الناس لا

يعلمون ﴿٣٨﴾

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه

قال إني أنا أخوك فلا تبتسب بما كانوا

يعملون ﴿٣٩﴾

وخرج وتَمَالَكَ نَفْسَهُ وَقَالَ: «قَدِّمُوا
الطَّعَامَ». ٣٢ فَقَدِّمُوا لَهُ وَحِدَهُ، وَلَهُمْ
وَحِدَهُمْ، وَلِلْمِصْرِيِّينَ الْآكِلِينَ عِنْدَهُ وَحِدَهُمْ.
لَأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مَعَ
الْعِبْرَانِيِّينَ لَنَلَّا يَتَنَجَّسُوا. ٣٣ وَجَلَسَ الْإِخْوَةُ
قُدَّامَهُ، كُلُّ وَاحِدٍ فِي مَرْتَبَتِهِ: الْبِكْرُ أَوَّلًا
وَالصَّغِيرُ آخِرًا، فَنَظَرَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ مُتَعَجِّبِينَ. ٣٤ وَأَرْسَلَ يُوسُفُ بَعْضَ
الطَّعَامِ مِنْ مَائِدَتِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَانَتْ حِصَّةُ
بَنِيَامِينَ خَمْسَةَ أَضْعَافِ حِصَّةِ الْوَاحِدِ
مِنْهُمْ. وَشَرَبُوا مَعَهُ حَتَّى سَكَرُوا.

كأس يوسف في عدل بنيامين

ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لَوَكِيلِ بَيْتِهِ أَمْلَأْ عِدَالَ
هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ طَعَامًا قَدْرَ مَا يُطَبِّقُونَ حِمْلَهُ،
وَضَعْ فِضَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ فِي فَمِ عَدْلِهِ.

٢ وَضَعَ كَأْسِي الَّتِي مِنَ الْفِضَّةِ فِي فَمِ عِدْلِ
أَصْغَرِهِمْ مَعَ فِضَّتِهِ ثَمَنَ قَمْحِهِ». ففعل كما
أمره يوسف. ٣ فلما أضاء الصُّبْحُ أَنْصَرَفَ
الرِّجَالُ بِحَمِيرِهِمْ. ٤ فَمَا إِنْ خَرَجُوا مِنْ
الْمَدِينَةِ وَابْتَعَدُوا قَلِيلًا حَتَّى قَالَ يُوسُفُ
لَوَكِيلِ بَيْتِهِ: «قُمْ اتَّبِعْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، فَإِذَا
لَحَقْتَ بِهِمْ فَقُلْ لَهُمْ: لِمَاذَا كَفَأْتُمْ الْخَيْرَ
بِالشَّرِّ؟ هَلِمَاذَا سَرَقْتُمْ كَأْسَ الْفِضَّةِ الَّتِي
يَشْرَبُ بِهَا سَيِّدِي، وَبِهَا يَرَى أَحْوَالُ
الْغَيْبِ؟ أَسَأْتُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ».

٦ فَلَحِقَ الرَّجُلُ بِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكَلَامَ.

٧ فَأَجَابُوهُ: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ سَيِّدِي بِمِثْلِ هَذَا
الْكَلَامِ؟ حَرَامٌ عَلَى عِبِيدِكَ أَنْ يَعْمَلُوا عَمَلًا
كَهَذَا. ٨ تِلْكَ الْفِضَّةُ الَّتِي وَجَدْنَاهَا فِي أَفْوَاهِ
عِدَالِنَا رَدَدْنَاهَا إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ،

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي

رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَيْتِهَا الْعَيْرِ إِنَّكُمْ

لَسَرِقُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا

تَفْقِدُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعِ الْمَلِكِ

وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٤﴾

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي

الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٧٥﴾

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٦﴾

فكيف نَسْرِقُ مِنْ بَيْتِ سَيِّدِكَ فَضَّةً أَوْ ذَهَبًا؟ ٩ إِنْ وَجَدْتَ الْكَأْسَ مَعَ أَحَدٍ مِنَّا نَحْنُ عِبِيدُكَ فَاقْتُلْهُ، وَنَحْنُ أَيْضًا نَكُونُ عِبِيدًا لَكَ يَا سَيِّدِي». ١٠ أَفَقَالَ: «حَسَنًا، فَلْيَكُنْ كَمَا تَقُولُونَ. مَنْ وَجَدْتَ الْكَأْسَ مَعَهُ يَكُونُ لِي عَبْدًا، وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ أَبْرِيَاءَ». ١١ أَفَسَرَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَأَنْزَلَ عِذْلَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَفَتَحَهُ، ١٢ افْتَشَّهُمْ مُبْتَدِئًا بِالْأَكْبَرِ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الْأَصْغَرِ، فَإِذَا الْكَأْسُ فِي عِذْلِ بَنِيَامِينَ. ١٣ اِفْمَرْقُوا ثِيَابَهُمْ، وَحَمَلَ كُلُّ وَاحِدٍ حِمَارَهُ، وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ. ١٤ أَوْدَخَلَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ إِلَى بَيْتِ يَوْسُفَ، وَهُوَ بَعْدَ هُنَاكَ، وَوَقَعُوا سَاجِدِينَ أَمَامَهُ إِلَى الْأَرْضِ. ١٥ أَفَقَالَ لَهُمْ يَوْسُفُ: «مَا هَذَا الْعَمَلُ الَّذِي عَمِلْتُمْ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ رَجُلًا مِثْلِي يَرَى أَحْوَالَ الْغَيْبِ؟» ١٦ أَفَقَالَ يَهُوذَا: «بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا سَيِّدِي، وَمَاذَا نَقُولُ لَكَ، وَكَيْفَ نَتَّبَرَأُ بَعْدَ أَنْ كَشَفَ اللَّهُ جُرْمَنَا، نَحْنُ عِبِيدُكَ؟ هُنَا نَحْنُ عَبِيدُكَ يَا سَيِّدِي، نَحْنُ وَمَنْ وَجَدْتَ الْكَأْسَ مَعَهُ». ١٧ فَأَجَابَ يَوْسُفُ: «حَرَامٌ عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ هَذَا، بَلِ الرَّجُلُ الَّذِي وَجَدْتَ الْكَأْسَ مَعَهُ هُوَ يَكُونُ لِي عَبْدًا، وَأَنْتُمْ تَرْجِعُونَ بِسَلَامٍ إِلَى آبَائِكُمْ».

وساطة يهوذا

١٨ افْتَقَدَمَ إِلَيْهِ يَهُوذَا وَقَالَ: «عَفْوِكَ يَا سَيِّدِي. دَعْنِي أَقُولُ كَلِمَةً عَلَى مَسْمَعِكَ، وَلَا يَشْتَدَّ غَضَبُكَ عَلَيَّ أَنَا عَبْدُكَ، فَأَنْتَ مِثْلُ فِرْعَوْنَ. ١٩ سَأَلْتَنِي يَا سَيِّدِي هَلْ لَكُمْ أَبٌ أَوْ أَخٌ؟ ٢٠ فَأَجَبْنَاكَ: لَنَا يَا سَيِّدِي أَبٌ

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ٧ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ٨ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ٩ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ١٠ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾ ١١ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ١٢ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٢﴾

قَالُوا يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا

فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ١٨ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ

إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ ١٩ إِنَّا إِذَا

شيخ، وابن صغير ولد له في شيخوخته،
أخوه مات وبقي هو وحده لأمه، وأبوه
يُحبّه. ٢١ فقلت لنا يا سيدي: أحضروه إليّ
حتى ألقى نظري عليه. ٢٢ فقلنا لك يا
سيدي: لا يقدر الصّغير أن يترك أباه،
وإن تركه يموت أبوه. ٢٣ فقلت لنا: إن لم
ينزل أخوكم الصّغير معكم، فلا تعودوا
تروّن وجهي. ٢٤ فلما صعدنا إلى عبدك
أبي أخبرناه بما قلت لنا يا سيدي.
٢٥ وقال أبونا: إرجعوا اشتروا لنا قليلاً
من الطّعام. ٢٦ فقلنا: لا نقدر أن ننزل،
لأننا لا نقدر أن نرى وجه الرجل إلا إذا
كان أخونا الصّغير معنا. ٢٧ فقال لنا
عبدك أبي: أنتم تعلمون أن امرأتي راحيل
ولدت لي ابنين. ٢٨ فخرج أحدهما من
بيتي وقلت مزقه حيوان مفترس d، لأنني
إلى الآن ما رأيت له وجهاً. ٢٩ فإن أخذتم
أبني هذا أيضاً من أمامي فأصابه أذى،
أنزلتم شيبتي بالبؤس إلى عالم الأموات.
٣٠ والآن إذا رجعنا إلى عبدك أبينا، ولم
يكن الصّبي معنا، وحياة أبي متعلّقة
بحياته، ٣١ يموت عندما يرى الغلام
مفقوداً فننزل شيبه أبينا بحسرة إلى عالم
الأموات. ٣٢ ثم إنني يا سيدي ضمنت
الصّبي لأبي، فقلت له: أعود به أو أكون
مخطئاً إليك طول الزّمان. ٣٣ والآن دعني
يا سيدي أبقى مكان الصّبي عبداً لك،
وليعذ هو مع إخوته. ٣٤ وإلا فكيف أعود
إلى أبي ولا يكون الصّبي معي، فأرى
الشر الذي يحل بأبي».

لظلموت ﴿٧١﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا
خَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ
قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا
فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى
يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴿٧٢﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا
يَتَابَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا
عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٧٣﴾ وَسَأَلَ
الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
وإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ
يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿٧٥﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّسِفُ
عَلَى يُوسُفَ وَأَبِیْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ
فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكُرُ
يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ

يوسف يتعرف إلى إخوته

فلم يقدِّر يوسف أن يضبط نفسه أمام جميع القائمين على خدمته فصاح: «أخرجوا كل واحد من هنا». فلم يكن عنده أحد حين تعرَّف يوسف إلى إخوته. ٢ فرفع صوته بالبكاء فسمعه المصريون وسمعه أهل بيت فرعون. ٣ وقال يوسف لإخوته: «أنا يوسف. أحي أبي بعد؟» فلم يقدِّر إخوته أن يجيبوه لفزعهم منه. ٤ فقال يوسف لإخوته: «تقدّموا إليّ» فتقدّموا. فقال: «أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر. هو الآن لا تأسفوا ولا تستأثروا لأنكم بعتموني إلى هنا، لأن الله أرسلني أمامكم لأحفظ حياتكم. ٦ مضت الآن سنتا جوع في الأرض، وبقي خمس سنين لا فلاحه فيها ولا حصا، ٧ فأرسلني الله أمامكم ليبقي لكم نسلا في الأرض ويُنجي الأحياء منكم. ٨ فما أنتم الذين أرسلتُموني إلى هنا، بل الله. وهو جعلني وصيا عند فرعون، وسيِّدا لجميع أهل بيته، ومتسلطا على كل أرض مصر. ٩ فأسرعوا بالعودة إلى أبي وقلوا له: هذا ما يقوله ابنك يوسف: جعلني الله سيِّدا لجميع المصريين. تعال إلي ولا تتأخر، ١٠ افتقِم بأرض جاسان وتكون قريبا مني، أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرتك وكل ما هو لك. ١١ وأعوذك هناك لأنه بقي خمس سنين جوع، فلا يُعوزك شيء، أنت وأهل بيتك وكل ما هو لك ١٢ وهذه غيُونكم ترى، وعينا أخي بنيامين أيضا،

يوسف وأخيه ولا تأيسسوا من روح الله إنه لا يائس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ تَجَزَى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَ الْعَبْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ

أني أنا الذي يُخاطبُكم. ١٣ فأخبروا أبي بكلِّ مَجدي في مِصرَ وبِكلِّ ما رَأَيْتُمْ، وأسرعوا بالمَجِيءِ بِهِ إلى هُنا».

١٤ وعانقَ يوسفُ بنيامينَ أخاهُ وبكى، وبكى بنيامينُ على عُنُقِهِ. ١٥ وقَبِلَ سائرَ إخوتِهِ وبكى مَعَهُمْ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا يُكَلِّمُونَهُ.

دعوة فرعون

١٦ وبلغَ قَصرَ فرعونَ خَبرُ مَجِيءِ إِخْوَةِ يوسفَ، فَسَرَ الخَيرُ فرعونَ وَرِجالَ حاشِيَتِهِ ١٧ فقالَ فرعونُ لِيُوسُفَ: «قُلْ لِإِخْوَتِكَ: حَمِّلُوا دَوَابَّكُمْ وَأَرْجِعُوا إِلَى أَرْضِ كِنَعَانَ. ١٨ وأخذوا أَبائَكُمْ وَأَهْلَ بيوْتِكُمْ وتعالوا إِلَيَّ فَأُعْطِيَكُمْ أَجودَ أَرْضٍ في مِصرَ، وتأكلوا خيراتِ الأَرْضِ. ١٩ وأوصيكَ أَنْ تقولَ لَهُمْ أَيضًا: خذوا لَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصرَ مَرَكِبَاتٍ لِأُطْفَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَاحْمِلُوا أَبائَكُمْ وَتعالوا. ٢٠ وَلَا تَتَوَجَّعْ قُلُوبُكُمْ عَلَى أَمْلاكِكُمْ، فَأُجودُ جَمِيعَ ما في أَرْضِ مِصرَ هُوَ لَكُمْ».

العودة إلى أرض كنعان

٢١ ففعلَ بَنُو يَعْقوبَ كما أَمَرَهُمُ فرعونُ. وَأَعْطاهُمُ يوسفُ مَرَكِبَاتٍ وَزادًا لِلطَّرِيقِ ٢٢ وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثِيابًا فاخِرَةً، وَخَصَّ بَنِيامينَ بِثَلَاثِ مِئَةٍ مِنَ الفِضَّةِ وَخَمْسِ حُلَلٍ مِنَ الثِّيَابِ، ٢٣ وَأَرْسَلَ إِلَى أَبِيهِ أَيضًا عَشْرَةَ حَمِيرٍ مُحَمَّلَةٍ مِنْ خَيْرِ ما في مِصرَ، وَعَشْرَ أَثْنِ مُحَمَّلَةٍ قَمَحًا وَخَبزًا وَزادًا لِسَفَرِ أَبِيهِ. ٢٤ ثُمَّ صَرَفَ إِخْوَتَهُ فِي سَبِيلِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: «لَا تَبْطُئُوا فِي

الْبَشِيرُ الْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ٢٥ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا

ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَوْفَ

أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

﴿٢٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ

أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ

﴿٢٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ

سُجَّدًا ٣٠ وَقَالَ يَتَّابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ

قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ

أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ

مِنْ بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ

إِخْوَتِي ٣١ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

﴿٣٣﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ

تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا

وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ

الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

الطَّرِيقِ».

25 فَصَعِدُوا مِنْ مِصْرَ وَجَاؤُوا إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ فِي أَرْضِ كِنَعَانَ. ٢٦ وَقَالُوا لَهُ:

«يُوسُفُ حَيٌّ بَعْدُ، وَهُوَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ». فَجَمَدَ قَلْبُهُ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ.

27 فَلَمَّا أَخْبَرُوهُ بِكُلِّ مَا قَالَهُ لَهُمْ يُوسُفُ، وَرَأَى الْمَرَكَبَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لِنَحْمِلَهُ إِلَى مِصْرَ، انْتَعَشَتْ رُوحُهُ

٢٨ وَقَالَ لَهُمْ: «كَفَانِي أَنْ يَوسُفَ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ. أَذْهَبُ وَأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ.»

رحيل يعقوب إلى مصر

فَرَحَلَ يَعْقُوبُ بِجَمِيعِ مَا كَانَ لَهُ وَجَاءَ إِلَى بَنِي سَبْعَ، فَذَبَحَ ذَبَائِحَ لِإِلَهِ أَبِيهِ إِسْحَقَ.

٢ فَقَالَ لَهُ اللَّهُ لَيْلًا فِي رُؤْيَا: «يَعْقُوبُ، يَعْقُوبُ!» قَالَ: «نَعَمْ، هَا أَنَا». ٣ قَالَ: «أَنَا

اللَّهُ إِلَهُ أَبِيكَ. لَا تَخَفْ أَنْ تَنْزِلَ إِلَى مِصْرَ، فَسَأَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. ٤ أَنَا أَنْزِلُ

مَعَكَ إِلَى مِصْرَ وَأَنَا أُصْعِدُكَ مِنْهَا وَيُوسُفُ هُوَ يُغَمِّضُ عَيْنَيْكَ سَاعَةَ تَمُوتُ».

٥ فقام يعقوب من بني سبع. وحمله بنوه، كما حملوا أطفالهم ونساءهم على

المركبات التي أرسلها فرعون. ٦ وأخذوا ماشيتهم وكل ما اقتنوه في أرض كنعان

وجاءوا إلى مصر. وكان مع يعقوب جميع نسله: ٧ بنوه وبنو بنيه وبناته وبنات

بنيه، عندما جاء إلى مصر.

بنو يعقوب

٨ وهذه أسماء بني يعقوب الذين جاؤوا إلى مصر: رأوبين بكر يعقوب، ٩ وبنو

رأوبين: حنوك وفلو وحصرون وكرمي،

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٢ وَمَا أَكْثَرَ

النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣ وَمَا

تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِّلْعَالَمِينَ ١٤ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ

١٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ

مُشْرِكُونَ ١٦ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ

عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ١٧ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى

اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ١٨ وَسُبْحَنَ

اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٩ وَمَا أَرْسَلْنَا

مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ

الْقُرَى ٢٠ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ

الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ

٢١ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ

كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ٢٢

وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ٢٣

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصَدِّقُ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

١٠ ابْنُو شِمْعُون: يَمْوَيْلُ وَيَامِينُ وَأُوهُدُ
وَيَاكِينُ وَصُوحْرُ وَشَاوُلُ ابْنُ الْكَنْعَانِيَّةِ،
١١ ابْنُو لَآوِي: جَرشُونُ وَقَهَاتُ وَمَرَارِي،
١٢ ابْنُو يَهُوذَا عِيرُ وَأُونَانُ اللَّذَانِ مَاتَا فِي
أَرْضِ كَنْعَانَ وَشَيْلَةُ وَفَارَصُ وَزَارَحُ،
وَأَبْنَا فَارَصَ: حَصْرُونُ وَحَامُولُ، ١٣ ابْنُو
يِسَّاكِرَ: تَوْلَاخُ وَفُوَّةُ وَيُوبُ وَشِمْرُونُ،
١٤ ابْنُو زَبُولُونَ: سَارَدُ وَإِيلُونُ وَيَا حَلْثِيلُ.
١٥ هَؤُلَاءِ بَنُو لَيْئَةَ الَّذِينَ وَلَدَتْهُمْ لِيَعْقُوبَ
فِي سَهْلِ أَرَامَ مَعَ دِينَةَ ابْنَتِهِ، وَجَمِيعُهُمْ
ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ نَفْسًا.
١٦ ابْنُو جَادَ: صَفِيُونُ وَحَجِّي وَشُونِي
وَأَصْبُونُ وَعِيرِي وَأُرُودِي وَأَرْثِيلِي،
١٧ ابْنُو أَشِيرَ: يَمْنَةُ وَيَشْوَةُ وَيَشْوِي
وَبَرِيْعَةُ وَسَارَحُ أُخْتُهُمْ، وَأَبْنَا بَرِيْعَةَ: حَابِرُ
وَمَلْكِيئِيلُ. ١٨ هَؤُلَاءِ بَنُو زَلْفَةَ الَّتِي أَعْطَاهَا
لِلْأَبَانِ لِلْيَيْئَةِ ابْنَتِهِ فَوَلَدَتْهُمْ لِيَعْقُوبَ،
وَجَمِيعُهُمْ سِتُّ عَشْرَةَ نَفْسًا.
١٩ وَأَبْنَا رَاحِيلَ أَمْرَأَةً لِيَعْقُوبَ: يَوْسُفُ
وَبَنِيَامِينَ. ٢٠ وَوُلِدَ لِيَوْسُفَ فِي أَرْضِ
مِصْرَ مَنْسَى وَأَفْرَايِمُ مِنْ زَوْجَتِهِ أَسْنَاتَ
بِنْتِ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ مَدِينَةِ أُونِ.
٢١ وَبَنُو بَنِيَامِينَ: بَالَعُ وَبَاكِرُ وَأَشْبِيلُ
وَجِيرَا وَنَعْمَانُ وَإِيحْيَى وَرُوشُ وَمُفِيْمُ
وَحَفِيْمُ وَأَرْدُ. ٢٢ هَؤُلَاءِ بَنُو رَاحِيلَ الَّذِينَ
وُلِدُوا لِيَعْقُوبَ. وَجَمِيعُهُمْ أَرْبَعُ عَشْرَةَ
نَفْسًا.
٢٣ وَأَبْنُ دَانَ: حَوْشِيمُ، ٢٤ وَبَنُو نَفْتَالِي:
يَا حَصْتِيلُ وَجُونِي وَيِصْرُ وَشَلِيمُ.
٢٥ هَؤُلَاءِ بَنُو بَلْهَةَ الَّتِي أَعْطَاهَا لِلْأَبَانِ

لِراحِيلَ ابْنَتِهِ فَوَلَدَتْهُمْ لِيَعْقُوبَ، وَجَمِيعُهُمْ
سَبْعُ أَنْفُسٍ.

٢٦ فجميعُ الذينَ جاؤوا إلى مِصْرَ معَ
يعقوبَ، وَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ، سِتَّةٌ وَسِتُّونَ نَفْسًا
مَا عَدَا نِسَاءَ بَنِيهِ. ٢٧ وَأَبْنَا يَوْسُفَ اللَّذَانِ
وُلِدَا لَهُ فِي مِصْرَ نَفْسَانِ، فَيَكُونُ جَمِيعُ
الَّذِينَ دَخَلُوا مِصْرَ مِنْ بَيْتِ يَعْقُوبَ سَبْعِينَ
نَفْسًا.

لقاء يوسف ويعقوب

٢٨ وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ ابْنَهُ يَهُوذَا قُدَّامَهُ إِلَى
يَوْسُفَ لِيُلاقِيَهُ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. ثُمَّ
جَاؤُوا أَرْضَ جَاسَانَ، ٢٩ فَأَعَدَّ يَوْسُفُ
مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ إِلَى هُنَاكَ لِيُلاقِيَ يَعْقُوبَ
أَبَاهُ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَانَقَهُ وَبَكَى
طَوِيلًا. ٣٠ فَقَالَ لَهُ يَعْقُوبُ: «دَعْنِي أَمُوتُ
الآنَ بَعْدَمَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ وَعَرَفْتُ أَنَّكَ حَيٌّ
بَعْدُ».

٣١ وَقَالَ يَوْسُفُ لِإِخْوَتِهِ وَلِأَهْلِ بَيْتِ أَبِيهِ:
«أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى فِرْعَوْنَ لِأَقُولَ لَهُ: إِخْوَتِي
وَأَهْلُ بَيْتِ أَبِي الَّذِينَ كَانُوا فِي أَرْضِ
كِنَعَانَ جَاؤُوا إِلَيَّ. ٣٢ وَهُمْ رُعاةُ غَنَمٍ
وَأَصْحَابُ مَاشِيَةٍ، وَأَتُوا بِغَنَمِهِمْ وَبَقَرِهِمْ
وَجَمِيعِ مَا هُوَ لَهُمْ. ٣٣ فَإِذَا اسْتَدْعَاكُمْ
فِرْعَوْنُ وَقَالَ لَكُمْ: مَا حَرِيفَتُكُمْ؟ ٣٤ فَقُولُوا:
كُنَّا يَا سَيِّدِي أَصْحَابَ مَاشِيَةٍ مِنْ صِغَرِنَا
إِلَى الْآنَ، نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا جَمِيعًا. وَهَكَذَا
يُمْكِنُكُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِأَرْضِ جَاسَانَ، لِأَنَّ كُلَّ
رَاعِي غَنَمٍ مَمْقُوتٌ عِنْدَ الْمِصْرِيِّينَ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ